مَوْسُوعَةُ

فَوَائِدِ القُرآن الزكِيَّة

سُورَةُ التَّوبَةِ

أ.د خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

موسوعة فوائد

القرآن الزكية

سورة التوبة

أ.د. خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

فوائد سورة التوبة

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ (١) فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ ۙ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ (٢) وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣) إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٤) فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥)﴾

هذه السورة الكريمة من أواخر ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي آخر سورة نزلت، ولم تُذكر البسملة في بداية هذه السورة، لأن الصحابة لم يكتبوا البسملة في أولها في المصحف، بل اقتدوا في ذلك بأمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه وأرضاه. وقد سأل ابن عباس رضي الله عنهما أمير المؤمنين عثمان بن عفان عن ذلك، وأجاب رضي الله عنه: .... وكانت الأنفال من أول ما نزل بالمدينة، وكانت براءة من آخر ما نزل من القرآن، وكانت قصتها شبيهة بقصتها، وخشيت أنها منها[١]

وقد تعددت أسماء هذه السورة المباركة، بما يفيد عظيم دلالة أسمائها التي كشفت عن محتواها، فلها أسماء متعددة: سورة: التوبة، وسورة: براءة، وهذان الاسمان مشهوران بين الناس، وسورة: العذاب، وسورة: المقشقشة، وسورة: البحوث، لأنها بحثت عن سرائر المنافقين، وسورة: الفاضحة، لأنها فضحة المنافقين، وسورة: المبعثرة، لأنها بعثرة أخبار الناس، وكشفت عن سرائرهم، وسورة: المثيرة، لأنها أثارت مخازي المنافقين ومثالبهم،

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٤٤/٢) وحديث عثمان رضي الله عنه مذكور في سنن أبي داود برقم (٧٨٦) والحديث ضعيف. ولكن كتب التفسير ذكرته، لفائدته. وضعفه لا يعني نفي محتواه.

وسورة: الحافرة، لأنها حفرة عن قلوب المنافقين(١) وسميت سورة: المقشقشة لأنها تقشقش من النفاق، أي: تبرئ منه(٢)

وبدأ الله تعالى هذه السورة العظيمة بالبراءة من المشركين ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ وفي البدء بقضية البراءة كمطلع للسورة ما يدل على أهمية ما تبرأ منه الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، بل إن أول لفظة في أول آية من السورة هي ﴿بَرَآءَةٌ﴾ والتي تعني التنزه من الشيء، وإزالة علاقة الارتباط معه، قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: برئت من الشيء، أبرأ براءة، فأنا منه بريء، إذا أزلته عن نفسك، وقطعت سبب ما بينك وبينه(٣)﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ فالبراءة كائنة وصادرة من الله تعالى ومن رسوله صلى الله عليه وسلم، بما يفيد التعظيم والتهويل للأمر، وهذه البراء متعلقة بالمعاهدة بين المؤمنين والمشركين ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ فبراءة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم من العهود والمواثيق بين المؤمنين والمشركين. وبالرغم من أن العهود التي يتم إبرامها مع المشركين، تكون مع الرسول صلى الله عليه وسلم، وإنما المؤمنون تبع له، إلا أن الله تعالى جعل رسوله صلى الله عليه وسلم أيضاً معه في براءة منها، فيكون عليه الصلاة والسلام بريء مما تعاقد مع المشركين عليه، وفي هذا تعظيم لهذه البراءة، وكذلك تعظيم لمنزلة المؤمنين، من أنهم يمثلون رسولهم صلى الله عليه وسلم. قال الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: والمعنى: إلى الذين عاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من المشركين، لأن العهود بين المسلمين والمشركين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يتولى عقدها إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو من يعقدها بأمره، ولكنه خاطب المؤمنين بذلك لعلمهم بمعناه. وأن عقود النبي صلى الله عليه وسلم على أمته كانت عقودهم، لأنهم كانوا لكل أفعاله فيهم راضين، ولعقوده عليهم مُسَلِّمين، فصار عقده عليهم، كعقودهم على أنفسهم(٤)

وفي ذلك إعلان خبر نقض ما كانوا عليه من عقود مع المشركين، ثم من كريم أخلاق الإسلام أن أمهل اللهُ تبارك وتعالى المشركين أربعة أشهر، ثم تنتهي العقود معهم، وتفسخ المواثيق ﴿فَسِيحُواْ فِى ٱلْأَرْضِ

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣/٢٦٤-٢٦٥)

(٢) الزمخشري، الكشاف (٢/٢٣٧)

(٣) القرطبي، لجامع لأحكام القرآن (٨/٤١)

(٤) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١١/٣٠٣-٣٠٤)

أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ فلم يأخذهم غرة، ولا خدعة، بل بمدة كافية بينهم. وخاطبهم بعد أن أخبرهم بالمبدأ الجديد، من إعلان نقض العهود، على وجه يحفظ لهم حقوقهم من غير إجحاف، ولا تسلط ولا غيلة ولا غرة، انطلقوا في الأرض آمنين من أن يقع بكم مكروه من جانب المؤمنين. وكلمة ﴿ فَسِيحُواْ ﴾ تدل على السير في الأرض ذهاباً وإياباً، وإقبالاً وإدباراً، بكامل حريتكم. وتم تحديد المدة الكافية الوافية ﴿ فَسِيحُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ﴾ مما يدل على عظمة الإسلام في أخلاقه وعدله مع العدو، وبالتالي فإن منهج المسلم يجب أن ينطلق من منهج الإسلام وهديه وأخلاقه.

والعقود التي بين المؤمنين والمشركين، بعضها ينقضي قبل الأربعة الأشهر، وبعضها خلال الأربعة أشهر، فاستوعبت الأربعة الأشهر زمن العقود التي ستنتهي خلال الأربعة أشهر، وما هو أقل، قال الطبري رحمه الله تعالى: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب: قول من قال: الأجل الذي جعله الله تعالى لأهل العهد من المشركين وأذن لهم بالسياحة فيه ﴿ فَسِيحُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ﴾ إنما هو لأهل العهد، الذين ظاهروا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونقضوا عهدهم قبل انقضاء مدته، فأما الذين لم ينقضوا عهدهم، ولم يظاهروا عليه، فإن الله جَلَّ ثناؤه، أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بإتمام العهد بينه وبينهم إلى مدته، بقوله تعالى ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[1] وأما الأشهر الأربعة، فكان ابتداؤها يوم الحج الأكبر، وانقضاؤها انقضاء عشر من ربيع الآخر، فذلك أربعة أشهر متتابعة[2] وأما من نقض ونكث عهده ممن تزيد مدته عن أربعة أشهر، فإنه يصير بنقضه لا عهد له.

وهذا التحديد والتعيين من الله تعالى يفيد ويبين نُبل وكرم أخلاق الإسلام، وأنها تعطي الناس حقوقهم بل وتبادر بها لهم، بل وتعطي العدو حقه كاملاً من العدل والإنصاف وعدم الظلم. وإذا كان هذا الوفاء بالعهود مع المشركين والمناوئين لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم، فإنها بين المؤمنين أقوى حرمة، وأوجب وفاء، وسواء فيما يتعلق بالأعمال والمهن، أو الزواج والأُسر، أو في البيع والشراء، أو في الفروض والواجبات والمداينات، وغيرها من ضروب التعامل في الحياة.

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١١/٣١١-٣١٢)

(٢) المرجع السابق (١١/٣١٨)

ومن الاحترازات والتنبيهات والوعظ للمشركين في مدة العهد قوله عَزَّ وجل ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخۡزِي ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ فإن أُعْطِيتُم الأمان فلا تعتقدوا أنكم في مأمن من بطش الله تعالى بكم إن بقيتم على كفركم، أو حصل منكم خلاف ما يجب عليكم في الأربعة الأشهر المقررة، فإنكم في قبضة الله تعالى، وتحت قهره وسلطانه، فلن تفلتوا منه، ثم أخبرهم الله تعالى بالنتيجة الحتمية لكل كافر ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخۡزِي ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ فإن الله تعالى مُذل الكافرين، ومُلحق بهم الخزي في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا بالانكسار والإذلال، وفي الآخرة بسوء العاقبة والدار، والعقاب الأليم بجهنم وسوء المصير.

ثم يقول تبارك وتعالى ﴿ وَأَذَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥۚ فَإِن تُبۡتُمۡ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ بدأت الآية الكريمة بالتنبيه التحذيري ﴿ وَأَذَٰنٞ ﴾ فَيُعْلِمُ الله تعالى الناس جميعاً بما يلفت انتباههم لما بعده، وخاصة أن هذا الإعلام هو من الله تعالى، ذي الجلال والسلطان والقاهر فوق عباده، وأن رسوله صلى الله عليه وسلم معه في هذا الإعلام، وكلمة ﴿ وَأَذَٰنٞ ﴾ تفيد شد الانتباه، وأن أرعوا سمعكم لما بعده من القول ﴿ وَأَذَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ ﴾ وكونه صادر من الله تعالى، ومشاركة نبيه له عَزَّ وجل، أعطى هذا الإعلام والتنبيه والتحذير هيبة ورهبة، ومقاماً عظيماً لمدلوله ومقصده.

وقد حدد الله تاريخ هذا الإعلام، مع بيان وقته ومكانه، حتى لا يكون لأحد حجة من خلقه، وهو ﴿يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ ﴾ وهو يوم النحر، يوم العيد، الذي هو أفضل أيام المناسك، وأظهرها وأكبرها، وهو يوم تجمع الناس. فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: وقف النبي صلى الله عليه وسلم يوم النحر، بين الجمرات في الحجة التي حج بهذا، وقال (هذا يوم الحج الأكبر)[١]

ومن فوائد السياق أن هذا الإعلام يتصف بالعموم ﴿إِلَى ٱلنَّاسِ ﴾ ليشمل المؤمنين، ويشمل غيرهم من المشركين، ومن له عهد وميثاق، ولمن ليس له عهد وميثاق. وأما الإعلام الذي قبله كان خاصاً بمن لهم عهد

(١) البخاري، الجامع الصحيح (٥٢٩/١) برقم (١٧٤٢)

وميثاق، وهو قوله تعالى ﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ فهو خاص بمن له عهد من المشركين، وأما قوله تعالى ﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ ﴾ فهو عام، ليشمل من له عهد وميثاق، ولمن ليس له عهد وميثاق. وفي هذا تدرج البيان من الخاص إلى العام. وقد أضاف الله تعالى نص البيان له ولرسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ ﴾ لأنه سيصدر بعد هذا التنويه تشريع عظيم، وأن الْمُشَرِّعُ هو الله تعالى، والرسول صلى الله عليه وسلم هو الأمين الْمُخْبِر بشريعة الله تعالى، وأنه عليه الصلاة والسلام في تكريم وحَظْوَةٍ من الله تعالى بهذا البيان أمام الحشود العظيمة التي احتشدت يوم الحج الأكبر، وأن ما يأتي به هو من عند الله تعالى. ومن فوائد اختيار يوم النحر الذي هو يوم الحج الأكبر ليصدر فيه البلاغ ما يضمن تواجد جميع الحجيج، بعد أن توافدوا يوم التروية الذي هو يوم الثامن، وكذلك من توافدهم في أول يوم عرفة أو في منتصفه، أو بين ذلك أو ما بعد منتصفه، وكذلك لما في عرفه من خطبة يوم عرفه، والتفرغ للعبادة، وإفراد النداء والإعلام عن خطبة يوم عرفة إبراز وإظهار للنداء ومضمونه.

ومن دقائق الفوائد في الاستدلال على يوم الحج الأكبر أنه يوم النحر. قال الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى أنه: يُضاف اليوم إلى المعنى الذي يكون فيه، كقول الناس: يوم عرفة. وذلك يوم وقوف الناس بعرفة. ويوم الأضحى. وذلك يوم يضحون فيه. ويوم الفطر. وذلك يوم يفطرون فيه. وكذلك يوم الحج، يوم يحجون فيه، وإنما يحج الناس ويقضون مناسكهم يوم النحر، لأن في ليلة نهار يوم النحر الوقوف بعرفة، غير فائت إلى طلوع الفجر، وفي صبيحتها يُعمل أعمال الحج، فأما يوم عرفة فإنه وإن كان فيه الوقوف بعرفة، فغير فائت الوقوف به إلى طلوع الفجر من ليلة النحر، والحج كله يوم النحر[1]

ثم ذكر الله تعالى محتوى إعلان الإعلام ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥۚ فَإِن تُبۡتُمۡ فَهُوَ خَيۡرٌ لَّكُمۡۖ وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ فأول المضمون إعلان براءة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم من المشركين. ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ ﴾ والبراءة تتضمن التخلص والانتفاء من أي علاقة مع المشركين، وأن ليس هناك رابط يربط المشركين بالله تعالى وبرسوله صلى الله عليه وسلم، مما يفيد إعلان بطلان الشرك، وأنه لا يمت إلى الله

([1]) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١١/٣٣٦-٣٣٧)

تعالى وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم بصلة، وأن الصلة الوحيدة بين الناس وبين الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم هي صلة دين الإسلام فقط، وأن كل صلة لا قيمة لها دون الإسلام.

ثم يتضمن الإعلام جانب الترغيب في دين الله تعالى ﴿ فَإِن تُبۡتُمۡ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ ﴾ فإن تخلصتم من الكفر والشرك فهو الأفضل والأحسن لكم، ومن جميل البيان وقوته أن وردت الخيرية هنا عامة ﴿ خَيۡرٞ ﴾ لتشمل خيرية الدنيا من التوفيق ومن عمو فضل الله تعالى، وكذلك خيرية الآخرة من الفوز بالجنة والنعيم المقيم. وفي النص الكريم ترك الحرية في الاختيار، من خلال بيان كلا الخيارين ونتيجته ﴿ فَإِن تُبۡتُمۡ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ ﴾ فهناك خياران مطروحان للناس: خيار الخير، وخيار التولي عن الخير ﴿ وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ﴾ فمن اختار التولي عن الخير، فلا يعتقد أنه في منأى وبُعد عن سلطان الله تعالى وقهره وقبضته، بل يجب العلم بأن من تولى فليس في توليه تعجيز لله تعالى عن أخذه بإثمه وجرمه. فإنه قريب من قدرة الله تعالى وسلطانه وقهره، مما يفيد أن من تولى عن الإسلام فإنه على معصية عظيمة، وأن معصيته ستجعله في صف الكفر والكافرين، الذين لهم من الله تعالى البشرى بالعذاب ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ فإن لهم من الله تعالى العذاب المتصف بشدته وقوته. وقد استخدم في البيان لفظ البشارة، ليفيد التنقص والتهديد، لأن البشارة قد استخدمت في غير التبشير بالخير، وإنما أنزلت في البيان على صيغة التهديد والترهيب، ليكون لها في السياق وقع نفسي عظيم في قلب الْمُخَاطب. كما أن هذا العذاب عام من حيث النوع، ومن حيث الوقت، ومن حيث الشدة، فيشمل صنوف العذاب، ويشمل الدنيا والآخرة، كما أنه موصوف بشدته وقوته.

وفي الصحيح أن أبا هريرة رضي الله عنه قال: بعثني أبو بكر في تلك الحجة في مؤذنين يوم النحر، نؤذن بمنى: ألا لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف عريان. قال حميد بن عبد الرحمن: ثم أردف رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً فأمره أن يؤذن ببراءة. قال أبو هريرة: فأذن معنا علي في أهل منى يوم النحر: لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان[١]

ثم هذا استثناء خاص من الذين منحهم الله تعالى الأربعة أشهر، يسيحون في الأرض، فقد احتفظوا بعهدهم إلى مدته؛ إذا كان متجاوزاً للأربعة أشهر ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ أَحَدٗا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ فاشترط

(١) البخاري، الجامع الصحيح (١/١٣٩) برقم (٣٦٩)

تبارك وتعالى للمستثنين من الأربعة أشهر بحكم المواثيق التي تتجاوز المدة المضروبة مع المؤمنين، بأن لا يحصل منهم نقض للميثاق بأحد صورتين: الأولى ﴿ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا ﴾ أي: لم ينقضوا من العهد شيئاً، وكلمة ﴿ شَيْـًٔا ﴾ تستوفي كل شيء، مهما كان صغيراً أو كبيراً، ومن فوائد دلالة اللفظة أنه إذا كان هذا في أقل شيء، فإن فيما هو أكبر يكون أعظم في نقض الميثاق. وهذا من دقة التوجيه والبيان في كتاب الله تعالى، وليتعلم منه المؤمن وضع الاحترازات، والتدقيق، وجميع الاحتمالات الممكنة.

وأما الصورة الثانية للنقض فهي ﴿ وَلَمْ يُظَـٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا ﴾ أي: فلم يناصروا عليكم أحداً، لأن المظاهرة تفيد معنى المناصرة، واستوفت كلمة ﴿ يُظَـٰهِرُوا۟ ﴾ جميع أوجه المظاهرة والممايلة، سواء كانت مظاهرة وممايلة ظاهرة حسية، أو معنوية بالرأي والمشورة، أو بأي نوع يمكن أن تكون. وكذلك استوفت كلمة ﴿ أَحَدًا ﴾ فرداً كان أو جماعة أو حليفاً أو أي نوع كان من التحالفات. وهذه من الدقائق البيانية في الدقة والاحترازات، والتي تستوفي جميع ما يمكن أن يكون، وبما تنتفي معه جميع أشكال التوهم، أو الفهم الداعي إلى التردد، أو نحوه، مما يعلم المؤمنين كيف يكونون، وكيف يبرمون عهودهم ومواثيقهم، وكيف يوجه القائد، وكيف تكون تعليماته من السلامة في تحقيق الفهم.

ثم يختتم الله تعالى هذا النص العظيم بما يوضح كمال الإسلام في أخلاقه، وحفظه لحقوق الآخرين ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ فإن الله يحب منكم أيها المؤمنون الاتصاف بالتقوى، التي تمنع التعدي، بما يفيد التحريض على الوفاء مع أهل العقود والعهود والمواثيق، فإن وفاءكم لهم دليل على تقواكم لله تعالى، وتقواكم لله تعالى تحقق لكم محبته لكم ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ مما يفيد أن الله تعالى محب لأهل التقوى، وأن التقوى تحقق الخوف من الله تعالى؛ من أن يصيب المتقي جرماً لا يُرضِي الله تعالى، مهما كان نوعه. كما يفيد هذا أهمية الوفاء بالعهود، حتى ولو كانت مع غير المسلمين.

ثم يوجه الله تعالى المؤمنين بما يصنعون مع المشركين إذا انقضت الأربع الأشهر الْحُرُم ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ فإذا انقضت الأشهر الحرم وزالت، كما يزول الجلد من الحيوان ويُنْزَع منه ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ ﴾ ففي لفظة الانسلاخ ما يفيد الدقة في تحديد انقضاء المدة، فلم يبق منها شيء، لا دخول ليلها في نهارها، ولا دخول

نهارها في ليلها، بل تمام الزوال الذي يمنع التعدي، أو أخذ القوم على غرة، فوالله إنها لآية إعجاز من آيات الله تعالى؛ في كمال العدل والإنصاف مع المشركين، وهم على شركهم وكفرهم ومشاقتهم لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم.

وفي تحديد الأشهر الْحُرُم قال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى: والذي يظهر من حيث السياق ما ذهب إليه ابن عباس في رواية العوفي عنه، وبه قال مجاهد وعمرو بن شعيب ومحمد بن إسحاق وقتادة والسدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أن المراد بها أشهر التسيير الأربعة المنصوص عليها بقوله ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ﴾ ثم قال ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ﴾ أي: إذا انقضت الأشهر الأربعة التي حرمنا عليكم فيها قتالهم وأجلناهم فيها، فحيثما وجدتموهم فاقتلوهم ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾ أي: من الأرض، وهذا عام، والمشهور تخصيصه بتحريم القتال في الحرم ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩١﴾ وقوله تعالى ﴿وَخُذُوهُمۡ﴾ أي: وأسروهم إن شئتم قتلاً، وإن شئتم أسراً، وقوله تعالى ﴿وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖ﴾ أي: لا تكتفوا بمجرد وجدانكم لهم، بل اقصدوهم بالحصار في معاقلهم وحصونهم، والرصد في طرقهم ومسالكهم حتى تضيقوا عليهم الواسع، تضطروهم إلى القتل أو الإسلام، ولهذا قال ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[1]

ولما أن الأرض ملك لله تعالى، والدين هو دين الله تعالى، والخلق كلهم عبيد الله، والنبي رسول الله صلى الله عليه وسلم اتخذ في الكافرين من الإجراء ما يتناسب مع عصيانهم وتمردهم على حجج الله تعالى وبراهينه، وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم، فجعلهم بين خيارين: إما مقاتلتهم والتضييق عليهم ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖ﴾ والخيار الثاني: أن يتوبوا إلى الله تعالى من شركهم، ويدخلوا في الإسلام ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ فشروط تخلية سبيلهم التوبة أولاً: ﴿فَإِن تَابُواْ﴾ والتوبة تقتضي ترك ما سبق من الكفر والمعاصي، والاستسلام لله تعالى بالإيمان الذي مكانه القلب، والذي من مظاهره إقامة الصلاة

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٣٤٩)

﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ التي هي عمود الدين، والتي هي الشرط الثاني. وأما الشرط الثالث: فهو إيتاء الزكاة ﴿وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وهي زكاة الأموال بأنواعها، فإن حققوا ذلك ﴿فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ وتخلية السبيل توجب تركهم، وعدم التعرض لهم، ومعاملتهم كمعاملة المسلمين لأنفسهم، فقد أصبحوا جزءاً من أهل الإسلام. مما يفيد أن الهدف ليس هو الاستيلاء عليهم، ولا على أموالهم، ولا استضعافهم، بل فقط إنقاذهم من الكفر ومصيره، ليكون مصيرهم إلى الجنة ونعيمها، فالهدف تحقيق مصلحتهم بدخولهم في هذا الدين.

ثم يزيدهم الله تعالى على ذلك من الفضل مغفرته لهم فيما سبق منهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ فإن الله تعالى متصف بالمغفرة وكثرتها، وكذلك بالرحمة وكثرتها، فيغفر ذنوب من تاب، بل ويزيدهم بأن يرحمهم، بالإحسان إليهم، فهي زيادة عن الصفح وعدم إيقاع العقوبة، فإن الرحمة من الله تعالى إنعام وإفضال. وفي هذا استحثاث للمسلمين بالصفح عنهم، وعمَّا بدر منهم، وعدم التعرض لهم بما يسيء إليهم، فإن الله تعالى يغفر لمن تاب وأناب إليه.

﴿وَإِنْ أَحَدٞ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٞ لَّا يَعْلَمُونَ ٦ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُواْ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُواْ لَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ٧ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ٨ ٱشْتَرَوْاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٩ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ١٠ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْأٓيَٰتِ لِقَوْمٖ يَعْلَمُونَ ١١ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ١٢ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخْشَوْنَهُمْۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ١٣ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ

وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾

ومن أخلاق التعامل مع المشركين قبول جوار من استجار، من أجل غاية وهدف نبيل وعظيم. قال الله عزَّ وجل ﴿ وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡلَمُونَ ﴾ فإن أحد من الذين أمر الله تعالى بقتالهم استأمنك، سائلاً أمانك وذمتك وجوارك فامنحه مأمنه ﴿ فَأَجِرۡهُ ﴾ فأجبه إلى طلبه، وهذا أمر من الله تعالى، لهدف نبيل وغاية عظيمة ﴿ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ من أجل أن يسمع القرآن الكريم، ويتضح له حقيقة هذا الدين، فيحصل له الفقه بشريعة الله تعالى، وبمراد الله تعالى من خلقه، لأن في سماع القرآن العظيم ما تتحقق به الغاية، التي منها إقامة الحجة عليه، ومنها أنه في خلوة بنفسه عن كل مؤثر عليه، قد يمنعه من سماع الحق، ويحول بينه وبين الخير.

كما أن في سماع كلام الله تعالى قوة تأثيره على القلوب، لما فيه من الحق الواضح المبين. مما يفيد أن منهج الإسلام مبني على الإقناع، ومبني على دلالة الإنسان على الخير في دار معاشه ومعاده، وعلى النجاة من عذاب الدنيا وخزي الآخرة. فليس من أهدافه إذلال الغير لأهل الإسلام، أو لأخذ أموالهم وديارهم، بل لتحقيق النجاة والسعادة للبشرية، وسلامة العيش في الدنيا والآخرة. ومن جليل فوائد لمعاني أن ذكر الله تعالى أن القرآن الكريم كلامه ﴿ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ مما يدل على عظمة القرآن، ومنزلته، بأنه كلام الله رب العالمين.

وبعد هذه المرحلة من سماع القرآن الكريم، تعقبها مرحلة أخرى، يحفظ بها المستأمن نفسه من كل أذى وضرر ﴿ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥ ﴾ فحتى لو لم يدخل في الإسلام فهو آمن حتى يرجع إلى بلاده، أو مكانه الذي يقصده، ويأمن فيه على نفسه، فإن أمانه مستمر، لا ينقطع بانتهاء سماع كلام الله تعالى، بل حتى بلوغه الموضع الذي يأمن فيه. سواء قبل الإسلام أو لم يقبل. ثم يبين الله تبارك وتعالى علة تشريع هذا الأمر ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡلَمُونَ ﴾ ففعل هذا الأمر بسبب أن هؤلاء المشركين لا يعلمون حقيقة دين الله تعالى، وماذا لهم فيه من الخير لو آمنوا وصدَّقوا، وماذا عليهم من الوزر والعذاب والإثم إن تولوا وكفروا. مما يبين حقيقة تعامل الإسلام مع الكافرين، فإنه حال جهلهم به يتحين الفرص والمناسبات لإبلاغهم به، وهذا من عظمة تشريع الله تعالى، ومقاصده العظيمة الكريمة. وأن الله تعالى رحيم بعباده، وأنه يبين لأهل الإسلام أن عليهم استثمار كل فرصة يتحقق بها الإسلام لغيرهم.

ثم يبين الله تعالى ما يستحقه المشركون على الأصل في التعامل معهم ﴿كَيۡفَ يَكُونُ لِلۡمُشۡرِكِينَ عَهۡدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ﴾ فتتصدر الآية الكريمة بما يفيد التعجب ﴿كَيۡفَ﴾ ليفيد التأمل والتفكر في الحقائق، كيف يكون للمشركين عهد عند الله، فيأمنون على ما هم فيه من الشرك والكفر، ومن عذابه وبطشه في الدنيا ثم الخزي في الآخرة، وكيف يكون لهم عهد عنده عَزَّ في علاه وعند رسوله صلى الله عليه وسلم فيأمنون به على أنفسهم من الحرب، فهل يستحقون ذلك؟ بما يفيد أنهم لا يستحقون بكفرهم ذلك الأمن والأمان إلا فئة معينة منهم بسبب العهد الذي تعاهدتم به معهم ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ﴾ فلو لم يكن ذلك العهد لكانوا مثل غيرهم، فلا يستحقون أن يكونوا في مأمن من الله تعالى ومن رسوله صلى الله عليه وسلم. وهم القبائل التي دخلت في العقد والعهد يوم الحديبية، إلى المدة التي كانت بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين قريش[1] فهؤلاء لهم العهد والميثاق كما تم إبرامه، وذلك حال استقامتهم وإنفاذهم للعهد والميثاق من ترك الحرب بينكم وبينهم عشر سنين ﴿فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ فإن أوفوا، فلهم الوفاء، وإن نكثوا ينتهي ذلك العقد والميثاق ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ وهذا حث للمؤمنين على الوفاء، فإن الله تعالى يحب منكم أيها المؤمنون الاتصاف بالتقوى، التي تمنع من الجور والتعدي، بما يفيد التحريض على الوفاء مع أهل العقود والعهود والمواثيق، فإن في وفائكم لهم دليل على تقواكم لله تعالى، وتقواكم لله تعالى تحقق لكم محبته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ وهذه من مكارم وأخلاق هذا الدين العظيم.

قال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى: استمر العقد والهدنة مع أهل مكة من ذي القعدة، في سنة ست إلى أن نقضت قريش العهد، ومالؤوا حلفاءهم، وهم بنو بكر على خزاعة أحلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقتلوهم معهم في الحرام أيضاً، فعند ذلك غزاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في رمضان، سنة ثمان، ففتح الله عليه البلد الحرام، ومكَّنه من نواصيهم، ولله الحمد والمنَّة، فأطلق من أسلم منهم بعد القهر والغلبة عليهم، فَسُمُّوا الطلقاء، وكانوا قريباً من ألفين، وأما من استمر على كفره، وفَرَّ من رسول الله صلى الله عليه

---

(1) وقد تناولها الطبري بالبيان، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١١/٣٥١) وكذلك ابن الجوزي (٣/٢٧٢)

وسلم، بعث إليه بالأمان والتسيير في الأرض أربعة أشهر، يذهب حيث شاء، ومنهم صفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل، وغيرهما، ثم هداهم الله بعد ذلك إلى الإسلام التام، والله المحمود على جميع ما يقدره ويفعله[١]

ثم يخبر الله تعالى بما عليه المشركون من النية الرديئة، فيما لو تمكنوا من المسلمين، بما يبين أنهم لا يستحقون الأمن والأمان لولا تلك المعاهدات ﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ فجاء البيان في مطلع الآية الكريمة بما يفيد التعجب ﴿ كَيْفَ ﴾ ليفيد التعجب من أن يكون لهم العهد مع خبث مرادهم، فكيف يكون لهم العهد، في حين لو تمكنوا منكم، فإنهم لن يُراعوا ولن يحفظوا فيكم جواراً ولا قرابة ﴿إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾ أي: لا يحفظوا لكم جواراً ولا قرابة، ولا عهداً. مما يفيد أن مبدأ الكفر مبني على نقض العهد حال التمكن منكم، لأنه لا شيء يمنعهم من ذلك، فليس لهم إيمان وتقوى وخوف من الله تعالى يمنعهم من نقض العهود والمواثيق، ثم يكشف الله تعالى عن بواطن مبادئهم ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ فلهم ظاهر مخالف لباطنهم ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ يقولون بالكلام ما ترضون به، ولكن قلوبهم على خلاف ظاهرهم ﴿وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ ﴾ فأما قلوبهم فتأبى وتترفع عن الحق الذي ترضونه وتقبلونه من ألسنتهم، مما يفيد أن شيمتهم الغدر ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ فأكثرهم ناكثون للعهود، خارجون عن الصدق، بل إن لفضة الفسق، استجمعت كل ما يندرج تحته من معاني ودلالات الخروج عن المبادئ الحميدة والمكارم المحمودة. ومن عظيم بيان الله تعالى لحالهم أنه لم يعمم عليهم هذا الخلق الذميم، بل قال تعالى ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ مما يدل على أن هناك القليل منهم الذين يترفعون عن الفسوق، ويتمسكون بمكارم الأخلاق والعهود.

ومن مزيد الإخبار بخفايا المشركين يقول تعالى ﴿ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ فقد اعتاضوا عن آيات وحجج وبراهين الله تعالى بالزهيد القليل من متاع الدنيا، فرغبوا في القليل الزهيد من متاع الدنيا عن طاعة الله تعالى، بل من دقة الوصف لحالهم أن المعاوضة كانت بأسلوب البيع والشراء، فأخذوا الخسيس والحقير من الدنيا مقابل ترك العظيم من الفوز بطاعة لله تعالى وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، وما يترتب على ذلك من النجاة من النار والفوز بالجنة، فإن تركهم لحجج الله تعالى كان مقابل تحصيل الحقير الزائل من الدنيا،

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٣٥١)

ليدل على فداحة الخسارة، فَنَوَّه سبحانه وتعالى بأنهم ظلموا أنفسهم بتلك المقايسة والمعاوضة والمبادلة، وفي هذا تقريب الصورة عن حالهم من كل وجه. وإذا رُبط هذا الوصف مع كونها من آخر ما نزل من القرآن دل ذلك على أنه قد بلغهم حقائق هذا الدين مبلغاً لا عذر لهم في تركه غير تحصيل الفاني من الدنيا. فكان الثمن المدفوع منهم لتحصيل الفاني من الدنيا هو دلائل وبراهين وحجج وآيات الله تعالى. ولذلك حصل منهم الإعراض والصدود عن دين الله عَزَّ وجل.

فقد حصل منهم المعرفة لسبيل الله تعالى الموصلة إليه جَلَّ جلاله، ولكنهم أعرضوا ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓ﴾ ويفيد لفظ الصد في سياق البيان، أنهم أعرضوا عن دين الله تعالى بصدودهم عن الحق، وكذلك سعيهم في صد المؤمنين عن سبيل الله تعالى، وكذلك صدهم لكل من أراد سبيل الله تعالى عن مراده ومبتغاه، مما يبين أن الفاسق يسعى سعياً حثيثاً لأن يجعل الصالح فاسداً مثله، ويسعى لبقاء الفاسد والفاسق على فسقه، حتى لا يضعف ويقل سواد الفاسدين والمفسدين. وقد ذم الله تعالى صنيعهم هذا ﴿إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ فبئس الصنيع ما صنعوا من الإعراض عن الحق، والسعي في صد غيرهم عنه. وجاء الذم لأعمالهم بأقصى معانيه، بكلمة ﴿سَآءَ﴾ التي هي من أفعال الذم، التي تفيد المبالغة في الذم لأفعالهم المتكررة، والتي اتصفت بهذا الوصف المتكرر مع كل فعل يعملونه من شرائهم الكفر بالإيمان، وصدهم عن سبيل الله تعالى، وغيرها من الأعمال الكفرية، والمحادة لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم.

ثم يؤكد الله تعالى ما سبق بيانه عن أخلاقهم الذميمة، بأنهم لا يحفظوا لكم قرابة ولا عهداً ﴿لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗ﴾ ففي الآية التي من قبل مرتبطة بحال كونهم إن يظفروا بكم ﴿كَيۡفَ وَإِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ لَا يَرۡقُبُواْ فِيكُمۡ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗ﴾ وأما في هذه الآية فهي مرتبطة بتفريطهم في دين الله تعالى، وفي من حمل دين الله تعالى من المؤمنين، وبسوء أعمالهم تجاهكم وتجاه دين الله تعالى، حتى وصل بهم الحد أنهم لا يحفظوا لكم أيها المؤمنون جواراً ولا قرابة ولا عهداً، فقد وصلوا لمرحلة العناد ﴿ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩ لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗ﴾ فهؤلاء وصلوا لمرحلة التجاوز المتناهي في الصدود والعداوة ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُعۡتَدُونَ﴾ فهؤلاء هم من التزموا صفة الاعتداء بالتجاوز على الحق المبين. أي: أنهم تجاوزوا في تعاملهم معكم إلى حد الظلم، الذي هو مجاوزة الحد، فاستحقوا وصف المعتدين.

ومع هذا كله يأمر الله تعالى قبولهم حال دخولهم في الإسلام، مع التجاوز عن كل ما كان منهم ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ فإنهم يتساوون معكم في الدين، بل إلى درجة الأخوة الدينية، إذا هم تابوا من كفرهم، وآمنوا وأقاموا شعائر الدين من الصلاة والزكاة. ثم يختتم سبحانه وتعالى الآية الكريمة بقوله عزَّ وجل ﴿وَنُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: نوضح ونبين الحجج والأدلة على الخلق الذين يعلمون ويفهمون، فتقوم عليهم تلك الحجج والبراهين، لأن كل إنسان عاقل مكلف فهو متصف بصفة القدرة على الفهم والعلم الذي تقوم به الحجة عليه.

ثم يضع الله تعالى للمؤمنين الحال الأخرى التي يمكن أن يكون عليها المشركون ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ فإن نقض هؤلاء المشركون الذين عاهدتموهم تلك المواثيق والمعاهدات ﴿وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ﴾ أي: قدحوا في دينكم بالتنقص والعيب ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾ فهنا يلزمكم مقاتلتهم، بل يجب مقاتلتهم، لأن فعل الأمر من الله تعالى يستوجب الوجوب ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾ وسماهم ﴿أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾ أي: رؤساء الكفر بالله تعالى، مما يدل على أن الكثير من الكافرين هم تابعون لهم في كفرهم بالتقليد والاقتداء والمتابعة، وأنهم متزعمون راية الكفر، ويناخون من أجلها، ويصدون عن الإسلام، ويصدون حتى من آمن كما في سياق الآيات السابق. فهؤلاء ﴿إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ﴾ أي: لا عهد لهم، ﴿لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ فلعلهم بمقاتلتهم ينتهون عن جرمهم من المقاتلة لكم، والطعن في دينكم، والمظاهرة عليكم. وأيضاً تفيد لعلهم يرجعون عن كفرهم، مما يفيد أن هذا الدين في قتاله للكافرين هو لصد أذاهم، وكذلك لمنعهم من صد الناس عن دين الله تعالى، ولمنعهم من صد المؤمنين وفتنتهم عن دينهم، وكذلك رجاء أن يدخلوا في دين الله تعالى، فليست هناك أهداف ظالمة، بل أهداف الإسلام سامية من أجل تحقيق الخير للعباد في دار معاشهم ومعادهم.

ثم يوجه الله تعالى المؤمنين لمقاتلة أولئك المشركين بسؤال تقريري عن استحقاقهم للقتال، مع ذكر الأسباب والبراهين الواضحة التي تستدعي قتالهم ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ﴾ فيستدفع الله تبارك وتعالى المؤمنين لمقاتلة أولئك المشركين الذين نقضوا العهود والمواثيق بهذا السؤال الممتلئ بعلة المقاتلة للمشركين ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ﴾ فقد حصل منهم نكث العقود

والعهود والمواثيق، وكذلك ما همُّوا به تجاه نبيه صلى الله عليه وسلم ﴿وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾ فأضاف سبحانه وتعالى سبب خروج النبي صلى الله عليه وسلم من مكة للمدينة علة وسبباً لمقاتلتهم، فلو لم يُضَيِّقُوا عليه صلى الله عليه وسلم لما خرج منها ﴿وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وأيضاً هم الذين ابتدأوا قتالكم أول مرة، بنقضهم العهد، وأعانوا بني بكر على خزاعة، التي كانت في حلف مع النبي صلى الله عليه وسلم، وهم الذين بدأوكم القتال يوم بدر، فلم يكتفوا بأن أحرزوا العير، وينصرفوا، فأبوا إلا الوصول إلى بدر، وشرب الخمر بها ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾ وهذا سؤال استحثاث واستنكار إن لم يقاتلونهم وقد تبينت لكم تلك الأسباب والعلل الموجبة لمقاتلتهم ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فالذي يستحق الخشية والخوف منكم هو الله تعالى، الذي له كمال السطوة وقوة العقوبة، وليس أولئك المشركين. فإن كنتم مؤمنين حقاً فاجعلوا خشيتكم لله تعالى، ولا تخشوا منهم شيئاً، لأن الأمر والنصر والتمكين كله من عنده سبحانه وتعالى. مما يفيد أهمية صرف الخشية لله تعالى، وأنها من علامات صدق الإيمان، وأن النصر والتمكين كله من عند الله تعالى.

ثم بعد هذا الحث المبين يأمر الله تعالى بقتالهم ﴿قَٰتِلُوهُمْ﴾ ثم يخبرهم الله تعالى بالنتيجة، وبالمكاسب التي سوف تتحقق لهم ولهذا الدين، وما سيحصل لهم من الخزي والعار الذي سيصيبهم على أيدي المؤمنين، لتكون النتيجة آية من آيات الله تعالى بوفائه بما أبان وأوضح وحكم ﴿يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ فإن الله تعالى معذبهم، وجاعلكم أنتم السبب في ذلك، مما يفيد أن إلحاق الضرر، وقوته هو من الله تعالى، وما أنتم إلا سبب في ذلك، لتتحقق لكم به المكاسب العظيمة من الهيبة والغنائم في الدنيا، ومن الجنة في الآخرة، وأما الكافرون فينالهم الخزي ﴿وَيُخْزِهِمْ﴾ فيلحقهم العار والخزي من التنكيل والأسر، والسمعة بين الناس في الدنيا، والعذاب في الآخرة ﴿وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ وأما أنتم أيها المؤمنون فينصركم الله تعالى ويمكنكم منهم، وقد نسب الله تعالى النصر له عَزَّ وجل ﴿وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ مما يفيد أن النصر هو من الله تعالى، وأن من الإنسان العمل بالأسباب.

وكذلك يحصل للمؤمنين ما يزيل عن نفوسهم الغيظ مما صنع المشركون ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ وهذا من بيان خصائص النفوس، وما يجيش فيها من ألم الضيق الذي أورده المشركون في قلوب المؤمنين، مما يفيد أن ما أصاب المؤمنين من الكافرين كان كالمرض من شدته، وهذا الفتح بمثابة الشفاء

والعافية لهم، لما أصابهم من العزة والظفر بعدوهم، ومن دقة البيان أنه خصص ولم يعم المؤمنين جميعاً ﴿ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾ أي: طائفة من المؤمنين، فهناك من لم يصبهم أذى في مكة، كالأنصار في المدينة، وهذه من دقائق الإعجاز البياني في القرآن الكريم، وذكر ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى أنه قيل عُني صدور خزاعة حلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم[١] فهي تشمل كل طائفة أصابها الغيظ والكمد من المشركين بمكة، وإن تعددت وتنوعت أحوالهم ﴿ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ﴾ فيزيل الله تعالى ما أصاب قلوب المؤمنين من الغيظ. ومعنى الغيظ هو أشد الغضب، وهو الحرارة التي يجدها الإنسان من فوران دم قلبه[٢]

وأما ذهاب غيظ القلوب فهو زوال حرارة القلب التي تستدعي الانتقام، فتصبح القلوب صافية نقية، وأما الشفاء فهو التعافي من العلة، وذلك بزوال ما أصاب الصدور من الحرقة والألم والتوجع الذي أصاب أولئك المؤمنين من المشركين، حتى لا يبق له أثر، فيحل مكانه الانشراح. فلكل لفظة مقصدها الدقي في القرآن العظيمق، خاصة أن الغيظ متعلق بالقلب وحرقته، والذي يدفع للانتقام، وفي ذهابه تحصيل التخلص منه، حتى لا يجدون في أنفسهم دواعي الانتقام التي سببها غيظ القلوب. ومن فوائد المعاني أن الصدور أعم من القلوب، وأن القلب أخص من الصدر، لتشمل ما كان عاماً، كضيق الصدر والحزن والألم مما حصل، فينتفي وجوده بإزالته وإذهابه بقدرة الله تعالى، وذلك فضلاً ومِنَّة منه عَزَّ وجل، وأما الشفاء فهو عافية بعد مرض، والذهاب إزالة لأثر الغيظ على النفس، ففي ذلك معالجة للنفس من أدق ما يصيبها جراء أذى الغير لها. ليدرك المؤمن أن علاج أمراض القلوب والصدور بيد الله تعالى، فهو الشافي الكافي. وفي هذا السياق إعجاز بياني ونفسي عميق الدلالة والأثر، ليكون إعجازاً في تفاصيله، وبلاغته، وأثره ومراده.

ثم ينوه الله تعالى بالتوبة على من يشاء من عباده ﴿ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ﴾ وفي هذا السياق ثلاثة أوجه من المعاني الدلالية، التي تفيد وتبين غزارة العطاء البياني للقرآن الكريم، وإعجاز بناء السياق في النص الكريم، فالدلالة الأولى: فيتوب الله تعالى على من يشاء من عباده المشركين، فيدخلون في دين الله تعالى، وقد ذكر بعض أهل التفسير بأنه عام في المشركين، كما تاب الله تعالى على أبي سفيان، وعكرمة، وسهيل[٣] فدخلوا في الإسلام، وحَسُن إسلامهم. وهذا باعتبار المناسبة للآية الكريمة. وعلى هذا يكون فيه إخبار بما سيقع من إيمان بعض المشركين. وأما الدلالة الثانية: فإنها تفيد العموم ﴿ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١١/٣٦٩)
(٢) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن (٣٦٨)
(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣/٢٧٦)

يَشَآءُ ﴾ فكما أنها خاصة بحسب الحدث، فإن سياقها يفيد أيضاً العموم ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ﴾ فإنها غير مخصوصة بخصوص السبب، بل عامة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فيكون ذلك على مر العصور والأزمان والأحوال والحالات، فيتوب الله تعالى على من يشاء من عباده، لأن سبب التوبة ليس محصوراً في القتال، بل يَمُنُّ اللهُ تعالى به على من يشاء من عباده، فيتوب على المذنب من ذنبه من غير قتال، ويقبل توبة التائب، أو يتوب على العبد بعمل يكفر به عن سيئاته.

وأما الدلالة الثالثة: فيكون المقصود والْمَعْنِي بها المؤمنين، من أجل تشجيعهم وحثهم واطماعهم على مقاتلة المشركين، فإن قمتم بقتالهم تحققت لكم تلك المكاسب، والتي منها التوبة من الله تعالى، وقد نقل الإمام القرطبي رحمه الله تعالى هذا الوجه، بأنه: إن تقاتلوهم، فقد جمع بين تعذيبهم بأيديكم، وشفاء صدوركم، وذهاب غيظ قلوبكم، والتوبة عليكم. فيكون ذلك اطماع من الله تعالى لعباده المؤمنين في رجاء مشيئته بأن يتوب عليهم، فكل يسارع إلى الطاعة رجاء أن يكون من الذين يتوب الله تعالى عليهم. وهذه الأوجه متعاضدة، لا تعارض بينها، فجميع أوجه السياق يحتملها ويستوفيها، وهذا من غزارة معطيات القرآن الكريم، ليفيد الإعجاز البياني والبلاغي لكتابه سبحانه وتعالى.

ثم يختتم الله تعالى الآية الكريمة ببيان كمال علمه وحكمته فيما أمر وينهى، وفيما ينتهي إليه الحال الذي وعد به. فقال جَلَّ جلاله ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ فإن كمال علم الله تعالى مستوفٍ لما سيكون قبل أن يكون، وأن أمره ومشيئته عين الحكمة فيما يقضي ويأمر به سبحانه وتعالى. وقد تحقق جميع ما وعد الله تعالى به، ففتحت مكة، وعذب الله المشركين بالمؤمنين في قتالهم لهم، وأُسِرَ منهم من أُسِر، وقُتِل منهم من قُتِل، وشفيت صدور المؤمنين، وذهب غيظ قلوبهم.

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ

ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿٢٢﴾ ﴾

يخبر الله تعالى عن كمال علمه وعظيم حكمته وتدبيره في خلقه، وأن إقامة حجته على عباده إنما تكون بما يصدر عنهم من أفعال وأقوال، بالرغم من معرفته عَزَّ وجل بها قبل حدوثها، بل ومعرفته بما تُخفيه وتكن قلوبهم، وما يبطنون من غير إفصاح وإعلان وبيان بها منهم ﴿ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تُتۡرَكُواْ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ فبدأ النص الكريم بسؤال استفهامي، ليقرر به الحقيقة، ويستنكر به على من يظن أن الله تعالى يجازي من غير فحص وتمحيص للعباد، وفي هذا شد الانتباه، ولفت الذهن للحسبان والتوقع والظن الخاطئ. فهل تحسبون أيها المؤمنون أن تُتركوا من غير تمحيص يظهر به الصادق من الكاذب ﴿وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ ﴾ فيعلم الله تعالى بتشريعه للجهاد شأنكم وموقفكم منه، ومدى وجود ذلك منكم، وكذلك ليتبين به أمر آخر، وهو عدم اتخاذكم من المشركين بِطَانَة من دون الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ﴿وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗ ﴾ فيعلم الذين لم يتخذوا بطانة من غير المسلمين، فليس لهم بطانة إلا الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين. فإذا اتخذ الرجل أحداً من الكافرين بطانة، فإنما اتخذ وليجة. قال ابن قتيبة رحمه الله تعالى: الوليجة هي البطانة من غير المسلمين، وهو أن يتخذ الرجل المسلم دخيلاً من المشركين، وخليطاً وودّاً، وأصله من الولوج، قال أبو عبيدة: وكل شيء أدخلته في شيء ليس منه فهو وليجة، والرجل يكون في القوم وليس منهم فهو وليجة فيهم[١] فالوليجة هنا باعتبار الدين، أي: من اتخذ من المسلمين بطانة من غير المسلمين فقد اتخذ وليجة. وهذا من دقائق الألفاظ وخصوصية معانيها.

وكذلك أن هذا من حكمة الله تعالى في عدله وإنصافه ولطفه، وذلك بإقامة الحجة على عباده من خلال أعمالهم وتصرفاتهم وأقوالهم، وإلا فهو عالم بهم وبما يكون منهم قبل أن يكون، ويعلم السرائر وما تخفيه الضمائر، فلا يخفى عليه من عباده شيء، وقد أكد كمال علمه تعالى من غير حاجته لذلك بقوله عَزَّ وجل

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٧٧/٣)

﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ فإنه خبير بأعمالكم، فلا يفوت عليه منها شيء. مما يبين للمسلم أهمية العلم بحكمة الله تعالى، وأن يكون تعامله مع غيره مبني على ظاهر ما يظهر له منه، وأن الأمور والأحكام تقوم على البينة والحجة. وأن من الحكمة في مشروعية وتشريع الجهاد بيان المطيع من العاصي، والصادق من الكاذب.

ثم يبين الله تعالى الفرق بين المشرك والمسلم في شأن عمارة المساجد، ليتبين المزيد من الفوارق التي يمتنع بها اتخاذ المشركين وليجة ﴿ مَا كَانَ لِلۡمُشۡرِكِينَ أَن يَعۡمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلۡكُفۡرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ وَفِي ٱلنَّارِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ﴾ ذكر ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: أنه لا ينبغي للمشركين أن يعمروا مساجد الله، وهم شاهدون على أنفسهم بالكفر، يقول إن المساجد إنما تُعمر لعبادة الله تعالى فيها، لا للكفر به، فمن كان بالله كافراً، فليس من شأنه أن يعمر مساجد الله، وأما شهادتهم على أنفسهم فعن السُّدِّي: فإن النصراني يُسأل: ما أنت؟ فيقول: نصراني، واليهودي، فيقول: يهودي، والصابئ يقول: صابئ. والمشرك، يقول إذا سألته، ما دينك؟ فيقول: مشرك[1] وكذلك أعمالهم شاهدة عليهم بالكفر، من الشرك بالله تعالى، والطواف عرايا، وغيرها من الأمور الكفرية. وفي هذا رد لمن زعم من المشركين أنهم يقومون بخدمة المسجد الحرام، لأن العمارة الحقيقية هي طاعة الله تعالى في شأن المساجد، بأداء ما فرض الله تعالى وفق شرعه ومنهاجه، بتطهيرها من الشرك والأصنام والأوثان، وأن تُقام فيها الصلاة، فما صح ولا استقام من المشركين ذلك. فليسوا بأهل لعمارة المسجد الحرام ولا لغيره من المساجد. مما يدل على أن الشرك يبطل العمل.

فجميع أعمال المشركين التي يتوقعون منها القبول، فليس لهم فيها إلا الخسارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ وَفِي ٱلنَّارِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ﴾ فهؤلاء المشركين قد بَطُلَت أعمالهم التي يفاخرون بها، وفقدوا أجورها، لأنها لم تكن على منهج الله تعالى، بل كانت قائمة على الشرك. مما يفيد أن كل عمل على غير نهجه عَزَّ وجل فإنه مردود على صاحبه، وغير مقبول، بل إنها لم تغن عنهم شيئا في الآخرة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ وَفِي ٱلنَّارِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ﴾ فحبطت وسقطت أعمالهم، وخسروها في الآخرة، وأيضاً هم في النار مخلَّدين فيها.

---

(1) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١١/٣٧٤-٣٧٥)

ثم يبين الله تعالى حقيقة وصفة الذين يعمرون مساجده سبحانه وتعالى ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ فتلك مواصفات الذين يعمرون مساجد الله تعالى، وتلك هي مواصفات منهجية عمارة المساجد. وقد ابتدأ النص الكريم بحصر تلك الصفات بأداة الحصر ﴿إِنَّمَا ﴾ لتفيد التعيين الحصري والدقيق لها، وأولها: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ ﴾ فأول ذلك أن يحقق العبد الإيمان بالله تعالى وبرسوله صلى الله عليه وسلم، وبما جاء عن الله تعالى، وإخلاص العبادة له وحده لا شريك له، والأمر الثاني من متعلقات الإيمان هو: الإيمان باليوم الآخر ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ ﴾ فيؤمن ويقر باليوم الآخر، وما يتضمنه من البعث بعد الموت، والحساب والجزاء والجنة والنار. والأمر الثالث: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ فيقيم الصلاة الواجبة، بأدائها كاملة بحدودها، كما فرضها الله تعالى، وبينها رسوله صلى الله عليه وسلم، والأمر الرابع: ﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ فيؤدي زكاة ماله، وزكاة البدن التي أوجبها الله تعالى إلى مستحقيها، وذلك كما بينها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفي شرط إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ما يبين وجوب لازمها وهو الإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم، الذي تولى بيانها قولا وفعلاً، والأمر الخامس: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ فيقصر خشيته على الله تعالى، وذلك بأداء لوازمها، لأن الخشية لله تعالى توجب على العبد تحقيق توحيد الربوبية والألوهية، وتوحيد العبادة، وتقديم طاعة الله تعالى على كل طاعة.

ومن دقائق البيان هو ورد الأمر بأداء الصلاة بفعل الإقامة ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ لتفيد المحافظة على الصلاة، والمداومة على أدائها، وإقامة جميع ما يتعلق بها، فإن دلالة ﴿وَأَقَامَ ﴾ تستجمع إخلاص القلب لها بالنية والخشوع، واستحضار القلب فيها، وكذلك قيام الجوارح بالنهوض لها، والعزم، والامتثال، والنشاط في أدائها على سبيل الاستمرار الذي لا ينقطع، ولا يتوقف. كما وورد الأمر بإقامة الصلاة بصيغة الفعل الماضي ﴿وَأَقَامَ ﴾ ليظهر منه أنه قام بها ومستمر عليها. وهذا التوجيه الكريم يدل على أنها شرط لصحة الإيمان.

وكذلك ورد أداء الزكاة بصيغة الماضي ﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ ليفيد الأداء الذي يثبت قيامه بحقها، ومستمر على ذلك. حيث عطف سبحانه وتعالى الزكاة على الصلاة، فقال جَلَّ جلاله ﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ ﴾

فيؤتي الزكاة كما شرع ربنا تبارك وتعالى. وفي إفراد الزكاة والصلاة من بين جميع العبادات دليل على أهميتها. كما جعل رتبة الزكاة بعد الصلاة مباشرة، ليدل على منزلتها ومكانتها. ومن دقائق البيان أن الامتثال بأداء الزكاة ورد بدلالة الإيتاء ﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ والإيتاء يفيد معنى الإعطاء، فإن المزكي يُعطي غيره الزكاة. بما يفيد أن هناك مستحق بحاجته إلى الزكاة، فوجب على المؤمن أن يؤدي ذلك بأمر ربه عَزَّ في علاه. وهذا يُظهر عناية الدين بالمحتاجين، وأن لهم حق في أموال غيرهم. ويجب على من وجبت الزكاة عليه أن يدفع ذلك وفق ما شرع الله تعالى. وليظهر بذلك عناية منهج الله تعالى بالتعاون بين أفراد المجتمع المسلم.

فهؤلاء ممن يُرجى لهم الهداية والثبات عليها. وقد أورد الله تعالى لهم هذا بأسلوب الاطماع والرجاء، ليكون أكر تحفيزاً لهم، فقال جَلَّ جلاله ﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ ودلالة **(عسى)** تفيد الاطماع والإشفاق، والاطماع من الله تعالى يفيد التحقق، لأن وعده كائن لامحالة، وبالنسبة للمؤمن تكون **(عسى)** موضع طمع في هداية الله تعالى له. فإن هؤلاء خليق بهم أن يكونوا من المهتدين، وكذلك يستحق هؤلاء الرجاء والأمل بأن يكونوا من المهتدين، لأنه لا أحد يجزم على نفسه بأنه على كمال الهداية.

ودلالة سياقها يفيد الرجاء من المؤمنين في الاستزادة من أجل استيفاء ما يحقق لهم صفة المهتدين، ويبعدهم عن الغرور. فمن كان بهذه الصفات المذكورة فقد عمر مساجد الله تعالى، ومن لم يتصف بها فليس ممن عمر مساجد الله تعالى. وذكر الإمام الشوكاني فائدة أخرى: فإذا كان الموصوفون بتلك الصفات مرجو اهتداؤهم فكيف بالكفار الذين لم يتصفوا بشيء من تلك الصفات[1] فإنهم أبعد ما يكون. فرحابة العطاء الدلالي للبيان الكريم هو فيض متدفق من المعاني، ليتأكد به الإعجاز البياني للقرآن الكريم، إذ كيف تتعدد معطياته بصورة يتظافر فيها تنوع وتكاثر الدلالات من غير تعارض بينها. مما يدل على غزارة بلاغة القرآن الكريم.

ثم تأتي المعالجة الفكرية بأسلوب القياس والمقارنة بين المؤمن وبين من اهتم بالظاهر وتعلق به، ولم يحقق الإيمان وتوابعه من التوحيد والتخلي عن الشرك ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ قال الزمخشري رحمه الله تعالى: والمعنى إنكار أن يشبه المشركون بالمؤمنين، وأعمالهم المحبطة بأعمالهم المثبتة، وأن يسوي بينهم، وجعل تسويتهم ظلماً بعد ظلمهم بالكفر[2] وقال الشوكاني رحمه الله تعالى: إن الله أنكر عليهم التسوية بين ما كان تعمله الجاهلية من الأعمال التي صورتها الخير، وإن لم ينتفعوا به وبين

(١) الشوكاني، فتح القدير (٣٤٤/٢)

(٢) الزمخشري، الكشاف (٢٥٢/٢)

إيمان المؤمنين وجهادهم في سبيل الله[١] فقد كان المشركون من قريش يقومون بمهام سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام، ويفتخرون بذلك، ويقدسون أنفسهم بها على غيرهم.

فبدأت المعالجة بسؤال استنكاري، عن التسوية بين الأعمال التي ظاهرها الخير وباطنها الكفر، وبين المؤمنين الذين باطنهم الإيمان وظاهرهم فعل الخيرات، فإنهم لا يستوون، فالقياس غير صحيح، وبالتالي فإن التسوية بينهم مجحفة ظالمة، وفي هذا توبيخ للمشركين من خلال الكشف والمقارنة بين حقيقة أمرهم وحقيقة أمر المؤمنين، فلا يستوي من جمع بين الشرك وبين سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام والاهتمام به، وبين الذين آمنوا بالله تعالى وباليوم الآخر، وجاهدوا في سبيل الله تعالى بأموالهم وأنفسهم، فجمعوا بين أصل الدين الذي هو الإيمان وبين ذروة سنام الدين الذي هو الجهاد، فلا يستوون في ميزان الله العادل ﴿لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ﴾ مما يُعَلِّم المؤمن منهجية القياس الصحيح، والمفارقات، وأثرها على الحكم وصحته وصوابه، فلا يغتر بالفعل الذي أساسه الباطل.

ثم يختتم الله تبارك وتعالى الآية بالحكم ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ فمن اتصف بغير تلك الصفات فهو من الظالمين الذين لا يوفقهم الله تعالى للهداية، مما يفيد أن الشرك ظلم عظيم، حتى وإن عمل المشرك عملاً صالحاً، فإن الشرك يهدمه ويحبطه، فلا قيمة ولا وزن له عند الله تعالى، لأنه ترك ما هو أعظم، وهو الإيمان والتوحيد، وقدم هواه على أمر الله تعالى وهديه، فعمل بهواه وبقصور عقله وفكره، مخالفاً لمراد الله تعالى وشرعه. مما يفيد أن القياس الديني هو منهج لله تعالى، وليس بمقاييس الأهواء والضلال. وقد ذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى: أن علياً قال للعباس رضي الله عنهم: ألا تلحق برسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال: ألستُ في أفضل من الهجرة، ألستُ أسقي حاج بيت الله وأعمر المسجد الحرام، فنزلت هذه الآية[٢] وهذا يبين أن فعل المظاهر لا يجدي عند الله تعالى شيئاً ما لم ينبع الظاهر المحمود من مرتكز سلامة الباطن وخلوه من الكفر بجميع أنواعه، وتحليه بالإيمان والصفات العملية الدالة عليه.

ومن فوائد الآية الكريمة أنها عالجت الفهم القاصر، فبينت أن الدين له أحكامه، وأن التفاضل والدرجات هي وفق ما قرره وشرعه وبينه العزيز الحكيم سبحانه وتعالى، وأن دين الله تعالى ليس بالعقل المجرد الذي ينأى عن شريعة الله تعالى.

---

(١) الشوكاني، فتح القدير (٣٤٤/٢)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٧٩/٣)

وبعد عقد المقارنة التوضيحية بين عمل المشركين وبين المؤمنين وأعمالهم، يبين الله تعالى مقومات الحكم بأوضح الأساليب وأكملها بلاغة وبياناً، فقال تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴾ فإن الذين جمعوا بين الإيمان الذي هو أصل الدين، وبين مشقة الهجرة إلى المدينة، تاركين ديارهم وأموالهم وعشيرتهم، وجمعوا مع ذلك الجهاد في سبيل الله تعالى بأموالهم وأنفسهم، الذي هو ذروة سنام الدين، فإنهم أعظم درجة ﴿أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾ وأيضاً هم المختصون بالفوز عند الله تعالى ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴾ وقد شمل السياق عدداً من الدلالات فيما يخص المفاضلة، ذكر منها الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: أي: أعظم درجة من الذين افتخروا بالسقي. وليس للكافرين درجة عند الله حتى يقال: المؤمن أعظم درجة. والمراد أنهم قَدَّروا لأنفسهم الدرجة بالعمارة والسقي، فخاطبهم على ما قدروه في أنفسهم، وإن كان تقديرهم خطأ. وقيل أعظم درجة من كل ذي درجة، أي لهم المزية العلية[1] ووجه آخر أنهم أعظم درجة من المؤمنين الذين اهتموا بالسقاية وعمارة المسجد الحرام ولكن لم يهاجروا ولم يجاهدوا. لأن هناك من آمن ولم يهاجر، كما ذكر الله تعالى في سورة الأنفال ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٧٢﴾ وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: كنت عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال رجل: ما أبالي أن لا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أسقي الحاج، وقال آخر: ما أبالي أن لا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أعمر المسجد الحرام. وقال آخر: الجهاد في سبيل الله أفضل مما قلتم. فزجرهم عمر. وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو يوم الجمعة، ولكن إذا صليت الجمعة دخلت فاستفتيته فيما اختلفتم فيه، فأنزل الله عَزَّ وجل ﴿أَجَعَلۡتُمۡ سِقَايَةَ ٱلۡحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ كَمَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ لَا يَسۡتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[2] فإذا كان هذه المفاضلة العظيمة بين المؤمن الذي لم يهاجر ولم يجاهد، وبين المؤمن الذي جمع مع إيمانه الهجرة والجهاد أعظم درجة، فكيف بمن أشرك، فإنه من باب أولى أن لا يكون له حظ كما بينتها الآية السابقة، وهي قوله تعالى ﴿أَجَعَلۡتُمۡ سِقَايَةَ ٱلۡحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلۡمَسۡجِدِ

(١) القرطبي، لجامع لأحكام القرآن (٦٠/٨)

(٢) مسلم، صحيح مسلم (١٤٩٩/٣) برقم (١٨٧٩)

ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ) وكذلك الآية السابقة لها ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴾

مما يفيد أن الآية الأولى بيان لمن اهتم بالمسجد الحرام وسقاية الحاج وبقي على شركه وكفره ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ والآية الثانية: بيان لمن بقي بمكة من المؤمنين ولم يهاجر ويجاهد في سبيل الله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ فالذين جمعوا بين الإيمان والهجرة والجهاد هم الذين ظفروا بما عند الله تعالى من الجنان والنعيم المقيم، وكانوا أعظم درجة ممن لم يهاجروا ويجاهدوا في سبيل الله تعالى، ولهم من الله تعالى البشرى بالرحمة والرضوان ﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴾ والتبشير هو الإخبار بالخير قبل وقوعه وحدوثه، والعلم به من قبل الْمُبَشَّر. فلهم البشرى من الله تعالى. وقد أضاف عَزَّ وجل التبشير له ومنه إليهم مباشرة ﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴾ ليفيد التعظيم والمنزلة والمكانة لهم، وعظيم الحظوة عند ربهم لهم، وعظيم ما بشرهم به، وهي بشارة لهم في الدنيا بما لهم في الآخرة من جزيل النعيم المقيم. وأولها الرحمة: التي تفيد كمال الإحسان والإنعام والإفضال من الله تعالى لهم، بل أضاف الرحمة منه إليهم مباشرة ﴿ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ ﴾ وفي هذا مزيد من عظيم العطاء المحفوف بالتشريف ﴿ وَرِضْوَٰنٍ ﴾ والتي تفيد كمال الرضا، فيحل عليهم رضوانه سبحانه وتعالى ﴿ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴾ ويقيمون في جنات متصفة بالنعيم المقيم ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ أي: الذي لا يزول ولا ينفد أبداً.

ثم يبين الله تعالى عظيم ما عنده مما لا يمكن أن يخطر على بال أحد ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ فالأجر مُتَّصِفٌ عنده سبحانه وتعالى بالعظمة من كل وجه. بل ومن العظمة وجميل البيان أن

الرحمة والرضوان والجنات والنعيم جاءت بالتنكير لتفيد التعظيم ﴿ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴾ فهي عظيمة القدر والمنزلة التي لا يستطيع أن يتصورها المخلوق.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى
الْإِيمَانِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٣) قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ
وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ
تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ
بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤) لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ
حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ
الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى
الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢٦)
ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٧) ﴾

بعد أن فرَّق اللهُ تعالى بين أعمال الإيمان وأعمال الكفر يتدرج الخطاب إلى بيان الفرق في الموالاة، ويبدأ الخطاب بالأسلوب الذي يحمل أمرين كريمين عظيمين، الأول: أسلوب النداء من الله تعالى لعباده المؤمنين ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ والثاني: تسميتهم بصفة الإيمان، قال ابن مسعود رضي الله عنه: إذا سمعت الله يقول ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ فأرعها سمعك، فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه[1] وهذا النداء يحمل في دلالته لفة الانتباه، وإرعاء السمع، وأخذ الأمر بأهمية فيما تضمنه من توجيه، وكذلك اشتمل النص الكريم على تسمية الْمُخَاطَبين بصفة الإيمان، التي هي أرقى درجات الوصف، والتي تشير إلى ما يجب على هؤلاء الموصوفين بصفة الإيمان من الامتثال الموجب لما آمنوا به، وكذلك تَحْمِلُ في دلالتها التكريم للمُخَاطَبين، وإذا كان المنادي هو الله تعالى، والواصف لهم هو الملك القدوس، كان ذلك ألزم بالاستجابة، وهي رتبة عظيمة ومنحة كريمة أن ينادي ربنا تبارك وتعالى عباده برتبة الإيمان، والتي تحمل إثبات الإيمان لهم، والتزكية لإيمانهم، بما ينتفي معه التعذر من عدم الوفاء بمضمون ما نُودوا له؛ وخُوطِبُوا وأُمِرُوا به.

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤/٢)

ومن الفوائد السلوكية: أنه إذا كان الله تعالى ينادي عباده بهذا النداء الكريم، وهذا اللطف العظيم وهو سيدهم ومولاهم وخالقهم، وهم عبيده، فإن العبد أحوج إليه في أسلوب مناداته ومخاطبته لغيره من المخلوقين، خاصة عند التوجيه والطلب أو الأمر، فإنه أدعى للتفاعل والقبول، وتليين القلوب.

ثم يأتي بعد النداء النهي من الله تعالى لعباده المؤمنين عن موالاة الكافرين، فيأمر بقطع الولاية بينهم وبين الكافرين، مهما بلغت درجة القرابة بين المؤمن والكافر ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِ﴾ فلا توالوا أقرب الناس إليكم إذا كانوا كافرين، فلا تخصوهم بخصيصة الولاء، وقد بدأ النهي بالأصول وهم الآباء وإن علو، كالأجداد والجدات، ثم ألصق أقرب الناس من فروع أصولهم، وهم الإخوة، فلا قرابة ألصق وأقرب منهم، ولا قرابة أقرب من الإخوة بعد الآباء، وأما الأبناء فلأن الغالب فيهم أنهم تبعاً للآباء. مما يفيد: أنه إذا كان الآباء والإخوان منهي عن موالاتهم فإن من كان دونهم من القرابة فهم أولى بعدم الموالاة، وفي هذا دقة في الأحكام، وبلاغة في البيان ودقة في مضمون الخطاب، إذ جاء السياق بأقل الوصف في تعداد الأقارب والأرحام، ليشمل ويستوعب من هم دونهم من الناس، فيكون حتماً أوجب. قال الإمام بن جرير الطبري رحمه الله تعالى: لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم بطانة وأصدقاء تفشون إليهم أسراركم، وتُطلعونهم على عورة الإسلام وأهله، وتؤثرون المكث بين أظهرهم على الهجرة إلى دار الإسلام[1]

وهذا المنع مشروط بشرط الاستحباب ﴿إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِ﴾ فإن كان اختيار الأقارب وحبهم للكفر أبعدهم عن الإيمان فلا تخصوهم بولاية. ولفظة ﴿ٱسۡتَحَبُّواْ﴾ تحمل دلالة الحب الذي هو أعمق درجات الاختيار والانحياز والموالاة، وكذلك تفيد لفظة ﴿ٱسۡتَحَبُّواْ﴾ التفضيل، لأنها من سيق التفضيل، التي تبين شدة الاختيار والميل، وشدة الموالاة لمن اختاروا وفَضَّلُوا من الكفر، وقدموه على الإسلام. وهذه المحبة تدل على عمق الارتباط بمن أحب.

وقوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِ﴾ متضمن للحكم بأن الكفر يقطع ويفصل صلة الموالاة، حتى لتصبح أخوة الدين أقوى من أخوة النسب إن افترقوا في الدين، وأن من يعصي الله تعالى بموالاته لأولئك الكافرين الذين استحبوا الكفر على الإيمان فإن الحكم فيهم قوله تعالى ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١١/٣٨٢)

ﭐلظَّٰلِمُونَ ﴾ فإن من يتولاهم منكم أيها المؤمنون فإنه في عداد الظالمين، فيتضمن ظلم النفس، وظلم الدين، وكذلك ظلمه لمن والاهم، لما فيه من تشجيعهم برضاه عَمَّا هم عليه من الكفر. وأيضاً فيه ظلم للمؤمنين، لما يقوم به من نقل أخبارهم إلى عدوهم، فيستفيدوا منها في عداوتهم للمؤمنين. قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: وهي باقية الحكم إلى يوم القيامة في قطع الولاية بين المؤمنين والكافرين[1] وأصل الولاية: المحبة والنصرة، وذلك أن اتخاذهم أولياء، موجب لتقديم طاعتهم على طاعة الله، ومحبتهم على محبة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم[2]

وهناك فرق بين الولاية وبين أداء الحقوق، فالولاية هي المحبة المؤدية والمفضية إلى مناصرتهم، ومعاونتهم، وأما المصاحبة بالمعروف فمأمور بها، كما قال تعالى في سورة لقمان ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ وهذا من عدل الله تعالى مع عباده. كما يفيد هذا أن حق الله تعالى مقدم على جميع الحقوق، حتى على حق الوالدين، وأما البر والإحسان إليهما ومصاحبتهما بمعروف فواجب، ولا طاعة لهما بمعصية الله تعالى، ولا يتولاهما ولاية النصرة على المؤمنين، ولا يقدمهم على المؤمنين فيما يخص الإيمان والمؤمنين والدين. فالعلاقة واضحة الحدود والمعالم.

ثم يتدرج بيان الله تعالى في شأن من اتخذ الكافرين أولياء من الآباء والإخوان، وإيثار محبة الأقارب والديار والمساكن والتجارة وتقديم محبتها على محبة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم والجهاد في سبيله عَزَّ وجل، مما يدل على أهمية معرفة حدود العلاقات وضوابطها، ثم السير من خلال محدداتها الشرعية. فيخبر الله تعالى عباده المؤمنين بضوابط وحدود المحبة بأسلوب التحذير، الذي تتأكد به الأهمية، والمعاقبة لمن خالفها، مع الزجر والتحذير من الوقوع فيما حذَّر منه سبحانه وتعالى، فقال عَزَّ وجل ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ فقد توجه الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وسلم لإخبار وإعلام المؤمنين بما حَدَّه الله تعالى وبيَّنه عن العلاقة مع أقاربهم ومع تجارتهم ومساكنهم ومواطنهم، وحدودها.

---

(١) القرطبي، لجامع لأحكام القرآن (٦٠/٨)

(٢) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٢٣٣/٢)

ولم يخاطب الله تعالى المؤمنين مباشرة كما في الآية السابقة بقوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ بل جاءت مخاطبتهم من خلال النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ قُلۡ إِن كَانَ ﴾ ليفيد العتاب لهم إن حصل منهم ذلك، مع استشعار التباعد إن وقع منهم، ولم يتزجروا عنه. فأخبرهم أيها النبي ﴿ قُلۡ إِن كَانَ ﴾ إن كان الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة الذين هم قرابة الرجل الأدنون، والذين يعاشرونه ويعاشرهم، وكذلك الأموال التي اكتسبوها، وما يملكونه ويرجونه من التجارة كالأمتعة ونحوها، والتي يشترونها لتحصيل الربح منها، ويخشون فوات الربح وفوات رأس المال أو شيء منها، وكذلك المساكن التي رضيتم بها، وفضلتم وأحببتم الإقامة بها عن غيرها، فإن كانت تلك المحبوبات أحب إليكم من الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، والجهاد في سبيله، فانتظروا حتى يأتي ما يأمر الله تعالى به ويقضيه في حقكم. مما يفيد شدة العتاب والزجر والنهي والتهديد.

وورد ذكر المحبة بصيغة التفضيل ﴿ أَحَبَّ إِلَيۡكُم ﴾ بما يفيد تقرير المحبة لتلك المحبوبات ولكن بينهم وبين محبة الله تعالى ورسوله والجهاد في سبيله بون وفرق شاسع، ليدل على عمق الدقة في التوجيه، مع أن صيغة التفضيل تعطي وتمنح كلا المتفاضلين الصفة التي تفاضل فيها الأمران، إلا أن أحدهما أعظم من الآخر، إذ يتفاوتان في الدرجة، والتقديم والتأخير، وأن مقدار التفاضل بعوائد الفاضل ورفعته وأهميته، التي قد يتسع الفارق بينهما إلى درجة لا يمكن أن يصل إليها المفضول أو يقترب منها، ومع ذلك لم يمنع أو يحجب سبحانه وتعالى عن الْمُخَاطَبين محبة تلك المحبوبات، بل أثبت لهم محبتها، لأنها أمر فطري، قد فطر الله تعالى الناس عليها، ولكن جعل محبته ومحبة رسوله صلى الله عليه وسلم والجهاد في سبيله لا تقارن مع تلك المحبوبات المفضلات أبداً، بل يلزم ويجب تحقيق موجباتها وتقديمها على كل محبوب ومرغوب، حتى ولو فُقِدَ المفضول من قائمة المفاضلة، وذلك لعظيم الفارق بين المتفاضلين، فلا تجعل أيها الْمُخَاطَب تلك المحبوبات مقدمة على محبة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم والجهاد في سبيله، فلا تجعل محبتك لها تؤدي إلى أن تلتمس إرضاء نفسك بها، وإرضاء تلك المحبوبات بطاعتها، بل ليكن تفاضل حبك أن تلتمس رضى الله تعالى ورسوله والجهاد في سبيله على غيره من كل محبوب. مما يدل على عظيم محبة الله تعالى، وأنها مقدمة على كل محبوب، ثم تقديم محبة النبي صلى الله عليه وسلم بعد الله تعالى على كل محبوب حتى على النفس، ثم تقديم محبة طاعة الله تعالى وأوامره على كل شيء، والذي ذروة سنامه الجهاد في سبيل الله تعالى.

مما يفيد في المجال الدعوي والتوجيهي والتربوي ألا يعمد الناصح والموجه إلى تجاهل الحقائق من أجل تحفيز وتشجيع المدعو أو المنصوح لأمر ما، بل يعمد إلى إثبات الحقائق كما هي، مع بيان ما يجب حيالها. فإن الله تعالى لم ينف محبة تلك المفضلات، بل أثبت حقيقتها، ولكن أوضح وبين الحقيقة الواجبة تجاهها، وما يلزم ويجب أن يكون عليه المؤمن.

كما نوه سبحانه وتعالى عن محبة التجارة بما هو أعمق من تحقيق الربح، إلى الخوف من كسادها ﴿وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا ﴾ بأن تخافوا بقاءها وبوارها، فتفقد الْسِّلَع من يشتريها، وإن وُجِد من يشتريها أو يشتري شيئاً منها كان ذلك بأبخس الأثمان وأزهدها ثمناً، وهو مكمن الخوف الذي اجتمعت فيه مطامع البيع مع صولة الخوف من بوارها، فهذا العامل أكثر أثراً وأقوى من تمني الربح. وهذه المعاني بهذا السياق من دقائق التفاضل البياني، بما يفيد ويدل على عمق التخصيص اللفظي في القرآن الكريم، عندما يخص لفظة أو أمراً دون غيره في البيان والإيضاح، ليفيد عظيم إعجازه البياني ودلالاته العميقة والدقيقة.

وقبلها ذكر سبحانه وتعالى المكتسبات المالية ﴿وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا ﴾ وهي الأموال التي تعبتم في تحصيلها، فكانت ثمرة مجهود سابق، لأن تركها فيه مشقة عظيمة على النفس البشرية، ليتبين أن محبة الله تعالى ومحبة رسوله صلى الله عليه وسلم والقيام بالدين والجهاد في سبيله هي أعز وأثمن من كل محبوب عند المؤمن، وأن فوات كل شيء من المحبوبات أهون وأرخص من تفويت محبة الله تعالى ومحبة رسوله صلى الله عليه وسلم ومحبة القيام بشريعة الله تعالى. والذود عن دينه عَزَّ وجل.

والمتأمل في شأن المحبوبات المالية والمادية المذكورة في قوله تعالى ﴿وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ ﴾ يجد أن الإنسان يتجاذب مع الأموال المكتسبة والمساكن إلى الدرجة التي تبلغ فيها المحبة إلى عدم التفريط فيها، وأما التجارة فيجاذبه فيها قوة الخوف من فقدها، والخوف من أن يفوته مكاسبها وأرباحها، وتتحقق له فيها خسارته، فهما عاملان قويان:، المحبة والخوف، محبة الموجود، والخوف من فوات المطلوب. مما يدل على أن الأمر يحتاج إلى مجاهدة النفس على التمسك بالحق ولزومه، عندما يجاذبها العاجل والآجل، فيؤكد ذلك أهمية مجاهدة النفس أمام ما تحبه وتأمله وما تخاف عليه من المحبوبات والمرغوبات أمام محبة الله تعالى ومحبة رسوله صلى الله عليه وسلم والجهاد في سبيله عَزَّ وجل، كما يفيد هذا التوجيه الرباني المنزلة الرفيعة للمؤمنين السابقين الذين نالهم من التمحيص الشيء العظيم، والذي استحقوا به شرف صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وثناء الله تعالى عليهم. فهذا النص والتوجيه الكريم يفيد عظيم حق الله تعالى وحق رسوله صلى الله عليه وسلم، وحق الدين بالذود عنه، وتقديمه على كل محبوب، فلا شيء يتقدم على ذلك. وكذلك فضل أولئك الذين استحقوا شرف الصحبة والمنزلة بما قدموه، وجاهدوا أنفسهم عليه، فرضي الله عنهم.

وأن جملة ﴿فَتَرَبَّصُواْ ﴾ تفيد التهديد والوعيد بانتظار ما سيحل من أمر لا تعرفون كيف يكون، ومتى يكون، وقوة ما يكون عليه ﴿فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ وفي هذا غاية النهي والزجر واللوم والتهديد، مع غاية التعظيم لمحبة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، والجهاد في سبيله عَزَّ وجل. وكذلك

كلمة ﴿بِأَمۡرِهِۦ﴾ أي: بعقابه، ولكن ما هو هذا العقاب، وما نوعه، فإن الله سبحانه وتعالى لم يذكره، ليستحث فكر الْمُخَاطَب على توقع كل شيء يمكن أن يكون من العقاب، ليفيد قوة التهويل والتحذير والزجر والتهديد. وهذا من كرم الله تعالى على المؤمنين إذ يوجههم ويربيهم بما ينصلح به شأنهم. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي فانتظروا ماذا يحل بكم من عقابه ونكاله بكم، ولهذا قال ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾[1] وذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى عن الحسن أن معنى ﴿بِأَمۡرِهِۦ﴾ أي: العقاب. وذكر من الأقوال: أنها نزلت في الذين تخلفوا مع عيالهم بمكة ولم يهاجروا، وأن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قدم مكة، فقال لقوم: ألا تهاجرون؟ فقالوا: نقيم مع إخواننا، وعشائرنا ومساكننا فنزلت هذه الآية[2] مما يفيد أنها عالجت وضعاً قائماً في ذلك الوقت، وأعطت منهجية عملية للمؤمنين في كل وقت وحين. وهذه من خصائص الإعجاز البياني والبلاغي للقرآن الكريم. فسياق الآية الكريمة أعطى قاعدة عامة في عملية التفاضل، وفي كيف يجب أن تكون محبة المؤمن لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم، وكذلك في الذود عن دينه أمام كل المحبوبات والمغريات، مهما علت، وبرزت أهميتها وفتنتها أمام المؤمن.

ويختتم الله تعالى الآية بما يناسب المقام، وذلك ببيان تحصيل هدايته، وأنها ممتنعة عن الذين خرجوا عن طاعته ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ فإن الله تعالى لا يوفق للهداية الخارجين عن طاعته، الذين ينفرون عن الاستجابة لأمره ونهيه. مما يفيد أن الذين يحظون بهدايته تبارك وتعالى هم الذين يُقْبَلُون ويُقبِلُون على طاعته بالامتثال، وينتهون عَمَّا نهى عنه.

ثم يُذَكِّر الله تعالى المؤمنين بنصره المتوالي لهم في مواطن عديدة ﴿لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ﴾ فيثبت الله تعالى نصره للمؤمنين في مواطن كثيرة، من خلال آيات تتلى في كتابه القرآن الكريم، فَيُذَكِّرهُم بتلك الأماكن والمواقع التي نصرهم فيها، والتي أصبحت معروفة لديهم من غير تحديد وتعداد لها، وأنها لم تكن بالقليلة، بل اتصفت بالكثرة المتتالية الظاهرة ﴿فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ﴾ ثم بعد تقرير ذلك لهم، ينقلهم إلى موقف آخر، خالفوا فيه ما كان يجب عليهم من الاعتماد عليه سبحانه وتعالى ﴿وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ﴾ ففي يوم حنين أعجبتكم كثرتكم، مما يدل على أن الإعجاب مستثنى على خلاف

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٣٥٦)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣/٢٨٠-٢٨١)

غيرها مما سبقها من مواقع النصر القتالية، فما سبق من المواطن قبل حنين لم تعجبكم كثرتكم، لحقيقة القلة التي كنتم فيها، وبعد فتح مكة، كَثُر الداخلين في دين الله تعالى.

وحنين: واد بين مكة والطائف، يُعرف اليوم بالشرائع، حصل فيه الإعجاب بالكثرة، وقد كان مع النبي صلى الله عليه وسلم عشرة آلاف، ومعه الطلقاء، وجاء في السيرة النبوية: أنه كان عدد جيش المسلمين كبير في هذه المعركة، فقال رجل يوم حنين: لن نُغلب اليوم من قلة، فشق ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم[١] فكان يقول عليه الصلاة والسلام (اللهم بك أحاول، وبك أصاول، وبك أقاتل)[٢] فيقرر الله تعالى لهم أن تلك الكثرة لم تغنكم عن نصر الله تعالى وتوفيقه ﴿ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا ﴾ فلم تغنيكم تلك الكثرة عن توفيق الله تعالى ونصرته لكم، بل لم يتحقق لكم بكثرتكم الهدف والغاية، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: لما استقبلنا وادي حنين: انحدرنا في واد من أودية تهامة، أجوف، حَطوط، إنما ننحدر فيه انحداراً. قال: وفي عماية الصبح، وقد كان القوم كَمَنُوا لنا في شعابه وفي أحنائه، ومضايقه، قد أجمعوا وتهيأوا وأعدوا، قال: فوالله ما راعنا ونحن منحطُّون إلا الكتائب قد شدت علينا شَدَّة رجل واحد، وانهزم الناس راجعين[٣]

ثم يصف الله تعالى ما جاشت به نفوس المؤمنين ذلك الحين ﴿ وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ ﴾ فإن الأرض بسعتها قد ضاقت بها نفوسكم، وأصبحت لا تسعكم من هول ما أصابكم من الكمد والخوف والرعب، فيقول أنس رضي الله عنه: ومع النبي صلى الله عليه وسلم عشرة آلاف، ومعه الطلقاء، فأدبروا عنه، حتى بقي وحده[٤] فكان مطلع الغزوة درس عظيم الفوائد: والتي منها أن لا يركن المؤمن لقوته مهما بلغت، فإنها تتلاشى إذا لم يكن عون من الله للعبد، فإن الناصر والمعطي هو الله تعالى. ولكن من رحمة الله تعالى أنه أذاقهم ما كان يمكن أن يكون لهم، ثم أنزل نصره وقوته لنبيه صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين بأمور وأسباب تحقق بها النصر. **وأول ذلك:** نزول السكينة على رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ فقد أنزل الله تعالى طمأنينة القلب التي يستجمع بها المؤمن قوته وشجاعته، فيقترن بها زوال الرعب والخوف، حتى اجترأ المؤمنون عل قتال المشركين بعد أن ولّوا مدبرين.

---

(١) خالد بن حامد الحازمي، الفوائد السنية من السيرة النبوية، ص (٥٠٤)

(٢) أحمد، المسند (٢٦٩/٣١) برقم (١٨٩٤٠)

(٣) أحمد، المسند (٢٧٥/٢٣) برقم (١٥٠٢٧)

(٤) مسلم، صحيح مسلم (٧٣٥/٢-٧٣٦) برقم (١٠٥٩)

فقد أنزل الله تعالى سكينته على رسوله صلى الله عليه وسلم، حتى كان يفر أمام القوم نحو الكفار عليه الصلاة والسلام لشجاعته وبسالته، وكأنه لا يرى أمامه إلا النصر، وكان العباس يمسك بزمام فرسه صلى الله عليه وسلم، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه: فانطلق الناس إلا أن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من المهاجرين والأنصار وأهل بيته غير كثير، ثبت معه أبو بكر وعمر، ومن أهل بيته علي بن ابي طالب، والعباس بن عبد المطلب، وابنه الفضل بن عباس، وأبو سفيان بن الحارث، وربيعة بن الحارث، وأيمن بن عبيد، وهو ابن أم أيمن، واسامة بن زيد....[١] ويقول العباس رضي الله عنه: فطفق رسول الله صلى الله عليه وسلم يركض بغلته قِبَل الكفار، وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم أكفها، إرادة ألا تسرع، وأبو سفيان آخذ بركاب رسول الله صلى الله عليه وسلم[٢] وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم العباس أن ينادي في الصحابة، وكان صيتاً، فانعطفوا مقبلين: يا لبيك، يا لبيك. فاقتتلوا والكفار، وقال العباس رضي الله عنه: وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم حصيات فرمى بها الكفار، وقال عليه الصلاة والسلام (شاهت الوجوه) ثم قال (انهزموا ورب محمد) فانهزم القوم، ونصر الله المؤمنين[٣] فنزول السكينة من الله تعالى على المؤمنين شحذت هممهم، وزال بها الرعب والخوف عنهم ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ فكانت الطمأنينة التي بددت وأزالت ما أصابهم من الرعب والخوف الذي ضاقت به عليهم الأرض بما رحبت، فانعطف المؤمنون عائدين كما قال العباس رضي الله عنه عندما نادى الصحابة ليرجعوا للقتال بعد فرارهم: فوالله لكأن عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها، فقالوا: يا لبيك! يا لبيك! فاقتتلوا والكفار[٤]

والعامل الثاني: من عوامل النصر الذي أنزله الله تعالى هو قتال الملائكة مع المؤمنين ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمۡ تَرَوۡهَا ﴾ فقد نزلت الملائكة تقاتل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومع المؤمنين، فتغير مسار المعركة، وأما **ثالث العوامل:** فهو العذاب الذي نزل بالكافرين ﴿وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ فسلط الله تعالى العذاب على الكافرين بالقتل والأسر والهزيمة والسبي وأخذ الأموال ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ فهذا العذاب جزاء استحقاق لهم على كفرهم، ومحاربة رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين. مما يبين أن النصر

---

(١) أحمد، المسند (٢٧٣/٢٣) برقم (١٥٠٢٧)

(٢) مسلم، صحيح مسلم (٣/ ١٣٩٨-١٣٩٩) برقم (١٧٧٥)

(٣) خالد بن حامد الحازمي، الفوائد السنية من السيرة النبوية، ص (٥١٣-٥١٥) ملخص

(٤) مسلم، صحيح مسلم (٣/ ١٣٩٨-١٣٩٩) برقم (١٧٧٥)

والفوز، والقوة، والرزق، والصحة، والعطاء بجميع أنواعه هو من عند الله تعالى. وأن على المؤمن ألا يغتر بقوته، ولا بماله، ولا بجاهه، ولا بسلطانه، فإن الغالب هو من وفقه الله تعالى، وأن المرزوق من رزقه الله تعالى، ولا قوة ولا قدرة تجدي عن معية الله تعالى وتوفيقه وتأييده ونصره.

ثم تنتهي الآية الكريمة بموعظة جليلة عظيمة ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ فإن لله الانفراد والاختصاص بمن يتوب عليهم، لتشمل توبة الله تعالى على من يشاء من بعض الكافرين فيدخلون في الإسلام، ويقبل إسلامهم وتوبتهم، كمالك بن عوف النضري رئيسهم في حنين، ومن أسلم معه، ولتشمل قبول توبة المؤمنين من ذنوبهم عموماً، وممن تولى من المؤمنين، بل إن سياقها عام، لتكون قاعدة عامة، بأن لله تعالى أن يقبل توبة من يشاء، ثم تنتهي الموعظة ببيان صفة المغفرة والرحمة التي تُطَمّع العباد فيها ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ فإنه سبحانه وتعالى متصف بالمغفرة والرحمة، وفي هذا اطماع لكل عبد قد حدث منه تقصير، بأن يطمع فيما اتصف الله تعالى به من المغفرة الماحية للذنوب، والرحمة الممتلئة بالإحسان والإفضال، فالرحمة زيادة عن محو الذنوب والصفح عنها، بما تضمنته من الإحسان والإنعام والإفضال.
وفي هذا استحثاث للمسلمين بالتفاؤل بمغفرة الله تعالى ورحمته، فإن كرمه عَزَّ وجل أعظم وأوسع وأشمل، وهو ما يتمناه المؤمن من الله تبارك وتعالى أن يغفر له ويرحمه، لأن تبعات المغفرة والرحمة هو الفوز بالجنة والنجاة من العذاب. فاللهم اغفر لنا وارحمنا برحمتك يا أرحم الراحمين.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ
هَٰذَاۚ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ
حَكِيمٞ ٢٨ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ
وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ
وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٢٩ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ
ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ
أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٣٠ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ
وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ
سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٣١ يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ

أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

يستهل البيان الإخباري من الله تعالى لعباده بالإعلان والحكم بنجاسة المشركين من خلال أسلوب النداء، ليوضح لهم حال المشركين وانتهاء علاقتهم بالمسجد الحرام بعد هذا العام الذي هو سنة تسع من الهجرة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَاۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ فبدأ التوجيه الكريم بمخاطبة المؤمنين مباشرة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ ثم تلى ذلك الإخبار والإعلام عن نجاسة المشركين ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ والنجاسة تفيد معنى القذارة، وهي ضربان: ضرب يُدرك بالحاسة، وضرب يدرك بالبصيرة، كالذي وصف الله تعالى به المشركين ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾[١] مما يفيد أن عليكم اجتنابهم كما تجتنبوا النجاسة، والحذر منهم كما تحذرون من النجاسة، وابعدوهم عن المسجد الحرام، كما تُبعدون النجاسة. وذهب الجمهور من السلف والخلف، ومنهم أهل المذاهب الأربعة إلى أن الكافر ليس بنجس الذات، لأن الله تعالى أحل طعام أهل الكتاب، وثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك من فعله وقوله ما يفيد عدم نجاسة ذواتهم، فأكل في آنيتهم، وشرب منها، وتوضأ فيها، وأنزلهم في مسجده صلى الله عليه وسلم[٢] وأباح الله تعالى نكاح الكتابية، وذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى: أنه لما كان علينا اجتنابهم كما تجتنب الأنجاس، صاروا بحكم الاجتناب كالأنجاس، وهذا قول الأكثرين، وهو الصحيح[٣] وقال ابن كثير رحمه الله تعالى: وأما نجاسة بدنه فالجمهور على أنه ليس بنجس البدن والذات، لأن الله تعالى أحل طعام أهل الكتاب[٤] مما يفيد قوة الحذر من مخالطتهم كالحذر من النجاسة، إلا في خير أو معروف، وكذلك الحذر مما يصدر منهم، كما تحذرون وتتوقون النجاسة، فتتعاملون معهم بحذر كما تتعاملون مع النجاسة، لأن معتقدهم باطل، وفكرهم وتفكيرهم مبني على الجهل والباطل، كما أن رؤيتهم الدينية باطلة، ولا يخافون ولا يحذرون مما يحذر منه المسلم في كل أمر وشأن.

---

(١) الراغب الاصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص (٤٨٣)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٣٤٩/٢)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٨٤/٣)

(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٦٠/٢)

ثم قال تعالى فيما يخص علاقة المشركين بالمسجد الحرام ﴿فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ قال أهل التفسير يريد به جميع الحرم ﴿بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ وهو سنة تسع من الهجرة، وهي السنة التي حج فيها أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وقُرِئت **(براءة)** وقد أخذ أحمد بظاهر الآية، وأنه يحرم عليهم دخول الحرم، وهو قول مالك والشافعي[١]

وحيث أن هناك أعمالاً تجارية مرتبطة بالمشركين، ويشق على المسلمين تركها، فقد عالج الله تبارك وتعالى ذلك الأمر بقوله عَزَّ وجل ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ﴾ فإن خفتم فاقة تؤدي إلى الفقر، بسبب ما يباشره المشركون من أمر التجارة ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ﴾ فإن الله تعالى يهيئ لكم أسباب الرزق إذا شاء ذلك، وأن لا تربطوا أرزاقكم إلا بالله تعالى، وأن لا تجعلوا مصادر الرزق تتحكم فيكم وفي دينكم وعقيدتكم. وفي هذا بيان أن أمر وشأن الرزق من الله تعالى، فهو الذي يهيئ الأسباب سبحانه وتعالى، فلا يتوقف الرزق على باب أو سبب واحد، ولا على مسار لا يتغير ولا يتبدل، بل إن أسبابه كثيرة، وأن الله تعالى هو الذي يهيئ تلك الأسباب، وفي هذا تربية للمؤمنين على التوكل، وعلى الاعتماد على الله تعالى، والبحث عن مجالات الرزق المتعددة، وتوسيع الأفق الفكري في ذلك، وعلى المؤمن ألا يحبس ويحصر رزقه في سبب واحد، أو يخاف من انقطاع السبب، فإذا انقطع سبب هيأ الله تعالى أسباباً أخرى إن شاء ذلك.

كما ربط عَزَّ وجل تهيئة الرزق بمشيئته ﴿إِن شَآءَ﴾ ليتعلق قلب المؤمن بالله تعالى وبمشيئته جَلَّ جلاله، ويكون أكثر طمعاً في عطاء الله تعالى، وأكثر إلحاحاً في الدعاء والمسألة، ولا يركن للأسباب فقط، بل يجعلها وسيلة. وليتعلم المؤمن أن الرزق في أسبابه وكثرته وقلته مرهون بمشيئة الله تعالى، فاطلبوا الرزق من الرزاق عَزَّ وجل، واسعوا في الأسباب التي يتحقق بها المطلوب، كما أن في ذلك لفت الانتباه إلى تعدد مجالات الرزق، وعدم حصرها في سبب واحد، وقد فتح الله تعالى على المؤمنين من الأرزاق ما أغناهم بها.

ثم يختتم الله تبارك وتعالى الآية الكريمة بأسمائه الحسنى وصفاته العليا المناسبة لمقام المضمون ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ فهو عليم بكم، وعليم بأرزاقكم، وعليم بأسباب الرزق، وحكيم في تدبير أمر أرزاقكم، ويضع الأرزاق بكثرتها وقلتها وتوزيعها بحكمته، وبمقتضى وضع كل شيء موضعه المناسب له. وهذا البيان من الله تعالى يغرس في المؤمن الطمأنينة فيما يخص الرزق وغيره، كما يحث ذلك على طلب الرزق وسؤاله

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣/٢٨٤)

من الله الكريم، بأن يسهل وييسر سُبُل الكسب، وأن يعطيه من واسع فضله، وأن يوفقه في جميل وحُسن تصريف ذلك الرزق على الوجه الذي يرضي الله تعالى.

وبعد معالجة أمر المؤمنين مع المشركين فيما يخص المسجد الحرام، وأن لا يربطوا أرزاقهم إلا بالله تعالى، وأن لا يجعلوها تتحكم في دينهم وعقيدتهم، يأمر سبحانه وتعالى بعد ذلك بمقاتلة الكافرين من أهل الكتاب ﴿ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴾ هذه الآية الكريمة أول ما أُمِرَ به من قتال أهل الكتاب، بعد ما تمهدت أمور المشركين، ودخل الناس في دين الله أفواجا، واستقامت جزيرة العرب، فأمر اللهُ رسوله صلى الله عليه وسلم بقتال أهل الكتابين اليهود والنصارى، وكان ذلك في سنة تسع، ولهذا تجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم لقتال الروم[١]

وبدأت الآية الكريمة بفعل الأمر بالقتال ﴿ قَـٰتِلُوا۟ ﴾ وتضمنت بيان صفة هؤلاء الذين أُمِرَ المؤمنون بقتالهم، والتي تؤكد استحقاقهم للقتال ﴿ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴾ قال المفسرون: نزلت في اليهود والنصارى[٢] فانتفى منهم جميع ما يُوجب لهم الحصانة، فهم لا يؤمنون بالله تعالى إيمان الموحدين، بل يقولون: إن الله ثالث ثلاثة، ويقولون المسيح ابن الله، ولا يؤمنون باليوم الآخر، ذكر ابن الجوزي: أنهم لا يُقرُّون بأن أهل الجنة يأكلون ويشربون، وقال الماوردي: إقرارهم باليوم الآخر يوجب الإقرار بحقوقه، وهم لا يقرُّون بها، فكانوا كمن لا يُقِرُّ به[٣] ولا يطبقون شريعة الله تعالى بتحريم ما حَرَّم اللهُ ورسوله، كالخمر وأكل لحم الخنزير، فهم يدينون بغير الدين الحق الذي أمر الله تعالى به، فيدينون بغير دين الإسلام. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: فهم في نفس الأمر لما كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم لم يبق لهم إيمان صحيح بأحد الرسل، ولا بما جاءوا به، وإنما يتبعون آراءهم وأهواءهم وآباءهم فيما هم فيه، فلو كانوا مؤمنين بما بأيديهم إيماناً صحيحاً لقادهم ذلك إلى الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم، لأن جميع الأنبياء بَشَّرُوا به، وأمروا باتباعه، فلما جاء كفروا به، وهو أشرف الرسل صلى الله عليه وسلم، فَعُلِمَ أنهم ليسوا متمسكين بشرع الأنبياء الأقدمين، لأنه من الله تعالى، فلهذا لا ينفعهم إيمانهم ببقية الأنبياء، وقد كفروا

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٣٦٠)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣/٢٨٥)

(٣) المرجع السابق (٣/٢٨٥)

بسيدهم وأفضلهم وخاتمهم وأكملهم عليه الصلاة والسلام، ولهذا قال تعالى ﴿ قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾[1]

ومن فوائد الاستدلال قول أبي الوفاء علي بن عقيل رحمه الله تعالى: ﴿ قَـٰتِلُواْ ﴾ وذلك أمر بالعقوبة، ثم قال ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ وذلك بيان للذنب الذي أوجب العقوبة، وقوله تعالى ﴿وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ﴾ تأكيد للذنب في جانب الاعتقاد. ثم قال تعالى ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾ زيادة للذنب في مخالفة الأعمال. ثم قال تعالى ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ ﴾ إشارة إلى تأكيد المعصية بالانحراف والمعاندة، والأنفة عن الاستسلام. ثم قال تعالى ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾ تأكيد للحجة، لأنهم كانوا يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل. ثم قال تعالى ﴿حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴾ فبين الغاية التي تمتد إليها العقوبة، وعين البدل الذي ترتفع به[2]

ويستمر قتالهم ﴿حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴾ فإما أن يُسلموا، فيدخلوا في دين الله تعالى، أو يدفعوا الجزية عن ﴿عَن يَدٍ ﴾ أي: عن قهر وعن غلبة، إمعاناً في كسر شوكتهم وعنادهم، لما يعرفون من الحق في كتبهم ﴿وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴾ تأكيد على إذلالهم، بأن يدفعوا الجزية وهم مهانون ذليلون حقيرون، مما يفيد أنهم لا يستحقون شيئاً من التكريم والإعزاز، بل يستحقون المهانة والإذلال، بعد أن عرفوا الحق مما أُنزل إليهم في كتبهم؛ وكفروا به، ولذلك نسبهم الله تعالى في وصف ذكرهم للكتاب ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾ ليدل على أنهم يعرفون محمداً صلى الله عليه وسلم بصفاته المذكورة عندهم كما يعرفون أولادهم، وبالتالي فإن كفرهم كفر عناد، فجاء الإذلال لهم بما يناسب كفرهم وتكبرهم على الحق. وهذا من عدل

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٣٦٠)

(٢) القرطبي، لجامع لأحكام القرآن (٨/٧٠)

الله تعالى. وأمَّا مقدار الجزية فقال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: فظاهر هذا: أنها على اجتهاد الإمام ورأيه[١] والجزية من جزى يجزي، فكأنهم أعطوها جزاء ما مُنِحُوا من الأمن[٢] وتسقط عنهم بالإسلام.

ويفيد نفي الإيمان عن أهل الكتاب أن من لم يؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولا فقد انتفى عنه الإيمان، ولا يسمى مؤمناً، حتى ولو آمن بجميع الأنبياء فلا يعتد بذلك ما لم يؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم، وأن عدم الإيمان به دليل على عدم الخوف من عقاب الآخرة، فكأنه لم يؤمن باليوم الآخر، لأن الذي يؤمن باليوم الآخر حقيقة يؤمن بما هو مُوجب له. وبالتالي لا يحرمون ما حرم الله تعالى، ولا يقيمون له وزناً، لأن تماديهم في الكفر بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم يجعلهم لا يبالون بالحرام أكلاً وشرباً واقترافاً له. وبالتالي فإنهم لا يدينون بالدين الحق الذي ارتضاه الله تعالى لعباده، فلو كانوا متمسكين بشرع الأنبياء الأقدمين لآمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم الذي بَشَّرَت به الأنبياء الأقدمين واتبعوا ملته وهديه، فعدم الإيمان به كفر بالكتب التي تضمنت البشارة به، وكفر بالأنبياء الذين بشروا به.

ومن الفوائد أن العلاقة بين أوصاف المأمور بقتالهم وبين وصفهم ونعتهم بأهل الكتاب هي علاقة الحجة بانتمائهم للكتاب الذي أُنْزِل عليهم من ربهم تبارك وتعالى وبين مخالفتهم للحجة التي يعلنون انتماؤهم إليها، فاستحقوا العذاب، واستحقوا القتال.

ثم يخبر الله تعالى بافتراء أهل الكتاب الذي أوجب استحقاقهم للقتال ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ ومن فوائد استنباطات العلماء، ما ذكره السعدي رحمه الله تعالى: بأن هذه المقالة وإن لم تكن مقالة لعامتهم، فقد قالها فرقة منهم[٣] وقال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: هذا لفظ خرج على العموم، ومعناه الخصوص، لأن ليس كل اليهود قالوا ذلك[٤] وعزير كان في أهل الكتاب، وقد عملوا بالتوراة ما شاء الله تعالى أن يعملوا، ثم أضاعوها وعملوا بغير الحق. فرفع الله عنهم التابوت، وأنساهم التوراة، فمكثوا ما شاء الله تعالى، فدعا عزير الله تعالى وابتهل إليه أن يرد التوراة التي نسخت من صدره، فبينما هو يصلي فإذا بنور نزل من الله تعالى فدخل جوفه، فعاد إليه الذي نُسخ من صدره من التوراة، فقال: يقوم قد آتاني الله التوراة وردَّها إليَّ،

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣/٢٨٥)

(٢) القرطبي، لجامع لأحكام القرآن (٨/٧٣)

(٣) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٢/٢٣٩)

(٤) القرطبي، لجامع لأحكام القرآن (٨/٧٥)

فأخذ يعلمهم، ثم إن التابوت نزل بعد ذلك، فلما رأوا التابوت عرضوا ما كان فيه على الذي كان عزير يعلمهم، فوجدوه مثله. فقالوا: والله ما أُوتيَّ عزير هذا إلا أنه ابن الله(١)

وأما النصارى فقال الله تعالى عن افترائهم ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِ﴾ أي: عيسى ابن مريم ابن لله تعالى، وهذا القول منهم قولاً قد تلفظوا به بأفواههم وليس معهم عليه حجة ولا دليل، وإنما هو افتراء وكذب، فتعطي هذه الجرأة منهم بياناً وشهادة على أنهم كاذبون، وقد افتروا على الله تعالى بما لا يليق بمقامه وعزته وجلاله سبحانه وتعالى، فلا يستحقون الإيمان الذي يوجب الطاعة والاتباع، ولذلك لا إيمان لهم، بل يلتقون مع الكافرين في افترائهم. ﴿يُضَـٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُ﴾ فيشابهون بهذا الافتراء من سبقهم من أهل الكفر، كما افترى اليهود بقولهم عزير ابن الله، وافتراء المشركين بقولهم الملائكة بنات الله ﴿قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ لعنهم الله وعاداهم ربنا تبارك وتعالى على صنيعهم هذا من الافتراء على الله تعالى.

وذكر الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: عن قوله تعالى ﴿قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ هو بمعنى التعجب(٢) وعن ابن عباس رضي الله عنهما: قوله تعالى ﴿قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ يقول: لعنهم الله تعالى. وكل شيء في القرآن قَتْلٌ فهو لعن(٣) ﴿قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ فلعنهم الله تعالى أينما يكونون. فأينما كانوا فإن عداء الله تعالى ولعنته لهم مستمرة عليهم. ليفيد أن التعالي على حقوق الله تعالى وحججه وآياته مع معرفتها هو عين التجبر والكبرياء الذي يستجلب به العبد غضب الله تعالى ومقته له، ونعوذ بالله تعالى من هذه الحال، ونسأله حُسن الختام. وقال السعدي رحمه الله تعالى: أي: كيف يصرفون على الحق، الصرف الواضح المبين إلى القول بالباطل المبين(٤) فهو من وجه آخر تعجب من حالهم هذا الذي يصرفون فيه الحق الواضح المبين إلى الباطل الذميم، ويتواطؤون على ذلك. فإنه أمر يستحق التعجب الإنكاري الذي يستحقون به المقت والقتل والطرد.

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١١/٤٠٩-٤١٠)

(٢) القرطبي، لجامع لأحكام القرآن (٨/٧٦)

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١١/٤١٥)

(٤) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٢/٢٤٠)

ويخبر الله تعالى بالمزيد عن منهج بعض طوائف أهل الكتاب، فقال عَزَّ وجل عنهم ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أي: اتخذوا ﴿أَحۡبَارَهُمۡ﴾ وهم علماء اليهود ﴿وَرُهۡبَٰنَهُمۡ) أي: علماء النصارى، وهم أهل الصوامع، وأهل الاجتهاد في دينهم[١] اتخذوهم بمنزلة من يشرع لهم، فيستحلون ما أحله علماؤهم وعبادهم لهم، ويحرمون ما حرموه، فلم يأخذوا بالكتاب الذي هو أصل شريعة الله تعالى، فاتخذوهم سادة لهم من دون الله تعالى، فأطاعوهم في معصية الله تعالى، وكذلك اتخاذ النصارى المسيح رباً لهم ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: اتخذوه رباً[٢] مما يدل على أنهم يتصرفون بأهوائهم، ويشرعون من عند أنفسهم لأنفسهم، فخرجوا عن نصوص ما أنزله الله تعالى إليهم من الكتاب. وفي هذا درس للأمة بالحذر من هذا المسلك الذي سلكوه، والمنهج الذي نهجوه، فأودى بهم إلى الكفر.

ويؤكد الله تعالى بأنهم لم يُؤمَرُوا إلا بعبادته وحده سبحانه وتعالى ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ فهؤلاء اليهود والنصارى الذين اتخذوا الأحبار والرهبان والمسيح ابن مريم أرباباً، فإنهم لم يُؤمَرُوا إلا بعبادة معبود واحد، وهو الله سبحانه وتعالى ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ ليس هناك إله بحق إلا هو عَزَّ وجل. فقد نفى الألوهية عن كل أحد ﴿لَّآ إِلَٰهَ ﴾ وحصرها عَزَّ وجل في ذاته سبحانه وتعالى ﴿إِلَّا هُوَ ﴾ ثم نزه ذاته العظيمة الكريمة عَزَّ وجل عن شركهم ﴿ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ فتنزه الله تعالى عن شركهم، كقولهم عزير ابن الله، والمسيح ابن الله، وأطاعوا الأحبار والرهبان في المعاصي.

ثم يخبر الله تعالى عن الهدف والغاية من مسلك الكفر عند أهل الكتاب، فقال الله تعالى ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ ﴾ فيريد هؤلاء الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، والمسيح ابن مريم ابناً لله تعالى، فإنهم يريدون من ذلك تحقيق التكذيب بالنبي محمد صلى الله عليه

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤١٦/١١-٤١٧)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٨٩/٣)

وسلم، وأن يصدوا ويمنعوا الناس عنه بألسنتهم، لإبطال النور الذي أراده الله تعالى لعباده، وكلمة ﴿ يُرِيدُونَ ﴾ تدل على العزيمة في النوايا، والقوة في اتخاذ الأسباب الحاجبة والمانعة لنور الله تعالى.

وقد سَمَّى اللهُ تعالى رسالة رسوله صلى الله عليه وسلم بالنور ﴿ نُورَ ٱللَّهِ ﴾ لتشمل القرآن والسنة والتشريع والبراهين والأدلة والحجج، وجميع ما جاء من عند الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم. وسماه سبحانه وتعالى ﴿ نُورَ ﴾ لوضوحه، ولهدفه المنير، وغايته السامية، وأن تشريعه يضيء للعباد طريق الحق والخير والنجاة في الدنيا والآخرة، وأنه يوصلهم هذا النور إلى خير ما يرجون من السعادة، وفي تسميته بالنور ما يعطي دلالة الوضوح، ودلالة الخير، ودلالة الهداية، ودلالة الحق، وقد نسب الله تعالى هذا النور إليه ﴿ نُورَ ٱللَّهِ ﴾ لأنه منه وحده لا شريك له، وأن مهمة الرسول صلى الله عليه وسلم هو الإبلاغ والبيان بهذا النور، وتعليمه للناس، وبيان كيفية العمل به.

ووصف الله تعالى مسلك اليهود والنصارى وغايتهم بأنهم يريدون حجب هذا النور من خلال إطفائه ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ ﴾ والإطفاء يدل على الإبطال والإخماد، والإخفاء والمنع من الانتشار، وذلك بالسعي في تعتيمه وطمس نوره، فهي كلمة تستوفي وصف جميع ما يمكن أن يُتَّخَذ حيال هذا الدين العظيم. ومن الفوائد أن دخول إن يفيد التوكيد ﴿ أَن يُطْفِـُٔواْ ﴾ توكيد فعلهم بإطفاء نور الله تعالى، واتخذوا في ذلك مسلك القول ﴿ بِأَفْوَٰهِهِمْ ﴾ الذي هو استخدام آلة اللسان والفكر، مما يفيد استجماع جميع دلالات الطعن، والإرجاف، والتكذيب، والتهوين، والتخوين، والتحريض، وضرب الأقوال، ومواجهته بالتكذيب والزور، فاستخدموا الأسلوب الفكري في محاربة الدين، من أجل إطفاء نور الله تعالى.

فتلك هي إرادتهم ولكن إرادة الله تعالى أعظم ﴿ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ والإباء هو شدة الامتناع، فيأبى الله تعالى إلا أن يَظْهَر هذا الدين ويعلوا به على غيره، ويتم الله عَزَّ وجل بقوته وقدرته وتدبيره هذا النور، ويبقى منتشراً مضيئاً ظاهراً على كل دين ولو كره الجاحدون له، المكذبون به. وقد تطابق اسم الكفر والكافرين مع مرادهم من ستر وتغطية وطمس نور الله تعالى الذي هو دينه العظيم، لأن الكفر هو الستر، والكافر هو الذي يستر ويغطي الشيء. مما يفيد أن الله تعالى إذا أراد شيئاً فلا يمتنع بكيد الكائدين، وعداوة المعتدين، فإذا أراد أمراً أمضاه كما يحب سبحانه وتعالى، مما يوضح للمسلم أن عليه طاعة ربه تبارك وتعالى، وأن ينتصر ويستعين ويسترزق به، ويعتمد ويتوكل عليه في شأنه كله، فهو القاهر

فوق عباده. وهذه الآية معجزة غيبية، فإنه منذ أن ظهر الإسلام وهو يعلو ويرتفع، مع كراهة أعدائه له، ومحاربتهم له، وسيستمر في العلو حتى يرث اللهُ الأرض ومن عليها.

ثم يبين الله تعالى مضمون رسالة رسوله صلى الله عليه وسلم، ومستقبل هذه الرسالة وهذا الدين، ليكون هذا الحكم من الله سبحانه وتعالى آية من آياته الغيبية الباهرة، التي كشفت وتكشف مستقبل هذا الدين، ومسيرته التي يشهد لها واقعها وكذلك ما مضى، وأيضاً ما هو قادم بإذن الله تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾ فهو الذي أرسل رسوله محمد صلى الله عليه وسلم برسالته، وقد سماها الله تعالى ﴿بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ ﴾ تنويهاً وبياناً لشأن هذا الدين وفضله ومنزلته، ومنهجه الذي حوى كل ما يهدي الإنسان للخير والفلاح في الدنيا والنجاة من النار والفوز بالجنان في الآخرة، فهو دين التوحيد والقرآن الكريم المبين والموضح لفرائض الله تعالى، وما تنصلح به الأمة في عقيدتها وعبادتها وأخلاقها الاجتماعية والأسرية وغيرها في كل ناحية من نواحي الحياة، بل حتى مع البهائم والدواب والجمادات، والظلال والمياه الجارية والراكدة. وأن هذا الدين هو الدين الحق، وغيره باطل لا يقبله الله تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ ﴾ فقد سماه تبارك وتعلى ﴿وَدِينِ ٱلۡحَقِّ ﴾ ليفيد أن من ابتغى الهدى في غيره فقد جانب الحق، وحاد وضل عنه.

وكذلك سماه سبحانه وتعالى بدين الحق ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ ﴾ وفي هذا تنويه بياني آخر يؤكد مكانته وعظيم محتواه، فدين الإسلام هو دين الحق الصحيح المتضمن للحجج والبراهين، التي منها هذه الآية الكريمة، التي أثبت ربنا تبارك وتعالى تحققها، بظهور هذا الدين منذ بعثة النبي صلى الله عليه وسلم وهو يعلو ويظهر على جميع الأديان ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ مما يفيد أن الله تعالى ناصر لهذا الدين ومُظهره ومُكَثّر الداخلين فيه، ومقويه ليكون غالباً بائناً ظاهراً على كل دين. وهو الواقع المشاهد عبر العصور إلى تاريخنا وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. بل وهذا النصر والظهور كائن ولو كره الأعداء، وأولهم المشركون الذي أول ما ظهر بينهم ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾ فقد أظهر الله تعالى هذا الدين مع كراهية المشركين بمكة لظهوره، ومقاومتهم له، وفي الآية التي قبلها قال تعالى ﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ فهو مُظهر ومعلي

دينه سبحانه وتعالى ولو كره المشركون وعموم الكافرين، وبالرغم من أن المشركين داخلون في الكفر إلا أن في تخصيصهم ما يبين نوع ملتهم من الكفر، ولظهوره بينهم أول ما ظهر، وتنويهاً لما كان منهم من التصدي لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ومعاداتهم له، ومحاربتهم لدينه سبحانه وتعالى منذ مطلع هذا الدين وبزوغ نوره بينهم في مكة. وكذلك يفيد تأكيد الظهور والعلو، وبيان أن عداوة أعدائه لن تطمس وتُخفت نوره، بل كلما عادوه زاد ظهوراً وعلواً.

مما يفيد أن دين الله الإسلام ظاهر على غيره إلى أن يرث الله تعالى الأرض وما عليها، وأن في إدراك المسلم لذلك ما يستوجب عليه أولاً: عدم الخوف على هذا الدين. وثانياً: أن يفهم منهجه الدعوي فهماً صحيحاً، وأن يعمل بأخلاقه وهديه. وثالثاً: أن يسهم في نشره على نهجه وهديه، ولا يُنَفِّر الناسَ عنه بمخالفة منهجه وهديه، فإنه نور واضح المعالم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٤ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ٣٥﴾

ويتوالى البيان والإيضاح لشأن أهل الكتاب، فيخبر الله تعالى المؤمنين عن حال علماء أهل الكتاب، مخاطباً لهم بصيغة النداء ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فيا أيها الذين صدقوا الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم: فإن كثيراً من الأحبار الذين هم علماء اليهود والرهبان الذين هم علماء النصارى ﴿لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ يأخذون الرشا في أحكامهم، ويحرفون كتاب الله تعالى، ويكتبون بأيديهم كتباً، ثم يقولون هذه من عند الله تعالى، ويأخذون بها ثمناً قليلا ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ويمنعون من أراد الدخول في الإسلام[1] وفي هذا بيان لوجه الظلم في الاكتساب وتحصيل المال، بالتلاعب في أحكام

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٢٤/١١)

الدين من أجل تحصيل المال. وقد وصفه الله تعالى بالأكل ﴿لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ الذي هو أبلغ في البيان، لأنه الأظهر في الكسب وفي الاستخدام، وفي تخصيص الأَكل لأن ما دونه من التصرفات المالية يدخل فيه. وكذلك ليزداد شناعة في التصوير، لأن الأموال تتعاطى بالأيدي، وتصريفها يكون في الأَكل وفي غيره، ولكن تخصيصها بالأَكل إظهار لقوة شناعتها، مما يدل على تحريم جميع أوجه التعاملات الباطلة، حيث يتحقق بها أكل أموال الناس بالباطل، إذ ليس المقصود الأَكل الذي هو استطعام الطعام إلى الجوف، وإنما الاستباحة بأي طريقة محرمة، فهو أبلغ في الذم في هذا المقام، ليفيد التشنيع والتهويل.

ومن عدل الله تعالى في حكمه عليهم أنه لم يعمم ذلك النهج على الجميع بل قال عَزَّ من قائل ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ﴾ ليفيد أن القليل منهم ليسوا كذلك. وقد سمى الله تعالى دين ورسالة محمد صلى الله عليه وسلم بالسبيل، ونسب ذلك له سبحانه وتعالى ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فسبيل الله تعالى كما قال ابن عباس والسدي هو: الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم[(١)]

ثم يقول عَزَّ وجل ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ قال ابن عمر رضي الله عنهما: كل مال أُدّيت زكاته وإن كانت تحت سبع أرضين فليس بكنز، وكل مال لا تُؤدى زكاته فهو كنز وإن كان ظاهراً على وجه الأرض، وإلى هذا المعنى ذهب الجمهور، فعلى هذا يكون معنى الإنفاق: أي إخراج الزكاة[(٢)] ومن دقائق البيان أن الذهب والفضة نوعان، فهما مثنى، وجاء السياق بصيغة الجمع في الإنفاق منهما ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا﴾ أي: لا ينفقون المكنوز، سواء كان من الذهب أو الفضة، أو هما معاً، وهذه من بلاغة النص، وقد ذكر الإمام القرطبي رحمه الله تعالى أوجه القوال في ذلك.[(٣)]

ثم ذكر الله عَزَّ وجل عقاب ذلك ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فبشر يا محمد هؤلاء الذين لا يخرجون حقوق الله تعالى في الذهب والفضة بعذاب أليم. وهذا تقريع وتوبيخ لهم باستخدام دلالة البشارة ﴿فَبَشِّرْهُم﴾ لأن الأصل في التبشير أن يكون فيما يسر. فورد هنا على سبيل التندر والتهكم ﴿فَبَشِّرْهُم

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٩١/٣)
(٢) المرجع السابق (٢٩١/٣)
(٣) القرطبي، لجامع لأحكام القرآن (٨١/٨)

بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أي: ولهم في الآخرة عذاب أليم. وهو عذاب النار الذي فيه يصطلي فيه كل من كفر. وفي هذا تذكير وترهيب لمن لم يتابع رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم بين سبحانه وتعالى نوع هذا العذاب ﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ أي: يوم يُحمى في النار على تلك الأموال المكنوزة، فتُكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم، ويقال توبيخاً لهم ﴿ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ فذوقوا عذاب الله تعالى بما كنتم تمنعون أموالكم حقوق الله تعالى من الزكاة، فتكنزونها لتذوقوا العذاب بها. وفي هذا تحذير من عدم إخراج الزكاة والتهاون فيها. فكما أن الله تعالى قد تفضل على عبده بما أعطاه، فواجبه أن يُخرج منه ما أمره به من الزكاة.

ومن فوائد الاستنباطات لقوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ قول السعدي رحمه الله تعالى: أي إمساكها عن طريق الخير الموصلة إلى الله تعالى، وهذا هو الكنز المحرم، فيمسكها عن النفقة الواجبة، كأن يمنع منها الزكاة أو النفقات الواجبة للزوجات، أو الأقارب، أو النفقة في سبيل الله إذا وجبت(١) وهذا التعميم يشمل الزكاة وغيرها من النفقات، مما يفيد أهمية النفقة وفق ما فرض الله تعالى، ووفق ما حث وندب إليه ذو الجلال ولإكرام. مما يفيد خطورة مسلك الإحجام عن الإنفاق فيما يجب أو يستحب ويُندب فيه الإنفاق. مما يبين أن دين الله تعالى قائم على الحركة والبذل والعطاء، والتفاعل مع الحياة ومع الغير بما ينفع، والذي يتحقق به التآلف، والبعد عن أسباب التقاطع وعدم التعاون، وفي هذا تحريك للمال ودفع لعجلة الاقتصاد نحو النمو والزيادة. وفي منهج الإسلام نفع المقتدر للضعيف، وأن للفقير والمسكين حقوق واجبة في مال الأغنياء.

﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟

(١) السعدي تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٢/٢٤٢)

عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾

ينتقل السياق الكريم إلى بيان ما حدده الله تعالى من عدد شهور السنة ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٌ ﴾ حدد الله تعالى أشهر السنة باثنا عشر شهراً على منازل القمر، لتكون العبادات مرتبطة بها، كالصيام والحج، وأيام البيض، وعدة الطلاق، والعقود، وحلول الديون وغيرها مما له ارتباط بالمُدد الزمنية، وهذا من فضل الله تعالى على عباده بأن وضع توقيتاً للعباد، وقرر ذلك عنده سبحانه وتعالى في اللوح المحفوظ ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾ أي: في اللوح المحفوظ، منذ أن خلق الله السماوات والأرض، وجعل منها أربعة أشهر تتعاظم فيها المحارم والطاعات ﴿مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٌ ﴾ وهي شهر رجب، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، وسُمِّيت حرماً لتحريم القتال فيها، وتعظيم انتهاك المحارم فيها، بأنها أشد من غيرها، وتعظيم الطاعات فيها على غيرها. ثم قال تعالى ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ ﴾ فهذا هو الدين المستقيم، وهو القضاء المستقيم، والحساب الصحيح. فهو دين دقيق، فقد ضبط الزمن بالأشهر والأسابيع والأيام والساعات.

ثم يأمر الله تعالى عباده بعدم التظالم وخاصة في هذه الأربعة الأشهر الحرم لما فيها من زيادة التعظيم ﴿ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡ ﴾ وفي هذا ما يفيد أن لله تعالى كمال الملك والحكم والحكمة البالغة فيما يحكم به؛ ويوجه إليه، فقد عيَّن أربعة أشهر من السنة تتعاظم فيها الحسنات، وتتعاظم فيها السيئات. لتتربى الأمة على الانضباط، ولتكون تلك الأربعة الأشهر كالمنبه لها من أشهر السنة البالغ عددها اثنا عشر شهراً، وقد أفرد شهر رجب عن الأشهر المتتالية، وفي إفراده كمال الحكمة البالغة. فعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى ﴿ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡ ﴾ أنها تعود على الاثني عشر شهراً، وعلى هذا يكون المعنى: لا تجعلوا حرامها حلالاً، ولا حلالها حراماً، كفعل أهل النسيء. وقيل: أنها ترجع إلى الأربعة الحرم(١) مما يفيد أن الظلم محرم فيها جميعاً، ليشمل جميع أيام الاثنا عشر شهراً، وتزداد حرمة في الأربعة أشهر المحرمة. وبهذا يجتمع

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٩٤/٣)

في السياق الدلالتان. ومن فوائد السياق إعجازه البياني، إذ جعل السياق يستوعب الدلالتين في توافق وتجانس، فأعطى بقليل اللفظ أكثر من معنى. مع صحة الدلالتين وتحقيقها لمراد شريعة الله تعالى.

ثم يأمر الله تعالى بمقاتلة المشركين جميعاً من غير استثناء ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ وقاتلوا المشركين أيها المؤمنون جميعاً غير مختلفين، بل مؤتلفين متماسكين متعاضدين غير مختلفين، كما يقاتلكم المشركون جميعاً مجتمعين غير متفرقين ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ واعلموا أيها المؤمنون إن أطعتم الله تعالى ولم تختلفوا، واتقيتم ربكم كما أمركم، فإنه معكم على عدوكم، ومن كان الله تعالى معه فلا غالب له. وفي هذا توجيه للمؤمنين بأن يتقوا الله تعالى، فإن معية الله تعالى وعونه ونصره وتأييده مع المتقين.

ثم يخبر الله تعالى عن حكم ما كان يفعله أهل الجاهلية من النسيء، بترحيل شهر إلى شهر ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ﴾ والنسيء هو تأخير حرمة شهر إلى شهر آخر[1] فَيُرَحِّل حرمة شهر من الأشهر الحرم إلى شهر آخر، من أجل أن يقاتلوا فيه، أو ليصيبوا فيه شيئاً كان يجب عليهم أن يراعوا فيه حرمة الشهر الحرام، بما يفيد التحايل على حرمة الأشهر الحرام. وقد كان العرب يحرمون القتال في تلك الأشهر الحرم، فإذا قاتلوا في شهر من الأشهر الحرم أبدلوا أو عوضوا عنه بشهر آخر. فما النسيء إلا زيادة في أعمال الكفر. وهذا دليل على حرمة التحايل على دين الله تعالى بأي وسيلة كانت، فقد جعل الله تعالى هذا التحايل من زيادة أعمال الكفر التي زادوا بها في كفرهم، وجحدوا آيات وأحكام الله تعالى.

ثم يخبر الله تعالى عن إضلال الذين كفروا بهذا النسيء ﴿يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يحقق به الذين كفروا ضلالهم وفسادهم بهذا النسيء، ويُضلون الناس به، فإن من كفرهم وتماديهم في منهجية النسيء أنهم ﴿يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ قال الزمخشري رحمه الله تعالى: أي: ليوافقوا العدة التي هي الأربعة، ولا يخالفوها، وقد خالفوا التخصيص الذي هو أحد الواجبين، وربما زادوا في عدد الشهور، فيجعلونها ثلاثة عشر أو أربعة عشر ليتسع لهم الوقت، ولذلك قال عَزَّ وعلا ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾ يعني من غير زيادة زادوها[2] وقيل يحلون النسيء عاماً ويحرمونه عاماً، أو إلى الشهر الذي يؤخرونه ويقاتلون فيه، أي يحلونه عاماً بإبداله بشهر آخر من

---

(١) الزمخشري، الكشاف (٢/٢٦٦)

(٢) المرجع السابق (٢/٢٦٧)

شهور الحل، ويحرمون عاماً: أي يحافظون عليه فلا يحلون فيه القتال[١] فخالفوا تخصيص الأشهر، وخالفوا التحريم باستباحة ما حرم الله تعالى فيها. فيأخذون من هذا الشهر لهذا، ومن هذا العام لهذا، ليتوافق العدد، دون توافق الشهر المخصوص بالحرمة.

ثم يقول تبارك وتعالى عن مصدر فعلهم هذا ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ قال الشوكاني رحمه الله تعالى: زين لهم الشيطان الأعمال السيئة التي يعملونها، ومن جملتها النسيء ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: المصرين على كفرهم، المستمرين عليه، فلا يهديهم هداية توصلهم إلى المطلوب، وأما هداية الدلالة على الحق والإرشاد إليه فقد نصبها الله سبحانه وتعالى لجميع عباده[٢] وسياق النص عام لجميع الكافرين، فينطبق عليهم وعلى غيرهم. فلا يستحق الكفرة هداية التوفيق من الله تعالى لتعمدهم الكفر، وتمنعهم عن الإسلام، وأما هداية الدلالة والإرشاد فهي مرئية ومسموعة ومقروءة لجميع العباد. مما يفيد أن من أراد الهدى فإن الله تعالى يوفقه ويعينه ويهديه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾

---

(١) الشوكاني، فتح القدير (٢/٣٥٩)

(٢) المرجع السابق (٢/٣٦٠)

ينتقل السياق الكريم إلى توجيه المؤمنين نحو طلب الجهاد في سبيله سبحانه وتعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾

بدأ الخطاب بمناداة المؤمنين بأجمل وأحسن المناداة، بالرغم من أن المقام مقام عتاب عن تثاقل البعض عن الجهاد لغزوة تبوك في صيف سنة تسع للهجرة، من شهر رجب، وقد طابت الثمار، فَعَظُم ذلك على الناس، وفَضَّلُوا المقام. وقد بدأ الخطاب بقوله تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ يا من آمنتم بالله تعالى وبرسوله صلى الله عليه وسلم؛ وبما جاءكم من الحق، فإنه لا يليق بكم التثاقل عن الجهاد في سبيل الله تعالى ﴿مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ﴾ فجاء الخطاب عاماً وشاملاً لكافة المؤمنين بالرغم من أن المقصود به الذين تثاقلوا عن الجهاد، لأن في التعميم التخفيف عن مشاعر المتثاقل، كما كان صلى الله عليه وسلم يتخلق بذلك مع أصحابه، فيقول عليه الصلاة والسلام (ما بال أقوم)[1] وربما كان المقصود به فرداً واحداً، لتتعلم الأمة أدب الخطاب. وليكون لغيرهم تنبيهاً وتحذيراً، وفي نفس الوقت مدحاً وثناء على من لم يتثاقل. فقد تضمن النص الكريم أسلوباً توجيهياً وعلاجياً عظيماً. وسواء كان نزول السورة جميعها بعد غزوة تبوك، أو أغلبها، فإن التوجيه علاجي على الوجهين.

وتصدر العتاب بكلمة ﴿مَا لَكُمۡ ﴾ ومنها حرف ﴿مَا ﴾ الذي يفيد الاستفهام، والذي يفيد في هذا المقام الاستفهام والتقرير والعتاب. فهو عتاب لمن تخلف، وتقرير تخلفهم، وعلة تخلفهم. فحملت ﴿مَا لَكُمۡ ﴾ في طياتها سؤالاً استنكارياً عن الذي أصابكم من القعود والتثاقل عن الاستجابة، فأي شيء يمنعكم عن الإجابة عندما قيل لكم: ﴿ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أي: أخرجوا للجهاد في سبيل الله تعالى، ودلالة ﴿ٱنفِرُواْ ﴾ تفيد الخروج والمفارقة مما أنتم فيه من المكان ومن الحال التي أنتم عليها إلى مكان الجهاد الذي هو غزوة تبوك، حيث بلغ النبي صلى الله عليه وسلم أن الروم قد جمعت جموعاً كثيرة بالشام، وأجلبت معها غيرها، وتقدموا إلى البلقاء، فجاء الأمر بالخروج لهم ومبادرتهم بالقتال.

---

(١) البخاري، الجامع الصحيح. برقم (٧٥٠) ورقم (٢٧٣٥) ورقم (٦١٠١)

وقد سمى الله تعالى هذا النفير بأنه في سبيله ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فسماه سبيل، والسبيل هو الطريق، وسبيل الله تعالى هو الهدى الموصل إلى رضا الله تعالى، فجعل الجهاد سبيل وطريق يتحقق به الهدى الموصل إلى الله تعالى، وأضاف عَزّ وجل السبيل لنفسه تعظيماً وتفخيماً ورفعة ومكانة ومنزلة، ليعرف المؤمن قدر الجهاد ومنزلة المجاهد عند الله تعالى، فحثهم بأحسن ما يكون التوجيه، وبأفضل ما يرجو أن يسير فيه المؤمن. ووصف جلوسهم بأدق بيان وأدق تصوير لواقع الحال ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ بما يعني التزمتم واشتددتم بأنفسكم في الأرض، فكأنما الإقامة فيها تكلف وتصنع مع اشتداد وتلهف النفس مع ما نبت وأزهر واثمر من الأرض، فانجذبتم إليه انجذاب من تثاقلت به نفسه وأحماله، فلم يستطيع القيام، فآثر الجلوس على الانتقال من مكانه. وكلمة ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ﴾ تعطي صورة التكلف الذي حملها على التثاقل، مما يبين مدى قوة تَعلُّق النفس بالإقامة. فحمل البيان الرباني تصوير الجانب النفسي مع الجانب البدني تصويراً غاية في التشخيص والبيان، ومدى ما كان من التفاعل بين الإنسان والأرض. ونسب تثاقلهم إلى الأرض، لأنها محط الراحة، ومحط الزرع والإنبات والخير. وفي هذا استثارة للنفس نحو الجهاد في سبيل الله تعالى، وعدم التَّمَنّع عنه بمثل ذلك.

ثم يأتي العتاب النفسي من الله تعالى بإحالتهم إلى المقارنة بين حال الدنيا والآخرة ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْأَخِرَةِ﴾ فهو سؤال استنكار واستثارة للنفس المؤمنة بالحجة والمقارنة التي يؤمنون بها إيماناً عزيزاً عن علة ذلك التثاقل الذي لا يليق بحال المؤمنين. فيقررهم بالباعث على اختيار التثاقل بين تفضيل الحياة الدنيا عن الآخرة ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْأَخِرَةِ﴾ فهل رضيتم بطيب حياة الدنيا عن ما هو أطيب منها في الآخرة؟ فاستبدلتم الآخرة بالدنيا. فلسان حال المؤمن متجاوباً مع هذا السؤال التقريري بأنه لا يا ربنا وخالقنا. حتى لفظ الدنيا يفيد النزول أمام لفظ الآخرة الذي يمثل العاقبة والارتفاع، التي لا شقاء بعدها للمؤمنين. فهو استثارة بأسلوب المقارنة فيما اخترتم، وفيما كان يجب عليكم اختياره. وكلمة ﴿أَرَضِيتُم﴾ تحمل معنى الرضا، الذي استطابت به النفس، فهي كلمة معبرة في حقيقة الاختيار المثير لكوامن النفس نحو المحاسبة والتصحيح والتعديل. فهو أسلوب دقيق ومعجز في عباراته ودلالاته، وبليغ في تركيب ألفاظه وتأثيره النفسي والأخلاقي.

ثم يتدرج بهم سبحانه وتعالى في المعالجة ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْأَخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ فإن جميع ما أنتم فيه من المتاع الدنيوي بالنسبة لمتاع الآخرة فإنه حقير لقلته، وكلمة ﴿مَتَٰعُ﴾ تفيد جميع ما يُنتفع ويلتذ به. وتفيد القلة أمام الكثرة التحقير في هذا المقام وهذا الاختيار. وقد أورد سبحانه وتعالى القلة على وجه العموم، لتفيد سعة الدلالة في معطياتها، سواء في العدد أو النوع أو المساحة أو المظهر

أو الشكل، وسواء في الموجودات، أو فيما يتعلق ببهجة النفس وسرورها، بل في كل وجه يمكن أن يخطر ببال الإنسان، وما لا يخطر بباله من نعيم الجنة، فهو حقير لو شاهد الإنسان نعيم الآخرة. فجمع الأسلوب القرآني الكريم بين العتاب والتعليم وشحذ الهمم، والتربية بأسلوب غاية في تحقيق التفاعل مع النفس بكل ما أوتيت من مقدرة وقدرة. فسبحان الله العظيم الذي ظهرت عظمته وإعجازه في كلامه وسياق بيانه، ولطفه وحلمه وعفوه وكرمه حتى في الخطاب.

ويمكن استخراج قاعدة يستدفع بها المؤمن نفسه تجاه كل خير، والانكفاف عن كل شر، وذلك من قوله تعالى ﴿مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ﴾ فإذا تباطأت النفس عن فعل خير استنهض قوتها بقوله عَزَّ وجل ﴿مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ﴾ وإذا تثاقلت عن طاعة استثار نفسه بقوله جَلَّ جلاله ﴿مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ﴾ وإذا ترددت في فعل خير استنهض إرادته بقوله تعالى ﴿مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ﴾ وإذا رأى غيره على نوع من التكاسل عن الخير، وعظه بقوله عَزَّ وجل ﴿مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ﴾ لتصبح قاعدة اندفاع للخير، ومعالجة لكل تثاقل عن الإسراع في الخير وإلى الخير.

وكذلك قوله تعالى ﴿أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ قاعدة عظيمة في تربية النفس، وفي شحذ الهمة نحو المبادرة إلى الطاعة، فإذا واجه الإنسان ما يفتنه عن آخرته تذكر قوله تعالى ﴿أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ وإذا واجه ما يمنعه عن فعل الخير قال لنفسه ﴿أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ وإذا واجه التفاضل بين ما يخص الآخرة ويخص الدنيا عالج نفسه بقوله تعالى ﴿أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ فإنها قاعدة تربوية عملية تسير بالإنسان نحو الفلاح والفوز بالآخرة، وكسر الموانع والحواجز عن فعل الخير وإتيانه، أو التردد في فعله.

ثم يتدرج التوجيه الرباني الكريم من العتاب إلى الإنذار والتهديد عن التخلف عن ركب النفير، وذلك مراعاة لاختلاف الطبائع البشرية، التي يتأثر بعضهم بالعتاب، وبعضهم يحتاج إلى الترهيب والتهديد والإنذار، فقال تعالى ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ﴾ وبدأ الإنذار بالوعيد المشروط بعدم الاستجابة، فالشرط هو ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ﴾ والموعود به حال عدم الاستجابة هو العذاب ﴿يُعَذِّبْكُمْ﴾ ثم ذكر درجة العذاب ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ فليس بالعذاب السهل، بل موصوف بالأليم، الذي نهايته الاستئصال والاستبدال ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ فيهلككم ويستبدل لرسوله صلى الله عليه وسلم قوماً غيركم، وقد يكون ذلك بتسليط العدو، أو بغير ذلك مما يحقق الله تعالى به ما تَوَعَّد به. وهذا تهديد شديد، ووعيد مؤكد حال ترك النفير ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا﴾ فلن يلحق الله ضرراً ولا رسوله صلى الله عليه وسلم بتخلفكم. وذكر السيوطي رحمه الله تعالى: أي: الله، أو النبي صلى الله عليه وسلم[١] فلن يضر الله تعالى ولا رسوله صلى الله عليه وسلم من أمركم شيء، فلن تضروا إلا أنفسكم، فهذا نفي لوقوع الضرر إلا عليهم، فلن يتضرر بذلك الدين ولا الرسالة ولا النبي صلى الله عليه سلم، ثم يختم الله تعالى ذلك ببيان عظيم قدرته ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ﴾ فهو قادر على عذابكم واستبدالكم بغيركم، وقادر على نصرة دينه ونبيه صلى الله عليه وسلم من دون نفيركم.

وذكر القرطبي رحمه الله تعالى عن عدد من الأئمة: أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى في أواخر هذه السورة ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً﴾ وذكر أيضاً: أن الإمام إذا عَيَّن قوماً وندبهم إلى الجهاد لم يكن لهم أن يتثاقلوا عند التعيين، ويصير بتعيينه فرضاً على من عينه، لا لمكان الجهاد ولكن لطاعة الإمام والله أعلم[٢] ومن الفوائد مراعاة التوجيه الرباني للطبيعة الإنسانية، فهناك من سيتأثر بالعتاب الذي تضمنته الآية السابقة لهذه الآية، وهناك من يحتاج إلى الإنذار والتهديد عن التخلف عن ركب النفير، والذي تضمنته هذه الآية من التهديد والوعيد والزجر. مما يعطي تعليماً ودرساً في منهجية التعامل مع اختلاف الطبائع البشرية، وأهمية مراعاة ذلك عند التعامل معها.

(١) السيوطي، تفسير الجلالين (١٩٣)

(٢) القرطبي، لجامع لأحكام القرآن (٩٠/٨)

ثم يتدرج البيان الكريم إلى التأكيد على قدرة الله تعالى في نصرة رسوله صلى الله عليه وسلم، وأنه هو المتوكل بنصره، وإظهاره على أعداء الدين، وسواء جاهد معه المؤمنون أو لم يجاهدوا في سبيله سبحانه وتعالى، مؤكداً ذلك بنصرته لنبيه صلى الله عليه وسلم يوم خرج عليه الصلاة والسلام وصاحبه أبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى غار ثور في طريق هجرتهم، من غير جيش ولا عتاد ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ فإن لم تعينوا الرسول صلى الله عليه وسلم بالنفير، فإن الله تعالى ناصره كما نصره وحيداً مع صاحبه، عندما أخرجه قومه من مكة واضطروه للخروج، فهاجر إلى المدينة، وكان من قلة العدد أنه ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ ﴾ بينما العدو كثير، وجملة ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ ﴾ أي: كان واحداً من إثنين، بما يفيد قلة العدد، مثل القول: ثالث ثلاثة، أو رابع أربعة. مما يفيد أن النصر تحصيل حاصل لرسوله صلى الله عليه وسلم، كما نصره من غير جيش يوم خروجه وصاحبه إلى الغار، ثم إلى المدينة، وما حصل له في الطريق من الكرامات، مما يعني أنكم أنتم المستفيدون من نُصرته بما تحصلونه من عظيم الأجور، فاغتنموا غنيمة المناصرة ولا تثاقلوا بالقليل من متاع الدنيا عن عظيم أجور الآخرة، فما ينتظركم في الآخرة شيء عظيم. وفي هذا استدفاع واستنهاض للمبادرة وعدم التراخي بأسلوب البيان والمقارنة والتذكير للحقائق الباهرة.

وقد أضاف سبحانه وتعالى إخراج الرسول صلى الله عليه وسلم لفئة المشركين، بأنهم هم الذين أخرجوه ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ ﴾ لأنهم ضيقوا عليه، وآذوه، وتواعدوا وتوافقوا على قتله حتى أكرهوه على الخروج إلى الذين وعدوه بالمناصرة من الأوس والخزرج بالمدينة، الذين هم الأنصار.

ثم يذكر الله تعالى حالهما في الغار بأوجز بيان وأعظم وأرحب دلالة ﴿إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ ﴾ والغار هو الفتحة العظيمة تكون في الجبل. ويصف أبوبكر الصديق رضي الله عنه الموقف بقوله: كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم في الغار، فرفعت رأسي فإذا أنا بأقدام القوم، فقلت: يا نبي الله، لو أن بعضهم طأطأ راسه رآنا. قال: (اسكت يا أبا بكر، اثنان الله ثالثهما)(١) مما يدل على صعوبة الموقف من كل وجه، فهناك كثرة العدو، وقربهم، وشدة بأسهم، ولكن من شدة توكله صلى الله عليه وسلم على ربه أنه يقول لصاحبه مطمئناً له (اسكت يا أبا بكر، اثنان الله ثالثهما) بل ويصف الله تعالى ذلك بقوله عَزَّ وجل ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ وجملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ تدل على الثقة وكمال التوكل، فإن الله تعالى معنا

(١) البخاري، الجامع الصحيح (٣/٧٥) برقم (٤٩٢٢)

برعايته وحفظه وتدبيره ونصره. وأما صاحبه فهو أبو بكر الصديق، عبد الله بن قحافة رضي الله تعالى عنه، ووصفه سبحانه وتعالى بالصاحب ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِۦ﴾ والتي تفيد الملازمة، والمنزلة والعلاقة والمعية في أشد المواقف، ومن ذلك سُميت الزوجة بالصاحبة باعتبار المعية، وكذلك تفيد المنزلة الجليلة لأبي بكر رضي الله عنه بهذه المصاحبة لخير البشر صلى الله عليه وسلم.

وقد أنزل الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم وقت شدة الخوف طمأنينة عظيمة الأثر ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ﴾ وهي الرحمة والوقار والسكون والطمأنينة، لتستريح قواه عليه الصلاة والسلام، ويطيب فؤاده، وترتاح نفسه وتطمئن، وسينعكس ويرجع هذا الاطمئنان على صاحبه أبي بكر الصديق، وذلك لما يرى من حال الرسول صلى الله عليه وسلم، ولا يمنع أيضاً أن الله تعالى أعطى أبا بكر الصديق من السكينة ما يطمئن به فؤاده، لأن قوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ تدل على الجمع، فتدل على معية الله تعالى بالتوفيق والرعاية لهما، ولا شك أنها ستكون بالتوفيق وإنزال السكينة، فإكرام الله تعالى عظيم وواسع، حتى قال بعض أهل العلم إن السكينة نزلت على ابي بكر الصديق، لأن النبي عليه الصلاة والسلام لم تزل معه سكينة، وقال ابن كثير رحمه الله تعالى: وهذا لا ينافي تجدد سكينة خاصة بتلك الحال[1] ولا يمنع أن الله تعالى عني بإنزال السكينة أنها على رسوله صلى الله عليه وسلم، وصاحبه تبع له، فإن الله تعالى كريم العطاء، وتخصيص المغني بالذكر لأنه هو الأصل والأساس، وصاحبه تبع له. وهذا من رحابة النص الكريم.

ثم يقول تبارك وتعالى عن نصره لرسوله صلى الله عليه وسلم ﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ وأيد الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بجنود وقوة لم تراها الأعين، وهي الملائكة. والسياق يفيد التعميم لتلك الجنود، لتستوعب حتى التعتيم والتغطية عليهما، ومما وقع للعدو من الجهل والانخداع بأنه ليس في الغار، ومن ذلك ما وقع مع سراقة عندما تبع النبي صلى الله عليه وسلم يتقفى أثره، وهو في طريق هجرته إلى المدينة، فقال أبوبكر الصديق رضي الله عنه: أُتينا. فقال صلى الله عليه وسلم ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ فدعا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فارتطمت فَرَسُهُ إلى بطنها[2] في الأرض. فما كان ذلك ليحصل لولا أن الله تعالى أيده بتلك القوة من الوسائل التي يتحقق بها الانتصار والخروج وصاحبه آمنين إلى المدينة.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٣٧٣)

(٢) مسلم، صحيح مسلم (٤/٢٣٠٩-٢٣١٠) برقم (٢٠٠٩)

ثم يبين الله تعالى نصره لدينه ولرسوله صلى الله عليه وسلم ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ فقد حسم الله تعالى بقوته وقدرته الأمر، فجعل كلمة الشرك هي المغلوبة المنهزمة والمنهارة ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا ﴾ التي هي لا إله إلا الله، فرفع الله تعالى كلمته بإعزاز دينه ورسوله صلى الله عليه وسلم وكتابه ورسالته. فقد نصر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم على عدوه؛ وهو بتلك الحال من قلة العدد، وكثرة العدو وقوته وهيمنته وسلطته، فلن يخذله ويحوجه لأحد. مما يفيد ويبين قوة الاستثارة والبشارة بالنصر للنبي صلى الله عليه وسلم ولدينه ولمن آمن معه في قادم الأيام، فتحقق ذلك كما قال تعالى وقضى. وهذا من الإعجاز الغيبي العظيم.

ثم يختم الله تعالى هذه الآية بما يناسب مقامها من أسمائه وصفاته سبحانه وتعالى ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ فإن ربكم هو العزيز، الغالب، فقد أعز كلمته ودينه ونبيه صلى الله عليه وسلم، وأذل أعداء دينه، فهو العزيز الذي لا يُقهر، والعزيز الذي لا يُغلب. وهو الحكيم في تدبيره وتصريفه، إذ نَجَّا رسوله صلى الله عليه وسلم وصاحبه وهما اثنان من بين أعداد كثيرة من العدو، وبأس شديد، ومكر عتيد. مما يفيد ويوضح للمسلم أن عليه الطاعة لله تعالى والتوكل عليه، فإن توكله على عزيز حكيم. كما يعطي هذا التوجيه الكريم درساً في أن نصر الله تعالى لنبيه ولدينه ماض بكل قوة، وإن لم ينصره أحد.

﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن
كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ
وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ
﴿٤٢﴾ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ
﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۗ
وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱرْتَابَتْ
قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾

يوجه الله تبارك وتعالى المؤمنين إلى النفرة في الغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على أي حال يكون عليها المؤمن، وذلك بالنفس والمال، وأن هذا هو الأفضل عاقبة لكم ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا

وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ فبدأ التوجيه الكريم بالأمر ﴿ ٱنفِرُواْ ﴾ أي: أخرجوا للغزو، ثم أوضح سبحانه وتعالى بأقل الألفاظ ما يستوعب به جميع الأحوال التي يمكن أن يكون عليها الإنسان ﴿ خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ حيث جاء في معناها أقوالاً تستوعب اختلاف الأحوال للإنسان، فقد ذكر ابن جرير الطبري رحمه الله تعال، أنها تعني: شباباً وشيوخاً، وأغنياء وفقراء، ونشطاء وغير نشطاء، وركباناً ومشاة. ثم استخلص ذلك في صورتين: الأولى: خفافاً: فقد يَدخل في الخفاف كل من كان سهلاً عليه النفر، لقوة بدنه على ذلك، وصحة جسمه وشبابه، ومن كان ذا يُسر بمال وفراغ من الاشتغال، ومقتدر على الظهر والرِّكاب. والصورة الثانية: أنه يدخل في الثقال كل من كان بخلاف ذلك، من ضعيف الجسم، وعليله وسقيمه، ومن معسر من المال، ومُشتغل بضيعة ومعاش، ومن كان لا ظهر له ولا ركاب، والشيخ ذو السن والعيال[١] وفي هذا الاستيعاب الدلالي ما يبين غزارة المعنى، وبلاغة استيعابه لتحقيق المقاصد بأقل الألفاظ وأبلغ الدلالات التي يتوهج فيها الإعجاز الدلالي والبياني بلاغة ووضوحاً.

ومن رحمة الله تعالى أنه عَزَّ وجل نسخ هذا بما يرفع الحرج عن العاجز، فقد ذكر الإمام ابن كثير والشوكاني وغيرهما: أنه لما نزلت هذه الآية اشتد على الناس شأنها، فنسخها الله تعالى، بقوله عَزَّ وجل في سورة التوبة ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ ﴾[٢] وهذا من لطف الله تعالى ورحمته، فقد استبان لكل أحد أن هذا الدين هو دين رحمة، وأن الله تعالى قادر على أن يبتلي عباده بأحكام لا يستطيعون عليها، أو يستطيعون عليه بمشقة، فأبان الحكم الأول وجه المشقة، وأبان الحكم الثاني الذي هو النسخ رحمته وحكمته تبارك وتعالى. ومراعاته أحوال الناس. ليتبين للناس أن الله تعالى على كل شيء قدير، وأنه رحمن رحيم.

ثم تناول النص الكريم مجالي الجهاد، مع الترغيب فيهما ﴿ وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ فالجهاد مغالبة ومناجزة، وقد استوعب حكم الجهاد ما يكون بالمال، وما يكون بالنفس، وما يكون بهما معاً، مع تقريره تبارك وتعالى هذا العمل بمغالبة النفس ومناجزتها على بذل المال والنفس، حيث سماه جهاداً، واستوعب كذلك الاستطاعة، فإن المعذور من الجهاد بالبدن، عليه أن يجاهد بماله، إن كان لديه القدرة

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١١/٤٦٨-٤٧٤)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٣٧٣) والشوكاني، فتح القدير (٢/٣٦٤)

المالية على ذلك. قال القاضي أبو يعلى رحمه الله تعالى: أوجب الجهاد بالمال والنفس جميعاً، فمن كان له مال وهو مريض أو مُقعد أو ضعيف لا يصلح للقتال، فعليه الجهاد بماله، بأن يعطيه غيره فيغزو به، كما يلزمه الجهاد إذا كان قوياً، وإن كان له مال وقوة فعليه الجهاد بالنفس والمال، ومن كان معدماً عاجزاً فعليه الجهاد بالنصح لله ورسوله صلى الله عليه وسلم، لقوله تعالى من سورة التوبة ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ ﴾[1]

وقد تناول منهج الحث على الجهاد منهجية وأسلوباً يستثير ويستدفع بها المؤمن إلى ذلك من تلقاء نفسه، بأن يبادر إلى الجهاد حباً له ورغبة فيه. فإن أول ذلك الاستدفاع هو في تسميته، بأن سماه الله تعالى بالطريق الموصل إليه ﴿ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ وكل مؤمن يحب أن يسلك الطريق الذي يوصله إلى الله تعالى، وثاني ذلك: أن وصفه الله تعالى بالأفضل خيراً وعاقبة لكم أيها المؤمنون ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ فهو خير للمجاهد من التثاقل عنه، وخير له في دنياه وآخرته، فإن عاش المجاهد ربح طاعة الله تعالى، وربح الغنائم، وإن مات ربح الجنة. وفي قوله تعالى ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي: لو كنتم تعلمون عظيم الخير الذي تحصلون عليه من الجهاد في سبيله عَزَّ وجل، ولكنكم لا تعلمون حقيقة ذلك، مما يفيد أنه يخفى عليكم عظيم ذلك الخير الذي نوه عنه سبحانه وتعالى بكلمة ﴿ خَيْرٌ ﴾ والتي جاءت نكرة، لتفيد التعظيم والتكثير والسعة والوسع الذي يسعكم في الدنيا والآخرة. وأشار إلى ذلك بقوله تعالى ﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾ التي أفادت التعظيم له في هذا السياق الكريم. فذلكم الجهاد خير عظيم لكم لو علمتم به، بما يفيد لتسابقتم إليه، لما فيه من عظيم المثوبة والعطاء، ولما تثاقل عنه من تثاقل.

ثم ينتقل التوجيه الكريم إلى حال الذين استأذنوا الرسول صلى الله عليه وسلم عن غزوة تبوك ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ لو أن الذي دعوتهم إليه أيها النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ كَانَ عَرَضًا ﴾ أي: متاعاً ونفعاً من منافع الدنيا كالغنيمة ونحوها، وكان ذلك

([1]) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣٠١/٣)

قريباً وسهلاً ميسوراً، وكذلك كان السفر إليه قصيراً ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ وسطاً مقارباً، معلوم الطريق ﴿لَّاتَّبَعُوكَ﴾ أي: لم يعتذروا ولم يترددوا، بل سيبادرون إليك بالموافقة، لأن نفع الهدف واضح تحققه وتحصيله، وقصير المسافة وسهلاً ميسوراً، مما يبين أن حال هؤلاء المحكي عنهم هو حال المنافقين، فالمانع لهم ليس هو المانع الصحي ولا العائق الجسدي، ولا انتفاء قدرة مانعة، بل كان المانع لهم هو الموازنة بين ما دعوتهم إليه وبين مصالحهم الذاتية الشخصية، التي ترجحت في تقدير حساباتهم على ما دعوتهم إليه من الجهاد في سبيل الله تعالى، فليس لله تعالى ولا لرسوله صلى الله عليه وسلم شيء من الاستجابة. ومن جميل ودقة البيان أن الله تعالى سمى مُبْتَغاهم ﴿عَرَضًا﴾ ولم يسمه غنيمة، لأن الغنيمة تكون غالباً بجهاد وقتال، وأما العرض فهو متاع سهل، يحصل بأقل الأسباب وأسهلها وأيسرها. وهذا من دقائق البيان وإعجازه البلاغي.

فالذي منعهم هو أن ﴿بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ﴾ وهي المسافة الشاقة، التي يجد فيها الإنسان مشقة وعناء لبعدها، أو لوعورة الطريق إليها، أو لاشتمالها على الأمرين معاً. وكانت غزوة تبوك طويلة المسافة، مع شدة الصيف، وظهور الثمار في المدينة، فالجاذب قوي، والمانع قوي، والإيمان أقوى لدى المؤمن من الجاذب والمانع. فما عند الله تعالى أقوى جذباً، وأقوى استباقاً، وأنفى وأدفع لكل مانع. وكان تفسير موقفهم بليغ في ألفاظه وتراكيب كلماته، وكثرة دلالاته، وجزالة عباراته، مع كشفه وتحليله لدواخل وخلجات أنفسهم بأقل الألفاظ وأدق التفاصيل والبيان. فسبحان من أظهر كلامه حتى أعجز عباده بسياق بيانه العظيم.

ثم يبين الله تعالى أسلوب اعتذارهم ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ فإن الذي منعنا هو عدم القدرة، ولو اقتدرنا لشاركناكم في الخروج، فنفوا جميع أوجه الاستطاعة، لأن جملة ﴿لَوِ ٱسْتَطَعْنَا﴾ شملت نفي جميع أوجه الاستطاعة، وذلك لعمومها. وسواء كانت الاستطاعة البدنية، أو استطاعة العتاد، أو الموانع الأخرى التي لا حصر لها، فأثبتوا لأنفسهم جميع الموانع، ونفوا عن أنفسهم جميع أسباب المشاركة، ثم واثَّقُوا ذلك بالأيمان ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾ وجاء سياق الحلف على وجه الاستقبال، ليفيد ذلك أن الله تعالى أخبر رسوله صلى الله عليه وسلم بما سيكون من اعتذارهم قبل أن يعتذروا، وذلك بعد رجوعه من غزوة تبوك. وهذه الأيمان مهلكة لهم ﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ فيُوقِعُون أنفسهم في العذاب، فلن يصيبوا ولن يُهلكوا بها أحداً غير أنفسهم ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ فإن الله تعالى يعلم من حالهم وقدرتهم أنهم يكذبون في عذرهم، ويكذبون في أيمانهم الفاجرة. مما يدل على قوة نفاقهم وجرأتهم على الله تعالى وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم. فإن الله تعالى لا تخفى عليه خافية من حالهم وحال غيرهم

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴾ مما يفيد علم الله تعالى الواسع العظيم، وخطورة اليمين الفاجرة، فإن أخرجت الإنسان بقوة منزلتها ومكانتها من مأزق، فإنها لن تخرجه من علم الله تعالى وعقابه. وأن في الناس من يحلف ويقسم بالله تعالى فاجراً كاذباً، والله لا تخفى عليه خافية.

ثم ينتقل السياق الكريم إلى جناب النبي صلى الله عليه وسلم، فيقول الله تعالى له ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾ فابتدأ التوجيه الكريم بقوله سبحانه وتعالى ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ ﴾ وهي مبادرة من الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم بالصفح والمغفرة، مع أسلوب التلطف والرحمة، إذ أخبره الله تعالى بعفوه قبل أن يباشره بالعتاب عن الإذن لهم بالقعود، كما أنها أفادت التعظيم لجناب الله تعالى، إذ أعلمه سبحانه وتعالى بأسلوب الخبر عن ذاته تبارك وتعالى ﴿عَفَا ٱللَّهُ ﴾ والذي افاد التعظيم لمقام الله تعالى، بأنه عفا عنك أيها النبي ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ ﴾ وجملة ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ ﴾ تفيد أن النبي صلى الله عليه وسلم أذن لهم بعدم الخروج لغزوة تبوك، وذلك بناء على طلبهم واعتذارهم، فقبل منهم عليه الصلاة والسلام ظاهر الاعتذار، وحمل قولهم على الصدق، فعاملهم بما يظهر له منهم. مما يدل على أنهم اعتذروا للنبي صلى الله عليه وسلم بأعذار كاذبة.

كما تفيد ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ ﴾ أنها جاءت على صيغة السؤال عن سبب الإذن لهم، فَلِمَ اخترت الإذن والسماح لهم بالقعود، وقبلت منهم عذرهم، بينما كان الأولى هو عدم الإذن لهم، من أجل اكتشاف أمرهم ﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يومئذ يعرف المنافقين، وإنما عرفهم بعد نزول سورة التوبة، وقال مجاهد رحمه الله تعالى: هؤلاء قوم قالوا: نستأذن في الجلوس، فإن أُذِن لنا جلسنا، وإن لم يؤذن لنا جلسنا[١] مما يبين أن النبي صلى الله عليه وسلم لو لم يأذن لهم، لجلسوا، فافتضحوا، وانكشف أمرهم للرسول صلى الله عليه وسلم وللناس، ولعرفهم على حقيقتهم. فإن في عدم الإذن لهم تمحيص وعلم بصدق من صدق، وكذب من كذب. مما يفيد لطف الله تعالى بنبيه صلى الله عليه وسلم حتى في مخاطبته عند التوجيه حال العتاب. مما يُعَرِّف المؤمنين بمنزلة النبي صلى الله عليه وسلم، ويؤكد وجوب تقدير وتعظيم مقام النبي عليه الصلاة والسلام.

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٨/٩٩)

ثم يبين الله تعالى حال المؤمنين في الاستئذان ﴿ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴾ فحال المؤمنين هو عدم الاستئذان، فإنهم لا يستأذنونك ليجاهدوا، ولا يستأذنونك في القعود عن الجهاد، ولا يستأذنون أن يجاهدوا بأموالهم، ولا يستأذنوا عن عدم الجهاد بالمال، مما يدل على أنهم ينفقون الغالي والنفيس. وأن حالهم هو حال الطاعة والمصاحبة والمشاركة للرسول صلى الله عليه وسلم بكل ما يستطيعون، ولا يتخفون ولا يخفون عنه شيء عليه الصلاة والسلام، وقد نعت الله تعالى إيمانهم بأنهم ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ﴾ فوصفهم بخلاصة الإيمان، الذي هو الإيمان بالله تعالى، والإيمان باليوم الآخر، فإن الإيمان بالله تعالى يوجب الإيمان بكل لوازم الإيمان، والإيمان باليوم الآخر، يوجب السعي للآخرة، فيكون سعيهم في الدنيا من أجل تحصيل الآخرة، فأوجز سبحانه وتعالى الوصف والبواعث في ركيزتين من ركائز الإيمان، فأولها وقاعدتها: هو الإيمان بالله تعالى، وثانيها: هو الهدف والنية الموجبة لهم في عدم الاستئذان، وهو الإيمان باليوم الآخر، الذي إليه يحفت المؤمن ويسعى.

وختم الله تعالى بيانه الكريم بعظيم علمه بحال المتقين من غير المتقين ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴾ لتفيد الإخبار للمتقين بأن ربكم عَزَّ في علاه عالم بتقواهم، وبالتالي لن يفوتكم أجر وثواب تقواكم له سبحانه وتعالى. قال الزمخشري رحمه الله تعالى: شهادة لهم بالانتظام في زمرة المتقين، وعدة لهم بأجزل الثواب[١] فلما زكاهم الله تعالى في عظيم طاعتهم له بالجهاد في سبيله بأموالهم وأنفسهم، وكذلك تزكيته لهم في إيمانهم، أخبر الله تعالى بأنه عليم بتقواهم، فلن تضيع أبدا تلك التقوى منكم له عَزَّ وجل، فسيحفظها لكم، ليكون ذلك بشارة لهم بأن الله تعالى لن يضيع إيمانكم، ولن يضيع جهادكم الذي يدل على تقواكم له عَزَّ وجل.

ثم يخبر الله تعالى بحال وصفة الذين يستأذنون النبي صلى الله عليه وسلم عن الجهاد ﴿ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ ابتدأ البيان الكريم بحصر صفات الذين يستأذنون النبي صلى الله عليه وسلم في الجهاد بأداة الحصر ﴿ إِنَّمَا ﴾ لتفيد أن هذه الأربع هي صفات محددات للمستأذنين الذين يستأذنون النبي صلى الله عليه وسلم في الجهاد، فالأولى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ فنفى عنهم الإيمان به سبحانه وتعالى، لأن الذي يؤمن

(١) الزمخشري، الكشاف (٢٧٢/٢)

بالله تعالى يطيعه ويطيع رسوله صلى الله عليه وسلم، مما يفيد أن الإيمان بالله تعالى يكون قولاً وعملاً، فالقول يُصَدِّقُه العمل، فهما أمران مقترنان.

والصفة الثانية: لا يؤمنون باليوم الآخر ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾ وقد عطف الله تبارك وتعالى عدم إيمانهم باليوم الآخر على عدم الإيمان به، ليكون تحصيلاً عن عدم الإيمان بما هو أعظم، لأن الإيمان باليوم الآخر يجعل المؤمن به يخاف ذلك اليوم، فيعمل له بما ينجيه منه، ويُلزم نفسه على مراد الله تعالى، ومن لم يؤمن به، فلا يحسب له الحساب اللائق به، فلا يتقدم له بعمل ينجيه. والصفة الثالثة: ﴿وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: أن قلوبهم في شك وريبة، فهي غير موقنة ولا مطمئنة، وفي هذا تصوير بياني لما في داخل نفوسهم، وما يجول في خواطرهم من الارتياب والظنون. والصفة الرابعة ﴿فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ فهم يترددون في داخل دائرة حَيرة الشك التي أوقعوا أنفسهم فيها، فيذهبون ويرجعون، ويقبلون ويرفضون، فقد كشف البيان الإلهي حقيقة معاناتهم النفسية. فهناك حالتان تجول في قلوبهم: حالة الارتياب، وحالة التردد التي تزيد من مشقة الارتياب النفسية. وفي هذا البيان تعرية للحقائق النفسية عند المنافقين، وإيضاح لِمَا يجول في خواطرهم وخلجات نفوسهم التي لا يعلمها إلا الله تعالى، فلولا أن الله تعالى كشفها لما عرفها غيرهم عنهم. مما يبين أن عدم الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر يجعل المرء في حيرة وتردد، فليست منه عزيمة على الطاعة، ولا خوف ولا اكتراث واهتمام باليوم الآخر ومآله، وهو في تردد وشك وريبة، فيتصارع في قلبه النفاق. مما يدل على نعمة الإيمان، وأنها نعمة عظيمة جليلة على العبد المؤمن، فاللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان واجعلنا من الراشدين، وأعذنا برحمتك من الكفر والنفاق والشقاق، ونسألك إيماناً صادقاً وقلباً خاشعاً ولساناً ذاكراً، وعفواً وهداية من عندك يا رب العالمين، بفضلك وكرمك وجودك ورحمتك يا أرحم الراحمين، يا رب العالمين.

﴿وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ
ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ
يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبْتَغَوُاْ ٱلْفِتْنَةَ مِن
قَبْلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾
وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ
بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ

أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَاۖ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

يستمر السياق الكريم في كشف حقائق المستأذنين للقعود عن غزوة تبوك فيقول السميع العليم ﴿ وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً ﴾ فلو أرادوا الجهاد لتأهبوا واستعدوا استعداد المسافر، فلو كانوا محقين في اعتذارهم لأعدوا واستعدوا وتأهبوا وجهزوا جهازهم للسفر، كما يفعل غيرهم من المؤمنين، ولكن تركهم تجهيز أنفسهم والاستعداد لذلك، دليل عملي وقرينة شاهدة على إرادتهم التخلف.

ومن بليغ الكلام: دلالة ﴿ عُدَّةً ﴾ التي استوفت وجمعت جميع المعاني في تأويلها: فعن ابن عباس رضي الله عنهما، أي: النية. وقيل السلاح، والمركوب، وما يصلح للخروج[١] فاستوفت لفظة ﴿ عُدَّةً ﴾ جميع ما هو متعلق بحاجات المسافر للغزو، من النية وتجهيز المركوب والسلاح، والمؤونة، وغير ذلك من لوازم السفر. وهذا من بلاغة البيان وجزالته.

ثم يخبر الله تعالى بعظيم علمه ومعرفته بما سيكون منهم فيما لو خرجوا مع النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، فقد كره الله تعالى خروجهم لما سيكون من شرهم وأذاهم ﴿ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ ﴾ فقد كره الله تعالى انطلاقهم وخروجهم مع المؤمنين لِمَا عَلِم من حالهم ﴿ فَثَبَّطَهُمْ ﴾ بأن أضعف همتهم ونشاطهم، فاستثقلوا الخروج، لأنهم عقدوا النية على عدم الخروج ﴿ وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴾ أي: أقعدوا مع العاجزين من الضعفاء والنساء والمرضى، فهو الأليق بهم.

ثم يبين الله سبحانه علة ذلك التثبيط ﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ﴾ فلو خرجوا معكم لن يزيدوكم خيراً وقوة، بل ﴿ مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ﴾ أي: ضراً وفساداً وشراً، وذلك بإيقاع الخلاف والإرجاف، فيسارعون في إيقاع الفساد ﴿ وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ ﴾ وهو السير بين القوم بالإفساد،

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣٠٣/٣)

قال الزمخشري رحمه الله تعالى: ولسعوا بينكم بالتضريب، وهو لإغراء والنائم وإفساد ذات البين[١] ﴿يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾ أي: يهدفون ويطلبون من ذلك تمزيق شملكم وتآلفكم، وما يفتنكم عن غزوتكم، وعن دينكم، وعن تحقيق النصر، لأن الفتنة وردت عامة لتشمل وتستوعب كل ما يحقق معانيها ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: وفيكم سَمَّاعون لحديثكم لهم، يبلغونه عنكم، عيون لهم[٢] أي: عيون لهؤلاء الذين كره الله انبعاثهم، ينقلون إليهم أخباركم. مما يفيد أموراً متنوعة: أولها: أن هناك عيون لا يأمن حالهم، وثانياً: قد يتكلم البعض عن جهل بما يجب السكوت عنه، فيستفيد منه العدو. وثالثاً: أهمية عدم الكلام بكل شيء وعند كل أحد. ورابعاً: أهمية الوقاية والحذر.

ثم يخبر الله تعالى بما يناسب المقام والسياق عن عظيم وسعة علمه الذي أحاط بالظالمين ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فإن الله تعالى عالم بالظالمين الذين يسعون لتحقيق الفساد، ويوجهون الأمور إلى غير وجهتها، فلا تخفى عليه سرائر خلقه مهما كانت. فمن رحمته بكم أن ثبطهم عنكم لعلمه السابق بهم، مما يفيد المؤمن فائدة عظيمة، بأن يعزز لديه الثقة بالله تعالى، وقبول أقداره عَزَ وجل، والتعامل معها بحكمة، فإنها خير، فلولا أن الله تعالى أخبر بذلك لتأثر المسلمون حزناً وجزعاً على من قعد وتأخر عن الخروج للغزوة، بسبب عدم علمهم بحقيقة أولئك الظالمين. وهذا يغرس في المؤمن عدم الأسى على ما يفوت، فلعل فيما يفوت شر يدفعه الله تعالى بعلمه وإحاطته وقدرته، بينما يجهله المؤمن، فيتأثر به أسأً وحزناً، لقصور علمه، وسعة علم الله تعالى، فعليه أن يرضى بما يقدره ويحققه سبحانه وتعالى.

ومع أن هذه حالهم وحالتهم إلا أن الله تعالى عاتب نبيه صلى الله عليه وسلم عن الإذن لهم بالقعود ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ وذلك أن الله تعالى أراد من عدم الإذن لهم تعريتهم وكشف نيتهم وحقيقة أمرهم، بأنهم بيتوا نية الامتناع حال لم يأذن لهم النبي صلى الله عليه وسلم في القعود والتخلف عن الغزوة، كما قال مجاهد رحمه الله تعالى: هؤلاء قوم قالوا: نستأذن في الجلوس، فإن أُذِن لنا جلسنا، وإن لم يؤذن لنا جلسنا. فيكون امتناعهم هو اعتراف وكشف منهم لحقيقة أنفسهم.

ومن مزيد البيان عن أحوال الذين قعدوا عن الخروج للغزوة، قوله تعالى ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ فلقد

---

(١) الزمخشري، الكشاف (٢٧٣/٢)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٨٧/١١)

أرادوا الشر من قبل غزوة تبوك، فكانت النية مع الإرادة متحققة وقائمة في أنفسهم، خاصة وأن دلالة ﴿ٱبۡتَغَوُاْ﴾ تفيد الإرادة والعزيمة، مع تأكيدها بأداة التحقق ﴿لَقَدِ﴾ التي تفيد التحقيق، فقد تحققت في نفوسهم النية والإرادة ﴿لَقَدِ ٱبۡتَغَوُاْ ٱلۡفِتۡنَةَ مِن قَبۡلُ﴾ فلقد طلبوا الإفساد والخبال من قبل أن يَظْهَر أمرهم، وينزل الوحي بما أَسَرُّوا، وبما هم عليه من الخديعة، والنية السيئة، وقد وردت الفتنة عامة لتستوعب جميع أنواع الفتنة وجميع ما يفسد أمر النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين.

ثم يخبر الله تعالى بالمزيد من الإيضاح لحقائق إرادتهم ﴿وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلۡأُمُورَ﴾ والتقليب للأمر هو وضعه في صور واحتمالات متعددة، ابتغاء الوصول لأفضلها. فتداولوا الآراء، وتشاوروا، ووضعوا الاحتمالات، مما يدل على أن هناك حيل ومكائد لإبطال وتشتيت أمر الرسول صلى الله عليه وسلم، وإلقاء الوهن والخذلان في صفوف المؤمنين، مما يبين حقيقتهم، بأنهم منافقون كارهون لهذا الدين ولرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين. وصيغة ﴿وَقَلَّبُواْ﴾ تدل على كثرة التقليب للأمر، وبذل الجهد بالتفكير والتأمل والتشاور، ووضع الاحتمالات ورسم أساليب الوقاية وطرائقها، مما يدل على المبالغة في الوصول إلى المكر الناجح، والفعل المؤثر، مع التحرز من عوائده، والحذر من مغبته، مما يدل على دقة اللفظة في تصوير وبيان حالهم في التفكير والمشاورة والتَّمَعُّن في الأمر، فقد دلت على الكثرة والمبالغة في التمحيص والنظر. وكلمة ﴿ٱلۡأُمُورَ﴾ وردت عامة وبصيغة الجمع لتشمل وتستوعب جميع ما يحقق مبتغاهم وأهدافهم من إيقاع الفتنة.

ثم يخبر الله تعالى عن كريم فَضْلِه بقوته وقدرته وعظيم تدبيره ﴿حَتَّىٰ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَظَهَرَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَهُمۡ كَٰرِهُونَ﴾ حتى جاء الحق الذي هو نصرك وتأييدك، فظهر الدين وانتصر ﴿وَظَهَرَ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ فظهر الإسلام، وانتصر دين الله تعالى، وعلا شرعه على كره منهم ﴿وَهُمۡ كَٰرِهُونَ﴾ فقد كانوا على كره وبغض منهم لما تحقق للنبي صلى الله عليه وسلم من النصر والعزة والتمكين لدين الله تعالى، مما يعني أن هذا النصر كان كسر لهم ولأهوائهم وباطلهم، وعذاب نفسي تغلي به قلوبهم. مما يوضح ويؤكد أن دين الله تعالى ظاهر على الدين كله، ولو كره الكارهون من الكفرة أجمعين. وأنه لا خوف على هذا الدين، فإن العزة لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين، وأن أسباب النصر وتحققه من عند الله تعالى.

ثم يخبر الله تعالى بالمزيد من أساليب اعتذارهم ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ ٱئۡذَن لِّي وَلَا تَفۡتِنِّيٓ﴾ فمن المنافقين من يتحجج بالورع الكاذب، وهي فتنة النساء، قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى عن قولهم

ذلك: أي لا تبتليني برؤية نساء بني الأصفر وبناتهم، فإني بالنساء مغرم، فأخرج وأثم بذلك[1] ويقصد بذلك نساء الروم. فيتعذر بفتنة النساء، وقد وقع بكذبه هذا فيما هو أعظم من ذلك، قال تعالى ﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ ﴾ أي: أسقطوا أنفسهم في الإثم والمعصية والكفر، وذلك بسبب تخلفهم عن الغزوة، وبكذبهم على الله تعالى وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم، والتظاهر بالورع والخوف من الوقوع في فتنة نساء الروم.

وكلمة ﴿سَقَطُواْ ﴾ تدل على مفاجأة الوقوع في الفتنة التي كانت على خلاف ما أرادوا، وما أعدوا بتقليبهم الأمور، وتحصيلهم منها على العذر بالتورع من الوقوع في الفتنة، فلم ينتفعوا بشيء من كذبهم، ومن تقليبهم للأمر والتمعن فيه، بل فاجأهم الله تعالى بسقوطهم في الفتنة التي أرادوها لغيرهم، فكان الجزاء من جنس العمل، وأما جزاؤهم في الآخرة فهو جزاء الكافرين عموماً، بجهنم وسوء المصير. قال تعالى ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ فجهنم محدقة بهم، وقد أحاطت بالكافرين أجمعين من كل جانب، وفي هذا تصوير لحال جهنم ولحالهم الذي هو حال الكفار جميعاً، وفي هذا إثبات كفرهم واستحقاقهم لسوء العذاب.

ويستمر كشف الله تعالى لمكنون أنفسهم مما يضمرونه للنبي صلى الله عليه وسلم من الحقد والكراهية. فقال عَزَّ وجل ﴿ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ﴾ فإن يصيبك من الله تعالى ظفر ونصر وتحصيل غنيمة، يستاؤون ويتألمون من ذلك، وكلمة ﴿حَسَنَةٌ ﴾ تستجمع كل خير على أي وجه وحال كان، قليلاً كان أو كثيراً، وسواء في ذات النبي صلى الله عليه وسلم أو في دين الله تعالى الذي جاء به، مثل: انتشاره، وزيادة الداخلين فيه، أو من حصول الفتوحات والنصر والغنائم ﴿وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴾ وأما حال حصول هزيمة وشدة، مثل ما جرى في يوم أحد، فإنهم يفرحون بذلك، مع تَمَدّح وثناء لأنفسهم، ولآرائهم وما اتخذوه من النكوص عن المشاركة ﴿يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ ﴾ لقد احتطنا لأنفسنا، بالحذر واليقظة والحزم في الأمر، من قبل أن يقع القتال، فلم نخرج إلى الحرب، بما يفيد الغرور والاعتزاز والفرح بقعودهم وغرورهم، وتفسيرهم وتأويلهم لذلك بأنه محض الخير ﴿وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴾ فيتولون عن مجالسهم التي يتحدثون فيها بهذا الأمر وهم في غمرة من الفرح والسرور بما أصاب النبي صلى الله عليه وسلم، وما أصاب المؤمنين، وبسلامتهم من

[1] الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٩١/١١)

ذلك. مما يفيد أن من علامات المنافق الفرح على المسلمين فيما يصيبهم من مصيبة، وتعليل الخذلان بأنه الرأي والحزم والتحوط والفطنة.

ويتتابع البيان من الله تعالى عن إرادته عَزَّ وجل فيما يصيب نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، ليدركوا أن لله تعالى الحكمة البالغة فيما يحدث، وأن هناك أمران مهمان يلزم أن يعتقد المسلم به، الأول: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا ﴾ فلن يصيبنا إلا ما كتبه الله تعالى في اللوح المحفوظ. فما قضى الله تعالى به علينا هو الذي يكون، مما يفيد أنه لن يصيبنا في عاقبة أمرنا إلا ما كتب الله تعالى لنا من النصر الذي وعدنا به. فهو يشمل الاعتقاد الجازم بأن ما يصيب المؤمن من مصائب قد كتبها الله تعالى، فلم تكن ولن يكون الوقاية منها بالفرار عنها، وأن ما وعد الله تعالى به وكتبه، هو الذي سوف يتحقق.

والمعتقد الثاني: قوله تعالى ﴿ هُوَ مَوۡلَىٰنَا ﴾ فهو ناصرنا على أعدائنا. فهو بيان للمؤمنين عن اتخاذهم الله تعالى ناصراً ومؤيداً، بما يفيد الأمل والرجاء، الذي به لن يأتينا من الله تعالى إلا الذي فيه رفعتنا وعزتنا ومصلحتنا، فلن يكتب علينا إلا الخير وإن كان ظاهره غير ذلك. والثالث: لزوم التوكل ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ وفي هذا تفويض الأمر إليه سبحانه وتعالى، بالاعتماد عليه عَزَّ وجل في جلب الخير وطلبه، وفي دفع الشر والوقاية منه. وهذا المنهج الرباني يعطي ويُحدث في قلب المؤمن طمأنينة وأُنْسَاً في كل ما يجري عليه في شأنه وشأن غيره، فيأخذ بالأسباب، مع الاعتقاد أنها لن تؤثر إلا بأمر الله تعالى وتوفيقه، مما يلزم وجوب تحقيق التوكل عليه جَلَّ في علاه، وأنه لن يحصل إلا ما كتبه الله تعالى وقضاه، فيعيش المؤمن بتوكله مطمئن البال، ومنشرح الصدر.

ثم يُعَلِّمُ اللهُ تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بحال وواقع ما يصيبهم، ونتيجته، والمآل والمكاسب التي تتحقق لهم به ﴿ قُلۡ هَلۡ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِ ﴾ فقولوا لعدوكم أن حقيقة ما تنتظرونه من الشر لنا، هو محمول عندنا على تحصيل النصر أو الشهادة في سبيل الله تعالى. فالمكاسب متحققة على أي وجه كانت النتيجة. فهي إحدى العاقبتين المتصفتين بالحسن، إما النصر وإما الشهادة. وسماها الله تعالى بأجمل الأسماء وبعظيم الوصف للنتيجة ﴿ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِ ﴾ فإن النتيجة محمولة على ما نتمناه ونرجوه من الله تعالى أن يتحقق.

وورد بيان القول للعدو على صيغة سؤال، فهل تنتظرون لنا إلا النصر، أو الشهادة؟ فكلاهما موصوفتان بالحسن. فعاقبتهما على أحسن ما يمكن أن يكون، فالنصر غنيمة وتحقيق هدف ومصلحة، والقتل

شهادة لنا في سبيل الله تعالى، فيتحَصَّل الشهيد بها على ما أعده الله تعالى له من عظيم المنزلة، فليس لنا ما نخسره على الإطلاق. فما تنتظرونه لنا، وهو على خلاف ما تعتقدون وتضمرون.

ودلالة جملة ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ﴾ تفيد التوبيخ لهم، وتخطئتهم، وتخطئة ما يتربصون به، وتكذيب ما ينتظرونه ويأملونه من الشر. وأما نحن تجاهكم وتجاه ما نتربص لكم به، فهو قوله تعالى ﴿ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ﴾ فالفارق والبون واسع وشاسع بين ما تنتظرونه لنا، وما ننتظره لكم، فنحن ننتظر لكم أن يحقق الله تعالى لكم عذاباً من عنده مباشرة، بالموت أو الصواعق أو الهزيمة أو المسغبة والجوع والمرض والخوف والمصائب، أو بأي عذاب من عنده، أو يحل عليكم العذاب بأيدينا ﴿ أَوْ بِأَيْدِينَا ﴾ فيكون العذاب من عند الله تعالى على أيدينا، بأن يسلطنا عليكم فيحصل لكم منَّا القتل والأسر، والهزيمة، ونغنم أموالكم وحلالكم ﴿ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴾ فانتظروا، ونحن معكم منتظرين ما يقدره الله تعالى، وما يحل بنا ويحل بكم من قضائه عَزَّ وجل فينا جميعاً. وفي هذا ما يفيد التهديد والتخويف للعدو، ببيان الإصرار والقدرة على المجالدة والصبر حتى النصر أو الشهادة، كما يفيد التشجيع للمؤمنين بأن يبلوا بلاء حسناً.

وكلمة ﴿ فَتَرَبَّصُوٓاْ ﴾ تفيد عدم الاكتراث بتربصكم لنا، فإننا لا نهتم ولا نكترث بتربصكم وتحريكم لنا، لأن تحصيلنا من كل وجه هو أحد الحسنيين: النصر أو الشهادة. وتفيد ﴿ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴾ المزيد من التهكم بتربصهم وظنونهم السيئة، وكذلك قوة المناجزة لكم أيها العدو. وتفيد التوقع والتفاؤل والثقة بالله تعالى في النتيجة التي سيؤول الأمر إليها، وأيضاً في ذلك ما يحمل التهديد بالنتيجة الموثوق بها، وفي هذا تقوية لعزيمة المؤمنين. مما يفيد أهمية الأمل والرجاء في الله تعالى، وأهمية حُسن التوكل عليه عَزَّ في علاه، فإنه نعم المولى ونعم النصير.

﴿ قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ

مُدَّخَلًا لَّوَلَّوۡاْ إِلَيۡهِ وَهُمۡ يَجۡمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنۡهُم مَّن يَلۡمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنۡ أُعۡطُواْ مِنۡهَا رَضُواْ وَإِن لَّمۡ يُعۡطَوۡاْ مِنۡهَآ إِذَا هُمۡ يَسۡخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤۡتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٦٠﴾ ﴾

يوجه الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يخاطب الذين قعدوا عن غزوة تبوك بهذا البيان العظيم ﴿ قُلۡ أَنفِقُواْ طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمۡ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴾ يا أيها النبي قل لهؤلاء المنافقين: أنفقوا أموالكم كيف شئتم، في سفركم هذا وفي غيره، وعلى أي حال شئتم من النفقة، بطوعكم أو مُكرَهين على ذلك، فإن الله تعالى لن يتقبل منكم ما أنفقتم، وأن علة ذلك هو فسقكم ﴿إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴾ أي: كنتم قوماً كافرين، خارجين عن الدين بخروجكم عن الامتثال لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم، فإنكم قد خرجتم عن الإيمان بربكم تبارك وتعالى، وذلك لما في قلوبهم من الشك والريبة في دين الله تعالى. مما يفيد أن الله تعالى لا يقبل من العبد نفقته ما لم يكن مسلماً مستسلماً لله تعالى، وأن المنافق قد ينفق طواعية لتحقيق مصلحة، وقد يبادر بها لتحقيق منفعة، أو ليصد بها مكروهاً يتوقعه، وقد ينفق نفقته وهو كاره، لما يخافه ويهابه من كشف أمر امتناعه، بعدم مشاركته. فاستوفى البيان أوجه النفقة ﴿طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا ﴾ على اختلاف أحوالها ودواعيها، مع بيان علة عدم القبول، وهو الفسق ﴿لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمۡ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴾ والذي يعني الخروج، ومنه الخروج عن الحق والدين، ولوازم الإيمان، من التصديق والإقرار بالله رباً، وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسولاً ونبياً، وبالإسلام ديناً، وبالبعث بعد الموت، والحساب والجزاء، والجنة والنار.

ويخبر الله تعالى بالمزيد من البيان عن علة عدم قبول نفقاتهم ﴿ وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ﴾ فأول تلك الموانع لقبول نفقاتهم ﴿كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ ﴾ والثاني: علامة ظاهرة، وهي أهم أركان الإسلام ﴿وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ ﴾ لا يأتونها إلا وهم

متثاقلون بها، لأنهم لا يرجون بأدائها ثواباً من عند الله تعالى، ولا يخافون بتركها عقاباً، فإن إتيانهم للصلاة هو لخوفهم من افتضاح أمرهم عند المؤمنين، بأن يُفْتَضَح شأنهم، فإذا حصل لهم الأمان لا يأتون إليها، ولا يؤدونها. فعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: إن كان في جماعة صلى، وإن انفرد لم يصل، وهو الذي لا يرجو على الصلاة ثواباً، ولا يخشى في تركها عقاباً[١] والسبب الثالث: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴾ ولا ينفقون نفقتهم التي يدفعونها في الأوجه التي ينفقونها فيها إلا ونفوسهم مُكْرَهة بها، خوفاً من كشف أمرهم، ولدفع شر يخافون أن يصل إليهم بامتناعهم، فيتقون بها ما يخافون نتيجته، ولذلك فإنهم مُكرهين على ما يدفعون، وليس بطيب خاطر.

ثم يبين الله سبحانه وتعالى واقع أموالهم وأولادهم، لئلا يغتر أحد بها، وقد ورد البيان بأسلوب النهي عن الإعجاب بها ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ فلا تستحسن ما أنعمنا به عليهم من الأموال والأولاد مع كفرهم ونفاقهم، فإن لها عند الله تعالى مغزى آخر، مما يفيد أن لا يربط المؤمن بين عطاء الله تعالى ورضاه عن من أعطاه عَزَّ وجل، فإن عطاء الله تعالى لحكمة وعلة هو أعلم بها، ومنها قوله تعالى ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ ولهذا النص الكريم أربعة أوجه، تستوفي دلالاتها جميع أنواع العذاب الذي يلحقهم بها من الله تعالى، فالوجه الأول: إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الآخرة، والوجه الثاني: ليعذبهم بها في الدنيا بالمصائب في الأموال والأولاد، فهي لهم عذاب، وللمؤمنين أجر. والوجه الثالث: ليعذبهم بأخذ الزكاة من أموالهم، والنفقة في سبيل الله تعالى، والرابع: ليعذبهم بسبي أولادهم وغنيمة أموالهم، وعلى هذا تكون في المشركين[٢] أي الوجه الرابع. فاستوفت تلك الأوجه العذاب الدنيوي، بما يصيبهم في الدنيا من المكاره الذي لا أجر لهم فيه: سواء في الأموال أو الأولاد، أو ما يُلزَمُون به من الزكاة، ومن النفقة في سبيل الله تعالى وهم كارهون لذلك. وأما في الاخرة فما سيكونون عليه من العذاب، وتكون أموالهم وأولادهم مصدر عذاب عليهم، وهذا من سوء نفوسهم، وسوء أعمالهم. وقد جاء السياق الكريم في جزالة من البيان، وعظمة في بلاغته، إذ استوفى بقليل ألفاظه جميع المعاني والدلالات.

ثم يذكر الله تعالى ما ينالهم من سوء الخاتمة ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ فيموتون على كفرهم بالله تعالى وجحودهم نبوة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، فما استفادوا من هذا الدين، ولا اطمأنت

(١) القرطبي، لجامع لأحكام القرآن (١٠٤/٨)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣٠٧/٣)

نفوسهم به، ولا سعدوا بأموالهم وأولادهم في الدنيا، وأن مصيرهم إلى العذاب في الاخرة، والذي هو عقاب ومأوى كل كافر.

ثم يخبر الله تعالى بحقيقة منهجهم في التعامل، لينكشف بذلك بهتانهم وكذبهم ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴾ فيحلفون بالله تعالى أنهم مؤمنون، وأنهم جزء منكم أيها المؤمنون. ولكن الله تعالى ينفي حقيقة ذلك ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ ﴾ لينكشف سترهم للمؤمنين، فليسوا منكم، ولا من أهل دينكم وملتكم، بل يكذبون عليكم، لأنهم يخافونكم ﴿وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴾ أي: يخافون، فهم يخافون منكم القتل، وما يُفعل بالمشركين، فيتظاهرون بالإسلام تقية منكم، ولذلك يُظهرون الايمان، ويقولون إنهم منكم، وما هم منكم، مما يدل على أنهم لو وجدوا فرصة لقلبوا ظاهر الموافقة والملاينة إلى العداء الظاهر البائن، مما يفيد الحذر والوقاية من أهل النفاق في كل زمان ومكان، وأن لا ينخدع المؤمن بالظاهر، بل عليه التثبت والتأكد. حتى لا ينخدع بخداع الخادعين المخادعين.

بل من شدة عداوتهم هو ما أخبر الله تعالى به عنهم، من أنهم ﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ فمن شدة كرههم وبغضهم وحقدهم أن لو حصلوا على مكان حصين لهم وهو ﴿مَلْجَـًٔا ﴾ أو وجدوا مكاناً يستترون فيه، التي هي المغارات التي في الجبال ﴿أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ ﴾ لأن المغارة يغور فيها الإنسان فيختفي فيها عن الأنظار ﴿أَوْ مُدَّخَلًا ﴾ أو وجدوا قوماً يدخلون في جملتهم، أو سرباً أو نفقاً في الأرض، فإنهم لو وجدوا واحداً من تلك الموانع التي يرون أنها تمنعهم منكم لفروا إليها جرياً ﴿لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ لذهبوا إليها هاربين منكم، ومسرعين في توليهم عنكم إليها، دون أن يردهم شيء عنها، وتفيد دلالة ﴿يَجْمَحُونَ ﴾ على السرعة التي لا يردهم عنها أحد، ولا يستطيع أن يضبطهم أحد، لسرعة وقوة تفلّتهم. وهذا يدل على شدة العداوة والبغضاء، وأن الذي جعلهم يُظهرون لكم الايمان ويبطنون الكفر هو عدم وجود ما يتمنعون ويتحصنون به عنكم، ويفرون إليه منكم. فإن محبتهم للفرار من المؤمنين بتلك الصورة هو دليل على كرههم لهذا لدين. ودلالة ﴿يَجْمَحُونَ ﴾ استجمعت الصورة النفسية والحسية لهم، وكذلك الحال التي يكونون عليها بأدق التفاصيل، مما يدل على الإعجاز البياني لألفاظ القرآن الكريم، ودقة تصويره للحال بأوجز الألفاظ، وأبلغ الكلام وأحسنه وأجمله، فسبحان من أعجز ببيانه عباده.

ويخبر الله تعالى عن حالهم مع النبي صلى الله عليه وسلم فيما يقرره عَزَّ وجل ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ فمن المنافقين من يلصق العيب بك سراً، ويطعن فيك بخصوص الصدقات، مما يفيد أنهم يطعنون في أمانته صلى الله عليه وسلم سراً بينهم، ويتأولون تصرفاته عليه الصلاة والسلام، ويحملونها على محمل التنقص والعيب ﴿ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ فطعنهم مخصوص فيما يخص حظوظ أنفسهم، فإن أعطيتهم منها ما يرضيهم رضوا عنك، وإن لم تعطيهم ما يتطلعون إليه سخطوا عليك، وطعنوا فيك، مما يفيد أن محبتهم لأنفسهم جعلتهم ينظرون بالعين التي اقتصرت على ذواتهم، دون النظر في عدالته صلى الله عليه وسلم. وهذا سوء تصور، وسوء طمع وإجحاف، وسوء اعتقاد في النبي صلى الله عليه وسلم، وبغض له باغتيابه ورميه بما ليس فيه. وفي ذلك فائدة جليلة، بأن على المسلم ألا ينظر إلى الأمور من خلال مصلحته الذاتية، دون النظر إلى ما يحيط بالأمر من الأوجه الأخرى، حتى لا يجحف في حق غيره.

ثم يخبر الله تعالى بما كان يجب عليهم ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾ فإن المنهج الذي يدل على الإيمان هو الذي يقوم على الركائز التي بينها الله تعالى، وأولها: الرضا ﴿ رَضُواْ ﴾ فاقتنعوا بما آتاهم الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم. والركيزة الثانية: ﴿ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ ﴾ أي: اكتفينا بالله تعالى، والثالثة: ﴿ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ ﴾ أي: سيعطينا الله تعالى من فضل خزائنه، وسيعطينا رسوله صلى الله عليه وسلم من الصدقات وغيرها، والركيزة الرابعة: أن يقولوا ﴿ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾ إنا إلى الله تعالى راغبون بأن يوسع علينا في أرزاقنا، ويغنينا من واسع فضله عن الصدقات. فتلك هي المنهجية والأدب الذي يلزم المؤمن أن يتعامل به في ذلك وفي مثله، لتكون قاعدة عامة في حياة المؤمن.

ويخبر الله تعالى عن مواطن وضع الصدقات ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ حدد الله تعالى الذين يُعْطَون الصدقات في ثمانية أجناس، مما يدل على أن المقصود بالصدقات في هذا السياق هي الزكاة الواجبة، لأن الصدقات العامة تشمل هؤلاء الثمانية وغيرهم، وأن أداة الحصر ﴿ إِنَّمَا ﴾ تفيد حصر وتخصيص العطاء من الزكاة لهؤلاء الثمانية فقط، ولا تُنفق في غير هؤلاء الثمانية. وهذا من دقة بيان التخصيص، ومن دقة حكمته عَزَّ وجل في تخصيصهم دون

غيرهم، لما لهم من الحاجة في أموال غيرهم. وجاء ترتيب الثمانية بحرف العطف، وهو الواو، الذي يفيد المشاركة بين المعطوف والمعطوف عليه في الحكم، ولم يأت الترتيب بحرف ثم، الذي يفيد لزوم الترتيب، فأوضح السياق من تعاقب ذكرهم ما يفيد الأولوية، دون لزوم ووجوب ترتيبهم، ليكونوا سواء في حكم التنقل بين هذه الأصناف الثمانية، فأعطى الحكم مساحة واسعة للمزكي أو لمن يتولى قسمتها في اختيار الْمُعْطَى لهم من هؤلاء الثمانية، ليتيح له الاختيار بما يراه مناسباً من الأصناف الثمانية. وهذا من غزارة الحكمة في المعالجة وفي الحكم والتوجيه له. وقد ذكر ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: أن له أن يُعطي جميع ذلك من شاء من الأصناف الثمانية، فقال عامة أهل العلم: للمتولي قسمتها ووضعها في أي الأصناف الثمانية شاء، وإنما سمى الله الأصناف الثمانية في الآية إعلاماً منه لخلقه أن الصدقة لا تخرج عن هذه الأصناف الثمانية إلى غيرها[١]

وبالرغم من أن مضمون هذه الآية هو حكم قائم بذاته، وخاص بتخصيص وتعيين أهل الزكاة المستحقين لها، إلا أن في ورودها في هذا الموقع من الآيات التي تعالج وتبين حال وواقع المنافقين ما يوضح أنها تحمل إجابة على طمع المنافقين الذين طمعوا ويطمعون في الحصول على الصدقات ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ فَحَكَمَ اللهُ تعالى في شأن الصدقات: أنها ليست لكم أيها الطامعون فيها، وليس لكم حق فيها، وإنما هي للأصناف الثمانية المخصوصة بالذكر والتعيين. فليس للذين لمزوا في الصدقات حظ فيها ولا نصيب، وفي ذلك قطع لتطلعهم وتشوفهم لها، لعلهم يقلعون عن اللمز الذي يخوضون فيه. وهذا من الإعجاز العلاجي لما كان يحدث في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، وفي نفس الوقت هو حكم افترضه الله تعالى، فعالج به واقعاً يخص الذين يلمزون في الصدقات، وعالج حال الثمانية الأصناف في كل وقت وزمان ومكان إلى أن يُفْنِي الله عَزَّ وجل الأرض ومن عليها. فسبحان من أعجز بآياته وأحكامه وبلاغة بيانه جميع عباده.

وأول هؤلاء الثمانية: الفقير ﴿لِلْفُقَرَآءِ ﴾ وصفة الفقير كما قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى، هو: ذو الفقر والحاجة، ومع حاجته فهو يتعفف عن مسألة الناس، وعن التذلل لهم، وثاني الثمانية ﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ ﴾ وهو المحتاج المتذلل للناس بمسألتهم[٢] فصفة الفقير أنه متعفف عن السؤال مع حاجته، والمسكين يسأل الناس لسد حاجته، وبه قال ابن عباس رضي الله عنهما، والحسن، ومجاهد، وجابر بن زيد، والزهري، والحكم وبن زيد ومقاتل[٣] وقيل أن الفقير هو الذي لا يستطيع التكسب، والمسكين الصحيح في

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٣١/١١)
(٢) المرجع السابق (٥١٤/١١)
(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣٠٩/٣)

بدنه، ولكن كسبه لا يسد حاجته، وذكر السعدي رحمه الله تعالى: أن الفقير أشد حاجة من المسكين، لأن الله تعالى بدأ به، فالفقير الذي لا يجد شيئاً، أو يجد بعض كفايته دون نصفها. والمسكين الذي يجد نصفها فأكثر، ولا يجد تمام كفايته[1] والفقير أمس حاجة من المسكين، وهذا مذهب أحمد، لأن الفقير مأخوذ من انكسار الفَقار، وأما المسكنة فمأخوذة من السكون والخشوع، وذلك أبلغ. والمسكين أحسن حالاً من الفقير، لأن الفقير أصله في اللغة: المفقود الذي نزعت فقرة من فِقَرِ ظهره، فكأنما انقطع ظهره من شدة الفقر[2] وفي توصيف كل صنف بصفته المميزة له ما يدل على أهمية الوصف ودقته، وأن له هدف وغاية، منها التفطن لأحوال الناس، والتدقيق فيها من أجل إعانتهم، مع ترتيب الأولويات في العطاء وفق ما يراه من يتولى قسمتها، أي دافع الزكاة، مما يدل على دقة منهج الله تعالى في الأحكام، مع الدقة المتناهية في تحرير الوصف والبيان.

والصنف الثالث: ﴿وَٱلْعَـٰمِلِينَ عَلَيْهَا﴾ وهم جُباتها، الذين يعملون في شأن الزكاة، بقبضها وجمعها، وإعطائها لمستحقيها، فَيُعطون منها، وذلك لقاء سعيهم الذي قاموا به، من: الجباية، والكتابة والتدوين، والتوزيع، فهي أجرة لقاء ما قاموا به من عمل. مما يبين عناية المنهج الإسلامي بالأجير، وبما يحقق استمرارية العمل على تحصيل الزكاة، والقيام بأمرها، فإعطاء الأجير أجره، لقاء سعيه، وجهده الذي قام ببذله، وما استقطعه من وقته، وفي هذا النهج ما يجعل القيام بها مستمر لا ينقطع بتغير أحوال الناس، لما فيها من تحقيق مصلحة الساعي، والمأخوذ منه، والْمُعْطى من الزكاة.

والصنف الرابع: ﴿وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ وهم من يُرجى إسلامه بهذا العطاء من الزكاة، وذلك بقصد تأليف قلبه وتحبيبه للإسلام، وقد يكون لدفع شره. وجملة ﴿وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ تدل أن قلوبهم تميل وتقبل التآلف، وأن العطاء المالي والمادي يجذب ويلين القلوب، ويكسر من حدتها، بما يفيد أن الإسلام منهج قائم على جلب الناس للدين حتى بدفع المال لهم، وأنه يراعي الطبائع البشرية، ويجعل لمقام القلب وأحواله منفذ للخير، فليس بدين قمع، ولا شدة ولا تشدد، وليس فيه كسر للنفوس، بل يألفها ويتألفها مؤالفة. مما يفيد في المجال الدعوي أهمية الإفادة من هذا النهج الإسلامي العظيم.

ومن عظيم أهداف الإسلام ما نقله ابن الجوزي رحمه الله تعالى عَمَّا كان يصنعه رسول الله صلى الله عليه وسلم مع المؤلفة قلوبهم: فهم قوم كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتألفهم على الإسلام بما يعطيهم، وكانوا ذو شرف، وهما صنفان: مسلمون، وكافرون. فأما المسلمون فصنفان؛ فصنف كانت نياتهم في الإسلام ضعيفة، فَتَأَلَّفَهُم، تقوية لنياتهم، وصنف كانت نياتهم حسنة، فَأُعْطُوا تألفاً لعشائرهم من المشركين. وأما المشركون،

---

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٢/٢٥٨)

(2) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣/٣٠٩-٣١٠)

فصنفان: صنف يقصدون المسلمين بالأذى، فتألفهم دفعاً لأذاهم، وصنف كان لهم ميل إلى الإسلام، تألفهم بالعطية ليؤمنوا[١] وفي هذا فقه عظيم في منهجية التعامل مع الآخرين في هذا الباب وفي غيره مما يقاس عليه من التعامل.

والصنف الخامس ﴿ وَفِي ٱلرِّقَابِ ﴾ وهم الذين يسعون إلى عتق أنفسهم من الرق، قال ابن سعدي رحمه الله تعالى: وهم المكاتبون الذين قد اشتروا أنفسهم من سادتهم، فهم يسعون فيما يفك رقابهم، فيعانون على ذلك من الزكاة. وفك الرقبة المسلمة التي في حبس الكفار، داخل في هذا، بل أولى. ويدخل في هذا: أنه يجوز أن يعتق الرقاب استقلالاً، لدخوله في قوله تعالى ﴿ وَفِي ٱلرِّقَابِ ﴾

والصنف السادس ﴿ وَٱلْغَـٰرِمِينَ ﴾ وهم صنفان: أحدهما: الغارمون لإصلاح ذات البين، والثاني: من غرم لنفسه، ثم أعسر، فإنه يُعطى ما يوفي به دينه[٢] فهم الذين لزمهم الدين، ولا يجدون القضاء.

والصنف السابع ﴿ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ هم الغزاة المرابطون، يُعطون من الصدقة ما ينفقون في غزوهم ومرابطتهم، وإن كانوا أغنياء، وهذا قول أكثر العلماء[٣]

والصنف الثامن ﴿ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ هو المسافر الذي انقطع به الطريق، وإن كان له مال في بلده.

ثم يخبر الله تعالى بأنه قد أوجب عليكم ذلك ﴿ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ فقد فرضه الله تعالى عليكم، مما يفيد الوجوب، بأنه يجب إخراج الزكاة، وصرفها في هؤلاء الثمانية، وفي هذا التنصيص من الله تعالى بأنها فريضة منه عَزَّ وجل، تعظيماً لشأنها، وتأكيداً بوجوبها فيمن تجب عليه الزكاة، ووجوب إنفاقها في تلك الأصناف الثمانية، ثم قال تعالى ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ فهو عليم بكم، وبأحوالكم، وبالمنهج الذي يصلح لكم، وعليم بما تملكون، وبما تستطيعون، وبما تنفقون، فلا تخفى عليه منكم خافية، ليفيد التشجيع على العطاء والبذل، وكذلك يفيد التحذير من عدم الوفاء والالتزام بما فرض الله تعالى عليكم، وأن من أسمائه وصفاته عَزَّ وجل أنه ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فهو حكيم في تدبيره، وتشريعه، وحُكْمِه، فلا يخرج ما افترضه عن الحكمة التي يصل بها إلى تحقيق الحق والخير. ولا شك ولا ريب أن في الزكاة كمال الحكمة، وكمال الرحمة، وكمال العناية، بما يحقق

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣/٣١٠)
(٢) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٢/٢٥٨)
(٣) الشوكاني، فتح القدير (٢/٣٧٣)

التآلف والتواصل، ورفع الضر وتحقيق الخير للمعطي بما يعطيه الله تعالى له، وللمُعْطَى بما أوجبه له في مال غيره من الحق الواجب، من غير مِنَّة ولا فضل عليه ممن أعطاه. وفيه سد لحاجات الناس فيما بينهم، مع دفعهم للخير والمبادرة إليه، وكذلك تأليف قلوب الغير على هذا الدين، مما يفيد أن نهج الإسلام هو نهج سلم وسلام وسلامة ومحبة، وتحبيب من غير تنفير.

﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ
لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦١) يَحْلِفُونَ
بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ (٦٢) أَلَمْ
يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ
ٱلْعَظِيمُ (٦٣) يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟
إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ (٦٤) وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ
قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ (٦٥) لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ إِن
نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ (٦٦) ﴾

يتواصل السياق الكريم في كشف حال وأخلاق المنافقين ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ﴾ بدأت الآية الكريمة بما يفيد أن بعض المنافقين وليس جميعهم، يصدر منهم الإضرار بالنبي صلى الله عليه وسلم، وهذا من عدل الإسلام في الوصف، إذ لم ينعتهم جميعاً بإيذاء النبي عليه الصلاة والسلام، بما يُعلّم المؤمنَ منهج التحرز عند الوصف من التعميم، ما لم يشمل الوصف جميع الموصوفين. وقد بدأ السياق الكريم بما يشد الانتباه ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ ﴾ ليشتد الانتباه نحو معرفة نوع هذا الأذى، وفي هذا تشنيع لهم ولأذاهم، وذلك بإظهار منزلته صلى الله عليه وسلم بذكر نبوته ﴿يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ ﴾ فقد تعدوا وتجاوزوا مكانته ومقامه صلى الله عليه وسلم. فإن من هؤلاء المنافقين جماعة يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم بما لا يليق به من الوصف ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ﴾ أي: يقبل من كل أحد ما يقوله له، دون تمحيص، فيصدقه، وبناء على تقريرهم هذا قالوا: نقول ما شئنا، ثم نأتيه فنحلف له فيصدقنا، فنزلت هذه الآية الكريمة، كما ذكر ابن جرير رحمه الله تعالى: أنها نزلت في نبتل بن الحارث، وذلك أنه قال: إنما محمد أُذُن،

مَنْ حدَّثَه شيئاً صدقه[1] فكشفت هذه الآية حالهم، وتأويلهم لِحُسن تعامله وشمائله صلى الله عليه وسلم إلى وصف السوء، فنقلوا خيره إلى ما لا يليق بكريم سجاياه عليه الصلاة والسلام.

فيرد الله تعالى عليهم ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ فهو يسمع الخير ويصدقه، ويقبل أعذاركم، ولا يُشَنِّع عليكم، فإنه إذا سمع الشر عالجه بالخير. فنص هذا الوصف من الله تعالى على إثبات الخير منه عليه الصلاة والسلام، ونفي الشر عنه صلى الله عليه وسلم ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ فاشتمل على الإثبات، الذي ينتفي به كل صفة من أوصاف الشر عنه صلى الله عليه وسلم، فهو يسمع منكم، ويسمع عنكم ولا يؤاخذكم، ويقبل منكم أعذاركم، فكان خيراً لكم إذ لم يشنع عليكم ولم يعاقبكم. وبما يفيد تواضعه لكم، ومؤانسته لكم، وأنه لم يكشف سر نفاقكم للمؤمنين، فستر عليكم، فهو أذن خير لكم، وإذا كان هو أذن خير لكم مع نفاقكم، فهو أذن خير لمن هم خير منكم، وهم المؤمنون، فلا يأتيكم منه عليه الصلاة والسلام إلا الخير، فهو حكيم في معالجة ما يأتي من الشر، إذ يعالجه بما يسلك بكم مسلك الخير. مما يبين أن من الناس من يتأول الخير شراً، والحكمة ضعفاً.

ومن جميل البيان أن الله تعالى رد عليهم بنفس سياقهم، وذلك بقلب صفة الذم إلى المدح، فقد قالوا ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾ فرد الله تعالى عليهم ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ تأكيداً بنفس صفة السماع لمن يحدثه ويصغي إليه إكراماً وحفاوة، حتى يقول المتحدث ما عنده دون تردد ولا تلعثم. ومن مزيد كريم أخلاقه صلى الله عليه وسلم أنه خير لمن يسمع منه ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ فهو مصدر خير لكم صلى الله عليه وسلم، فإما أنه عليه الصلاة والسلام يوجه وينصح لكم، أو يحذركم، أو يعطيكم، أو يصد عنكم أذى، أو غير ذلك من أوجه الخير، فلا يخرج المتحدث من عنده صلى الله عليه وسلم إلا وهو في خير.

وكذلك من لطائف الأسلوب فوائده العظيمة أن المأمور بالرد عليهم هو النبي صلى الله عليه وسلم ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ أي: قل لهم يا أيها النبي ﴿أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ فيخبرهم عن نفسه بما زكاه الله تعالى به، فلا يحدثهم ويخبرهم عن نفسه بنفسه، بل يخبرهم عن الله تعالى فيما قاله ربه عنه تبارك وتعالى، بما يفيد أن حقيقة أخلاقه عليه الصلاة والسلام عالية التزكية، وهو علو ليس بعده علو، وفي هذا دليل على رفعة منزلته صلى الله عليه وسلم عند ربه تبارك وتعالى. وفي ذلك إثبات الخير له صلى الله عليه وسلم من ربه عَزَّ وجل، وبما يعني نفي ما هو ضده من السوء والشر، فهو غاية التنزيه له من رب العالمين.

---

[1] الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٣٥/١١)

وكلمة أذن، هي آلة السمع، وهي كناية عَمَّن يسمع كل شيء، ويقبل قول كل أحد، دون تمحيص ولا تدقيق. فعليه الصلاة والسلام أذن في الخير والحق والصواب، وليس أذنٌ في الشر والباطل.

ثم أوضح وفسر سبحانه وتعالى ذلك الخير الذي هو ﴿أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ بالمزيد من التفصيل البليغ، فقال عَزَّ وجل ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ﴾ أي: يُصَدِّقُ بالله تعالى، ويُصَدِّق المؤمنين بما يخبرونه به، وكذلك رحمة للمؤمنين، لما يهديهم به وإليه من الحق، ويرشدهم ويدلهم على الخير، ويبين لهم الشر ويحذرهم منه، فيكون رحمة لهم، وقد خص الله تعالى أهل المذمة والتقصير بجميل تعامله صلى الله عليه وسلم مع من آمن منهم ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ﴾ قال الزمخشري رحمه الله تعالى: وهو رحمة لمن آمن منكم، أي أظهر الإيمان أيها المنافقون، حيث يسمع منكم، ويقبل إيمانكم الظاهر، ولا يكشف أسراركم، ولا يفضحكم، ولا يفعل بكم ما يفعل بالمشركين[١] مما يفيد أن الذين لم يؤمنوا به قد هجروا وتركوا الرحمة والهدى والحق، وسلكوا مسلك الضلال.

ثم يبين الله تعالى جزاء من يتجرأ ويؤذي رسوله صلى الله عليه وسلم ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فإن جزاء الذين يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم عذاب شديد، وأن هذا العذاب موصوف بالأليم، الذي يتألم من شدته من يناله ذلك العذاب، وسواء كان الأذى بالقول أو الفعل. فقد جاء الأذى عاماً ﴿يُؤْذُونَ﴾ ليشمل جميع أنواعه وحالاته ومصدره ممن قام به. مما يدل على مقامه صلى الله عليه وسلم ورفعة منزلته وشأنه عليه الصلاة والسلام عند ربه تبارك وتعالى، إذ توعد من يؤذيه بالعذاب الأليم. اللهم صل وسلم على نبينا محمد. اللهم اجعلنا ممن يحبك ويحب نبيك ويدافع ويناضل عنه.

ثم يكشف الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين خداع وكذب المنافقين ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾ فيقسمون الأيمان العظيمة بالله تعالى، وهم يكذبون ويَفْجُرُون في أيمانهم، وغير صادقين ولا محقين فيها، من أجل تبرئة أنفسهم مما قالوا وفعلوا، وسواء فيما هو متعلق بنعتهم للنبي صلى الله عليه وسلم بأنه أذن، أو غيره من سيء الأقوال والأفعال، أو ما كان متعلقاً باعتذارهم كذباً عن غزوة تبوك. وكل هذه الأيمان بهدف إرضائكم حتى ترضوا عنهم، فلا تشنعوا عليهم، ولا تمقتوهم، فحتى مطلبهم لرضاكم هو من أجل مصلحتهم، وليس حباً فيكم. مما يدل على قوة التناقض الداخلي في نفوسهم، فَيُظهرون خلاف ما يتكتمون عليه، وخلاف ما يصرحون به بينهم، ثم لا يبالون بمنزلة وقدر الأيمان، فيحلفون بالله تعالى كذباً

---

(١) الزمخشري، الكشاف (٢٨١/٢)

وزورا، مما يعني تجرؤهم على الله تعالى، وعدم تخوفهم من مغبة ذلك. وأن إرضاء المؤمنين عندهم أولى من إرضاء الله تعالى وإرضاء رسوله صلى الله عليه وسلم، وكان الأولى بهم أن يسعوا فيما يرضي الله تعالى ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾ فشرط صدق إيمانهم هو السعي في إرضاء الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم لو كانوا مؤمنين حقيقة، مما يفيد أن فعلهم وقولهم مناقض للإيمان ولحقيقة ما في قلوبهم، ولا يتحقق به الإيمان. وفي هذا تحذير لهم من غضب الله تعالى وسخطه عليهم، وتعليم للمؤمنين ولغيرهم بأن حقيقة الإيمان هي السعي في إرضاء الله تعالى، وإرضاء رسوله صلى الله عليه وسلم.

ومن دقائق ولطائف السياق الكريم أن كلمة ﴿يُرۡضُوهُ ﴾ وردت مفردة، وهي متعلقة بإرضاء الله تعالى، وإرضاء الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾ وذلك لاتفاق النتيجة والمحصلة، فإفرادها لقوة اتحادها ووحدتها. فإرضاء الله تعالى يلزم منه إرضاء رسوله صلى الله عليه وسلم، وإرضاء الرسول صلى الله عليه وسلم هو من إرضاء الله تعالى، فهما أمران متلازمان غير منفصلان، فلا تفاوت بينهما، كما قال تعالى في سورة النساء ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ٨٠﴾ وفي هذا تأكيد وتدليل على أن مرضاة الله تعالى تستوجب إرضاء رسوله صلى الله عليه وسلم. وهذا من جمال وكمال السياق ودقته بتوحيد الرضا، فليس هناك رضا منفرداً به النبي صلى الله عليه وسلم عن رضا الله تعالى. وفيه دليل عميق لرفعة منزلة النبي صلى الله عليه وسلم عند ربه تبارك وتعالى.

ثم يوبخ الله تعالى صنيعهم بسؤال تقريري لما يعرفون من الحق، واستنكاراً لتجاهلهم عما يعرفون من عقوبة ذلك ﴿ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدٗا فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡخِزۡيُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ وجملة ﴿ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ ﴾ سؤال استنكار وتوبيخ لتجاهلهم ما يعلمون عن عقوبة فعلهم هذا. بما تفيد أن فعلهم هذا كفعل من يجهل العقوبة والتي قد تقررت عندهم من شريعة الله تعالى التي يتلقونها من رسوله صلى الله عليه وسلم. وفي هذا أمران: الأول: بيان علمهم بالعقوبة مع تعمدهم، فكأنهم ليسوا بخائفين ولا مؤمنين بها، والثاني: تشنيع لفعلهم، وتحذير منه عَزَّ وجل. فإن احتمال عدم علمهم بالعقوبة مستبعد، وأن رفع الجهل عنهم بها مستبعد كذلك.

والمحادة هي: المخالفة والمناوأة والمشاقة، وهي تعني وقوفهم في الطرف المضاد لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم، فهم مبتعدون عن الله تعالى وعن رسوله صلى الله عليه وسلم بجرأتهم على محارم الله عَزَّ

وجل، وتهاونهم بأوامره جَلَّ في علاه. فإن عقوبة ذلك نار جهنم، وما يلحقهم من الخزي والعار الموصوف بالعظمة في أثره ووقعه عليهم ﴿أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡخِزۡيُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ فعقوبة المحادة لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم هو الخلود في النار، وهو الذل والهوان الذي لا أخزى ولا أفظع منه من شدته وقوته، وبما فاتهم في المقابل من نعيم الجنان المقيم.

ويكشف الله تعالى ما يدور في خلجات المنافقين التي لا يعلمها إلا الله تعالى ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيۡهِمۡ سُورَةٞ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمۡ﴾ فهم في خوف وخشية من أن تنزل فيهم سورة تُظهر وتكشف للمؤمنين ما في بواطن قلوبهم من الخبث، فيرد الله تعالى عليهم بمخاطبة رسوله صلى الله عليه وسلم ﴿قُلِ ٱسۡتَهۡزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخۡرِجٞ مَّا تَحۡذَرُونَ﴾ فقل لهم أيها النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ٱسۡتَهۡزِءُوٓاْ﴾ أي: استمروا فيما أنتم فيه من الاستهزاء، وهذا على سبيل الوعيد والتهديد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُخۡرِجٞ مَّا تَحۡذَرُونَ﴾ فإن الله تبارك وتعالى مُظهر ومُبين وكاشف الذي تحذرون كشفه وبيانه، وتتخوفون من إظهاره، مما تخفونه في قلوبكم، وما تُسرُّون به بينكم. فكانت هذه السورة فاضحة لهم، وكاشفة لحقيقتهم، ومبينة لعوارهم. فهي سورة: الفاضحة، لأنها فضحة المنافقين، وسورة: المبعثرة، لأنها بعثرة أخبار الناس، وكشفت عن سرائرهم، وسورة: المثيرة، لأنها أثارت مخازي المنافقين ومثالبهم، وسورة: الحافرة، لأنها حفرة عن قلوب المنافقين[١] وسميت سورة: المقشقشة لأنها تقشقش من النفاق، أي تبرئ منه[٢].وفي هذا إعجاز وآية من آيات الله تعالى، ودليل من دلائل نبوته عليه الصلاة والسلام، إذ أن الإنسان لا يعلم هذه الخفايا من تلقاء نفسه.

ثم يبين الله تعالى ما يقولون عند سؤال النبي صلى الله عليه وسلم لهم ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُمۡ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلۡعَبُ﴾ فعند المواجهة لهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا ينكرون ذلك، ولكن يخادعون بأن مرادهم مما قالوا اللعب واللهو بالحديث والاستجمام، وليس حقيقة الكلام ومعناه، فقد كانوا يطعنون في دين الله تعالى، وفي رسوله صلى الله عليه وسلم، ويستهزئون بالمؤمنين، ومما كانوا يقولون، كما جاء عن قتادة رضي الله تعالى عنه: أنه بينما النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك، ورَكْبٌ من المنافقين يسيرون بين يديه، فقالوا: يظن هذا أن يفتح قصور الروم، وحصونها! فأطلع الله تعالى

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣/٢٦٤-٢٦٥)

(٢) الزمخشري، الكشاف (٢/٢٣٧)

نبيه صلى الله عليه وسلم على ما قالوا، فقال: (عليَّ بهؤلاء النَّفَر) فدعاهم فقال: (قلتم كذا وكذا) فحلفوا: ما كنا إلا نخوض ونلعب[١]

فيرد الله تعالى عليهم، بأنه لم يكن كذلك الأمر والشأن، لأن اللعب والاستجام لا يمكن أن يصدر في آياته سبحانه وتعالى وفي رسوله صلى الله عليه وسلم ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ سؤال استنكار، يفيد التوبيخ والتقريع لهم، أيمكن أن يكون اللهو واللعب بآيات الله تعالى وبرسوله صلى الله عليه وسلم؟ والجواب: لا يمكن، فكيف إذاً يكون ذلك منكم ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ فلا تنشغلوا بالاعتذار الباطل، والأيمان الكاذبة التي هي من سماتهم كما سبق من الآيات الكريمة، فلا قبول لأعذاركم لأنها أعذار باطلة كاذبة. قال الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: قد جحدتم الحق بقولكم ما قلتم في رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنون به ﴿بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ يقولوا: بعد تصديقكم به، وإقراركم به ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ﴾[٢] قال الإمام الشوكاني رحمه الله تعالى: أي أظهرتم الكفر بما وقع منكم من الاستهزاء ﴿بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ أي: بعد إظهاركم الإيمان، مع كونكم تبطنون الكفر ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ﴾ هم من أخلص الإيمان وترك النفاق وتاب عنه[٣] وقال الزمخشري رحمه الله تعالى: لا تشتغلوا باعتذاراتكم الكاذبة، فإنها لا تنفعكم بعد ظهور سركم ﴿قَدْ كَفَرْتُم﴾ قد ظهر كفركم باستهزائكم ﴿بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ بعد إظهاركم الإيمان ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ﴾ بإحداثهم التوبة وإخلاصهم الإيمان بعد النفاق ﴿نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ مصرين على النفاق غير تائبين منه[٤] مما يدل على كفرهم، وأنهم يعاملون بما يظهر منهم، فلما أظهروا نفاقهم وسريرتهم، حتى أصبحت علانية، جاء الإفصاح عنهم، والكشف لحقيقتهم، مما يفيد أن المعاملة في الدنيا بحسب الظاهر، لأن البواطن لا يعلمها إلا الله تعالى. والطائفة هي الجماعة من الناس، أي أن هناك جماعة منهم آمنت، وطائفة بقيت على نفاقها، وهي التي تستحق العذاب ﴿نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ فموعودون بالعذاب لجرمهم،

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١١/٥٤٥)

(٢) المرجع السابق (١١/٥٤٦)

(٣) الشوكاني، فتح القدير (٢/٣٧٧)

(٤) الزمخشري، الكشاف (٢/٢٨٣)

وذلك ببقائهم على كفرهم ونفاقهم. وقد وصف الله تعالى هذه الطائفة التي بقيت على نفاقها بالمجرمين ﴿ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴾ لتعاظم ذنوبهم وإثمهم من الجرأة على الله تعالى وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم.

وهذا يفيد أهمية تعظيم الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم وكتابه عَزَّ وجل، وأن يكون لها موضع الإجلال والاحترام، والحذر من الاستهزاء بها: لهواً وتسلية. فإن ذلك منافٍ لأصل تعظيم الله تعالى، وتعظيم دينه. قال السعدي رحمه الله تعالى: أن من استهزأ بشيء من كتاب الله تعالى وسنة رسوله الثابتة عنه، أو سخر بذلك، أو تنقَّصه، أو استهزأ بالرسول صلى الله عليه وسلم، أو تنقَّصه فإنه كافر بالله العظيم، وأن التوبة مقبولة من كل ذنب، وإن كان عظيماً[1]

﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِىَ حَسْبُهُمْۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

ويكشف الله تعالى المزيد عن حقائق المنافقين الخفية، التي تحمل المحادَّة والمشاقة والمضادة لدين الله تعالى، ولرسوله صلى الله عليه وسلم، وللمؤمنين ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۗ

(١) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٢/٢٦٢)

﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ فأول هذه الحقائق ما هو متعلق بالولاء ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ﴾ فهم على دين بعضهم البعض، وأولياء لبعضهم البعض، مما يفيد أنهم متمنهجون بمنهج واحد، ومخالفون ومضادون ومغايرون به منهج الله تعالى، وبالتالي هم منحازون لبعضهم البعض، ومفارقون لغيرهم من المؤمنين، وفي هذا تقرير وتوكيد وبيان لقوله تعالى ﴿ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴾ فهم مختلفون، بل مضادون لله تعالى، ولرسوله صلى الله عليه سلم، وللمؤمنين.

وثاني تلك الحقائق ﴿ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ ﴾ فيأمرون بكل ما ينكره دين الله تعالى، من الكفر والمعاصي، فشمل أمرهم بالمنكر كل قبيح، عقلاً وشرعاً. وينهون كل ما هو حسن شرعاً وعقلاً.، فينهون عن ما يأمر به دين الله تعالى، من الإيمان والخير والحق، فشمل كل ما هو حسن شرعاً وعقلاً. وفي هذا تأكيد لحقيقتهم، بأنهم قوم كافرون، مضادون ومناوئون لدين الله تعالى. وثالث تلك الحقائق ﴿ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ﴾ أي: يمتنعون عن الإنفاق في سبيل الله تعالى، وعن الجهاد، وعن كل خير، فالسياق الكريم عمم قبضة أيديهم، وفي التعميم دلالة على أن امتناعهم شامل عن كل خير، سواء ما كان واجباً أو مستحباً، وعن كل مصلحة للدين وللرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين. وهذا من دقائق البيان في الوصف، وبلاغة الإيجاز، وغزارة الدلالة، المستوفية لجميع الوصف للموصوف.

ومن جميل البيان أن وصف الشح بالقبض ﴿ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ﴾ ويقابله البسط، الذي هو كناية عن الكرم والجود. ووصف عملية العطاء باليد، لأنها الآلة أو الجارحة التي يحصل بها العطاء أو المنع، فكان ذلك غاية البيان في أبلغ الوصف من الكلام، مع جزالة بلاغية غاية في الإعجاز.

ورابع تلك الحقائق ﴿ نَسُواْ ٱللَّهَ ﴾ أي: تركوا أمره، وذكره، والاهتداء بهديه، والائتمار بأمره ونهيه سبحانه وتعالى، فحالهم مع طاعة الله تعالى كحال الناسي، الذي لا يتذكر ما نسيه، إلى درجة أنه يعمل بخلافه تماماً، وكأنه لا يعرف عنه شيئاً البتة، مما يفيد أن حال النسيان في السياق هو لبيان عمق درجة الترك والهجر؛ والبعد الذي لا يماثله إلا عمل الناسي، وهم في غير نسيان من أمرهم، وهذه صورة دقيقة لحالهم السيء. ومقابل هذا النهج منهم عاقبهم الله تعالى بما يناسب نهجهم، ومن جنس فعلهم ﴿ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ أي: عاملهم معاملة من نسيهم، حيث تركوا أمره عَزَّ وجل فَتَرَكَهم من رحمته وفضله وتوفيقه، ومن بديع البيان أن وصف الله عَزَّ وجل تَرْكَهُم لِدِينِه بالنسيان، الذي لم يحصل منهم حقيقة، لأن النسيان هو عدم التذكر، ولكن وصفهم

بهذا الوصف حتى يؤدي معنى حالهم في دين الله تعالى؛ بأنه كحال الناسي، فشدة تركهم له كأنهم لم يأبهوا به، مع أهميته، فكان تركهم كترك الناسي لأمر غاية في الأهمية. وهذا غاية الوصف وبلاغة التوصيف. وكذلك فإن نسيان الله تعالى لهم هو من باب المشاكلة، والمماثلة في الجزاء، بحيث يكون من جنس العمل، مما يفيد أن من ذكر الله تعالى ذكره، ومن أقترب إلى الله تعالى بالنوافل قرّبه الله تعالى منه، ومن هجر طاعة الله تعالى هجره من توفيقه، كما جاء في الحديث القدسي (أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً، وإن تقرب إلي ذراعاً تقربت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة)[1]

ثم أجمل الله تعالى وصفهم في صفة جامعة كاملة، قد استوفت جميع صفاتهم، فقال تعالى ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ أي: أن المنافقين هم الخارجون عن دينه، وأمره ونهيه، فقد استكملوا الفسق الذي هو الخروج عن دين الله تعالى، والانسلاخ عنه، فحققوا في أنفسهم الكفر. فجملة ﴿هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ تعني كمال الخروج. وجاء في معنى الفسق: أنه الخروج عن حَجْرِ الشرع، وذلك من قولهم: فسق الرطب إذا خرج عن قشره، وهو أعم من الكفر[2] والخروج لا بد وأن يكون قبله دخول، فقد أدركوا وعرفوا الإيمان وشريعة الله تعالى معرفة دقيقة، ومع ذلك خرجوا عما عرفوا وأيقنوا. ليدل ذلك على كمال فسقهم، واستيفائهم موجب نفاق الكفر بما بينه تبارك وتعالى في الآية الكريمة.

ثم أخبر الله تبارك وتعالى بما سيؤول إليه حال المنافقين والكفار ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِىَ حَسْبُهُمْۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ والوعد من الله تعالى متحقق لا يتخلف. وفي هذا تحذير وتهديد لهم، وتجريم لنفاقهم ومسلكهم، وتحذير لهم، وبيان ما سيؤول بهم هذا النفاق من العذاب والخزي وسوء العاقبة، كما أن في جمعهم بالكفار إثبات أن نفاقهم كفر، فلا يختلف حالهم عن حال الكافرين من المشركين وغيرهم ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ ﴾ واشتمل الوعد من الله تعالى للجنسين: الذكور والإناث ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ ﴾ ليؤكد دقة تحققه وشموليته، فلن ينجوا أحد ممن مات على نفاقه. فهم موعودون ﴿نَارَ

(١) البخاري، الجامع الصحيح (٣٨٤/٤) برقم (٧٤٠٥)

(٢) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن (٣٨٠)

﴿جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ماكثين مخلدين فيها مع الكفار، فإنها الأليق بهم ﴿هِيَ حَسْبُهُمْ﴾ أي: هي كفاية ذنوبهم، حيث تبلغ بهم نار جهنم كفايتهم من العذاب، مما يفيد شدة عذابها، وعظيم هولها، بما يوفيهم كمال عذابهم الذي يستحقونه، فإنه لا شيء أبلغ من نار جهنم من العذاب فيمكن أن يزاد عليهم به ﴿وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: طردهم الله تعالى وأبعدهم عن كل رحمة، بل وزادهم إهانة بهذا العذاب ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ دائم لا يزول ولا ينقضي وينتهي، فلا ينفكون عنه أبداً. وفي هذا تحذير لهم ولغيرهم من مسلك النفاق، وكذلك إظهار لحكم النفاق بأنه كفر، لتساويهم مع الكفار في العذاب.

ثم يخبر الله تعالى بأن ما حصل من المنافقين هو مشابه تماماً لمن سبقهم من الكافرين ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ ومع أن الذين من قبلكم كانوا أكثر منكم حظاً من القوة التي مكنهم الله تعالى بها، من القدرة على الأعمال الشاقة والغلبة، وكثرة الأموال والأولاد، فلم تمنعهم تلك القوة والكثرة من منع العذاب ودفعه وصده وتوقيه، بل وقع وأحاط بهم العذاب، فحبطوا وحبط صنيعهم في الدنيا والآخرة. مما يفيد أن الأمم والأفراد مهما كبرة قوتهم وأموالهم وعددهم فإن عقاب الله تعالى إذا حل بهم أهلكهم.

وكذلك من مزيد فوائد النص الكريم أن الله تعالى نوه عن الذين من قبلهم بما يفيد التعدد المتكرر والكثرة ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ فليست أمة واحدة بل أمم متعددة، كفرعون وقومه، وكذلك قوم لوط وعاد وثمود، وغيرهم من الأمم. ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ فأنتم مثل الذين من قبلكم في كفرهم، إذ فعلتم مثل ما فعلوا من الكفر، مع أنهم يتميزون عنكم بالقوة وكثرة الأموال والأولاد، فإن الأمر ليس كما تتوقعون من أن ذلك يدفع عنهم العذاب، فلم ينتفعوا بقوتهم ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً﴾ أي: قدرة وفعلاً، وكلمة ﴿قُوَّةً﴾ وردت عامة لتشمل جميع ما يمكن أن يتقوى به الإنسان على غيره، أو الطائفة على غيرها، أو على المصائب والمصاعب والمشاق، كالذين نحتوا الجبال بيوتا، والذين شيدوا القصور والسدود وغيرها من صور القوة وعلاماتها، فاستوفت كلمة القوة ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً﴾ كل ما يمكن أن يخطر ببال

الْمُخَاطَب، ثم عُطف على عمومها أبرزها وأظهراها، وهما كثرة العدد، وكثرة المال ﴿وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَـٰدًا ﴾ فإن أموالهم قد تميزت بالكثرة، وكذلك أعدادهم، مما يدل على أن الله تعالى أخصب لهم الأرض، وأنزل عليهم الغيث، ويسر لهم سُبُل تكثير المال والولد والمتاع والماشية وغيرها من الخير ﴿فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَـٰقِهِمْ ﴾ فتمتعوا وتلذذوا بنصيبهم من ملذات الدنيا التي قَدَّرَها اللهُ تعالى لهم، فاستمتعوا بحظهم من الدنيا ﴿فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَـٰقِكُمْ ﴾ وكذلك تماثلتم أنتم معهم في استمتاعكم بنصيبكم من ملذات الدنيا التي قدرها الله تعالى لكم.

ومن جميل البيان ودقته أن الله تعالى لم يقل فَتَمَتَّعُوا، بل جاء بزياد حرف السين ﴿فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَـٰقِهِمْ ﴾ وقال تعال ﴿فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَـٰقِكُمْ ﴾ بزيادة حرف السين، ليفيد المبالغة في التمتع الذي حصل لهم ولمن سبقهم، ثم أكد الاستمتاع مرة أخرى، ليفيد المزيد من التنبيه ﴿كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَـٰقِهِمْ ﴾ فتماثلتم معهم في الاستمتاع والانتفاع بنصيبكم كما استمتعوا بخلاقهم الذي هو نصيبهم ﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ ﴾ وتساويتم معهم في الباطل. فدخلتم في الباطل والكذب واللهو المحرم كما دخلوا في الباطل واللهو المحرم، ويدخل في ذلك الطعن في الدين، وتكذيب النبي صلى الله عليه وسلم. فاستويتم معهم في الاستمتاع بنعم الله تعالى التي قدرها لكم ربكم ولهم، وكذلك تساويتم معهم في الخوض بالباطل، كما قال تعالى عنهم فيما سبق من هذه السورة ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ قال الزمخشري رحمه الله تعالى: ذم الأولين بالاستمتاع بما أُتُوا من حظوظ الدنيا ورضاهم بها، والتهائهم بشهواتهم الفانية عن النظر في العاقبة، وطلب الفلاح في الآخرة[١] ثم خضتم بدخولكم في الباطل والكذب واللهو عن الدين كما خاضوا بالباطل والكذب واللهو عن الدين، فتساويتم معهم في الانحراف بالنعمة، والانحراف عن الدين، بالكذب والباطل والتغافل.

مما يفيد أهمية الانتباه للنعمة، وعدم الاستغراق والانغماس بها في ارتكاب المعاصي، وعدم الركون للقوة وكثرة المال والولد، بل يجب التحرز من ذلك، واستخدامها في طاعة الله تعالى، ووفق منهج الله عَزَّ وجل، وعدم الخوض في الباطل، فإنه مهلكة للإنسان، ولمن خاض معه وشاركه، فإن الله تعالى لا تعجزه قوة

(١) الزمخشري، الكشاف (٢/٢٨٥)

أحد من خلقه، فهو الذي خلق، وهو الذي أعطى ويعطي، فقد وعد أولئك بالعذاب والخزي في الدنيا والآخرة ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَـٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ فأولئك سقطت وبطلت أعمالهم مما كان في صورة وهيئة الطاعة، بسبب ما جنوا وارتكبوا من أعمال الكفر، فإن الكفر يُحبط العمل، فلا ينالون بها خيراً في الدنيا، ولا ثواباً في الآخرة ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ فحقيقة هؤلاء وأعمالهم أنهم قد تمكنوا من تحقيق الخسارة الفادحة لأنفسهم في الدنيا من عدم التوفيق، وفي الآخرة من عذاب جهنم، الذي لا ينفك عنهم. فإن إمهال المنافقين والكفار عموماً لا يعني العفو عنهم، بل هو واقع بهم، فإن وعد الله تعالى حق كما وعد، فحال أولئك المنافقين إن لم يتوبوا كحال من سبقهم ممن تشابهوا معهم في الشر والبطر والباطل والكفر، وسيكونون معهم فيما وعد الله تعالى به.

ومن دقائق البيان أن أشار الله تعالى لهم باسم الإشارة ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ ﴾ الذي يفيد الْبُعد الزمني لهم، مع البعد عن الحق والخير والعاقبة الحسنة. أي: فأولئك المشار إليهم، الذين كفروا، فهم الذين يحملون صورة وهيئة من سقطت أعمالهم. كما أن في اسم الإشارة ﴿هُمُ ﴾ أفاد التعيين، أي: أن أولئك المعينون، متلبسون ومتصفون بالخسران، حتى أصبحت الخسارة صفة لهم، ومرتبطة بهم، ووشاح لهم وعلامة، فاتصفوا بإهمالهم لما ينفعهم، ووقوعهم فيما يضرهم، وتركهم للخير الماثل أمامهم، والواضح لهم وضوحاً لا شك فيه. مما يدل على أن الذي هم فيه من الكفر والنفاق قد جعلهم في خسارة حظهم من الآخرة. وأن هذه الحال تجعل الإنسان يقدم على الشر ويترك الخير، بسبب سوء استعماله لحواسه، وسوء تحليله وتفكيره وتدبره، وقصور النظر على الحاضر، دون النظر والاكتراث بالقادم، والاهتمام به، وتقديم محبة العاجل على الآجل. وأن صنيعهم فَوَّت عليهم عظيم الخير، وأودعهم في الخسران المبين. وفي هذا بيان من أن القرآن الكريم يُبَصِّر الإنسان، ويُفَتِّح عقله على الخير، وينمي فكره، ويربيه على اليقظة والانتباه، وعدم الغرور بالمغريات الفانية. فنعمة القرآن عظيمة. اللهم اجعل القرآن ربيع قلوبنا ونور صدورنا وجلاء أحزاننا وذهاب همومنا.

فأفاد البيان الرباني التهديد والتحذير لهم، والموعظة بمن سبق من غيرهم، وبما هو حاصل منهم، مع بيان التشابه، ووحدة الأسباب، ووحدة المآل، وكذلك يفيد التحذير والتوبيخ لهم في استخدام ما أنعم الله تعالى به عليهم في المعاصي، ومقابلة ما جاءهم من الحق بالخوض فيه بالباطل، فليس هناك أبلغ من هذا البيان، وهذه الموعظة الزاجرة، كما أن في النص الكريم تحذير من منهج المنافقين والكافرين، فإن مآلهم نار جهنم وبئس المصير. وكذلك فيه بيان لمنهجية استخدام ما أنعم الله تعالى به، وأهمية تعظيم دين الله تعالى، والانقياد له. وكذلك أهمية الاتعاظ بمن سبق، وأهمية الموعظة بالأحداث والمصائب.

ثم بعد البيان الموجز المختصر، يُفَصِّلُ الله تعالى حال من كان قبلهم ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ وقد ابتدأ التوجيه الكريم بالاستفهام ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ ليفيد التوبيخ والتحذير والتأنيب لهم، مع تقرير علمهم بنبأ وخبر من سبقهم من الأمم، وتقرير الموعظة لهم، بأنه قد حصل لهم العلم بمن سبق من الأمم ﴿قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ﴾ ذكر الإمام الشوكاني رحمه الله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ ﴾ أي: المنافقين ﴿نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي: خبرهم الذي له شأن، وهو ما فعلوه، وما فُعِلَ بهم، وذكر منهم ستة طوائف: قد سمع العرب أخبارهم، فالاستفهام للتقرير، وأولهم قوم نوح، وقد أهلكهم بالإغراق. وثانيهم قوم عاد، وقد أهلكهم بالريح العقيم. وثالثهم قوم هود، وقد أُخِذُوا بالصيحة، ورابعهم قوم إبراهيم، وقد سلط الله عليهم البعوض. وخامسهم أصحاب مدين، وهم قوم شعيب، وقد أخذتهم الرجفة. وسادسهم أصحاب المؤتفكات، وهي قرى قوم لوط، وقد أهلكهم الله تعالى بما أمطر عليهم من الحجارة، وسُمِّيت مؤتفكات لأنها انقلبت بهم حتى صار عاليها سافلها، والائتفاك: الانقلاب[1]

فهؤلاء قد جاءتهم رُسُلُهم بمثل ما جاءكم به نبي الله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ فلم يأت رسول من غير بينة، بل كل رسول جاء ومعه البينات والحجج والبراهين الدالة على أنه رسول من عند الله تعالى ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ فلم يكن من عدل الله تعالى أن يحقق فيهم الظلم بمعاقبتهم من غير أن يرسل رسولاً إليهم، ومؤيداً بالحجج والدلائل والبراهين البائنة الواضحة، فتنزه مقام الله تعالى عن ذلك تنزيهاً يليق بمقامه جَلَّ في علاه ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ فظلموا أنفسهم بعد قيام الحجة عليهم، وذلك بعدم الانقياد والاتباع لما جاءهم من رُسُل الله تعالى، كما فعل هؤلاء المنافقين والمشركين من عدم الانقياد لله تعالى ولرسوله صلى

---

(١) الشوكاني، فتح القدير (٢/٣٨٠)

الله عليه وسلم. مما يفيد التحذير والتنبيه لهم من مغبة هذا العصيان والتمرد، فيصيبهم ما أصاب الأمم التي تمردت على أنبياء الله تعالى. وكفا بها موعظة.

وفي هذا البيان من الله تعالى الذي بدأه عَزَّ وجل بمخاطبة المؤمنين عن حال هؤلاء المنافقين بجملة ﴿ أَلَمۡ يَأۡتِهِمۡ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ ﴾ ما يفيد أهمية الاتعاظ بالغير، وسواء فيما حل بالأمم المذكورة، أو بما يحدث في تاريخ الأمم والشعوب من أحداث تحمل آيات بينات في تنوعها وأمرها وشأنها، لتكون حياة المؤمن مليئة بالاتعاظ الذي يروض النفس ويهذبها، ويلفت انتباهها إلى قدرة الله تعالى وقوته، وعظيم سلطته وسلطانه، سواء كان ذلك على مستوى الأفراد أو المجموعات والجماعات الصغيرة والكبيرة، أو الأقاليم والمدن، بما يشوب حركتها من الزلازل والبراكين والفيضانات والأمراض والحروب والهلاك والدمار، أو الرزق والخير والصلاح، ليتبين أثر الصلاح، وأثر المعصية.

﴿ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٧١ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٧٢ ﴾

بعد أن أخبر تبارك وتعالى بموالاة المنافقين بعضهم لبعض، ينتقل السياق الكريم إلى بيان منهج موالاة المؤمنين ﴿ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ ﴾ ومن جميل البيان ودقته أن وصف وشَخَّص الله سبحانه وتعالى علاقة المنافقين لبعضهم البعض بحرف ﴿ مِّنۢ ﴾ فقال تعالى فيما سبق من هذه السورة ﴿ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖ ﴾ بينما قال جَلَّ جلاله في وصف علاقة المؤمنين فيما بينهم بالأولياء ﴿ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ ﴾ فحرف ﴿ مِّنۢ ﴾ أفاد تشاركهم في جنس النفاق، من حيث الاعتقاد، ومن حيث أسلوب التعامل؛ بإظهار الإيمان وإخفاء ما في قلوبهم من الكفر، وبالتالي هم متساوون في الحكم، كما أن حرف ﴿ مِّنۢ ﴾ لا يثبت أن بينهم تواد وتناصر وتراحم. بينما كلمة ﴿ أَوۡلِيَآءُ ﴾ تُثبت للمؤمنين فيما بينهم: التناصر والتواد والتراحم، فتقرر لهم أن العلاقة فيما بينهم تتجاوز الاشتراك في الملة إلى الإحاطة بهم في الجوانب القلبية؛ من التواد والتراحم، وكذلك الجوانب السلوكية من النصرة، فمحصلة

اتفاق الملة أوجد عندهم هذا الولاء لبعضهم البعض، فكانت ثمرته في النفوس أعظم من ثمرة أهل النفاق فيما بينهم. قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: أي قلوبهم متحدة في التواد والتحاب والتعاطف، وقال سبحانه وتعالى في المنافقين ﴿بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ﴾ لأن قلوبهم مختلفة، ولكن يضم بعضهم إلى بعض في الحكم[١] وهذا من دقة وبلاغة البيان، الذي يظهر منه وبه الإعجاز اللفظي للقرآن الكريم، في دقة وصفه وبيانه المتناهية في فصاحته وتقريراته وفوائده. وقد أكد هذه الدلالة نصوص الكتاب والسنة التي منها (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى سائر الجسد بالسهر والحمى)[٢] فإن الجسد موضح ومبين لقوة العلاقة بين جميع أعضائه، وهذا من تظافر وتعاضد السنة بالقرآن الكريم.

ثم أخبر الله تعالى عن جملة من صفات المؤمنين، التي تعتبر منقبة لهم، وكذلك تبين أهداف هذا الدين وغايته السامية، فأول هذه المواصفات أنهم ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ فمن مظاهر المؤمنين أنهم ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ فيأمرون بكل خير، كالإيمان، وأداء حقوق الله تعالى، وحقوق العباد، وسواء كان هذا فيما بينهم من التناصح، أو ما كان مع غيرهم من الكفار، بالنصح لهم بهذا الدين، ودلالتهم عليه، وترغيبهم فيه، فكلمة ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ كلمة وافية ومستوفية لكل ما يحبه الله تعالى من الأعمال والأقوال، والاعتقاد. وكذلك يقومون بأمر آخر، وهو النهي عن المنكر، من أجل تحقيق الخير للفرد والمجتمع، والحيلولة دون وقوع الشر ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ وكلمة المنكر كلمة جامعة ومستوفية لكل ما يبغضه الله تعالى من الأعمال والأقوال والاعتقادات. فيتناهون فيما بينهم عن المعاصي، وعن كل شر، وعن كل ما يناقض المعروف ويعارضه، وسواء كان في الأفعال أو الأقوال أو الاعتقاد، ويمتد نهيهم لغيرهم، بوعظهم ودلالتهم على الخير وتحذيرهم من الشر والكفر والمعاصي. مما يدل على أهمية هذه الشعيرة، وأهمية العمل بها. وفي ذكرها مع ما بعدها من الصفات، ما يدل على أهمية تلك الصفات جميعاً، وأنها تشكل في مجموعها خصائص وصفات المؤمنين الممدوحين بهذا الثناء من الله تعالى.

ومن بلاغة البيان أن ورد الأمر بكلمة واحدة، وهي المعروف، لتستوفي جميع المحامد والمحاسن التي قررها الشرع الحكيم، وكذلك جاء النهي من خلال كلمة واحدة، وهي المنكر، لتستوفي جميع ما يرفضه الشرع وينهى عنه بدرجاته المختلفة، فاستوفت الكلمتان ما يغني عن الكثير من المفردات التي تدخل تحتها.

---

(١) القرطبي، لجامع لأحكام القرآن (١٢٩/٨)

(٢) مسلم، صحيح مسلم (١٩٩٩/٤-٢٠٠٠) برقم (٢٥٨٦)

ومن صفاتهم في أنفسهم ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: أنهم يقيمون الصلاة المفروضة، كما أن كلمة ﴿وَيُقِيمُونَ﴾ تتجاوز معنى أداء هيئتها إلى استيفاء كمال إقامتها، فالقيام بالشيء هو استيفاء لكل مطالبه ومكوناته، فيستوفون شروطها وأركانها وسننها، وهذا من دقائق البيان، مما يدل على أهمية الاتصاف بهذه الصفة في أداء الصلاة، لأنها موطن المدح والثناء من الله تعالى عليهم بها.

ومن مواصفاتهم أنهم ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ فيقومون بأداء الزكاة لأهلها المستحقون لها، فلا يتأخرون عن الأداء، ولا يمتنعون عن أدائها، بل يستوفون المفروض فيها، ومن مواصفاتهم كذلك ﴿وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ فيأتمرون ويلزمون ما أمر به الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، والانتهاء عَمَّا نهى الله تعالى عنه ورسول الله صلى الله عليه وسلم. ومن جليل الفوائد أن الله تعالى قرن طاعة رسوله بطاعته، ولم يفصلها عن طاعته، ليتبين أنه لا فصل بين ما جاء في كتابه سبحانه وتعالى القرآن الكريم، وبين ما جاء في سنته صلى الله عليه وسلم، فكلاهما أصل الدين وعماده ومنهجه. فمن فرق بينهما فقد حاد عن الطريق المستقيم، وحاد عن طاعة الله تعالى. كما أن في ذلك بيان لمنزلته ومكانته صلى الله عليه وسلم.

ومن جميل البيان أن جَمَعَ اللهُ تعالى جميع مفردات الطاعة في قوله عَزَّ وجل ﴿وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ وذلك بعد أن أفرد بعض العبادات؛ للتنويه بعظيم شأنها وتمييزها عن عموم غيرها، لبيان ما لها من المنزلة والمكانة العظيمة في شريعة الله تعالى. ثم قال عَزَّ وجل عن جزاء وثواب هؤلاء المؤمنين ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ فأوجز تبارك وتعالى كمال الجزاء في رحمته بهم، لأن رحمته عَزَّ وجل شاملة ومستوفية للمغفرة، وإدخالهم الجنة، وإبعادهم عن العذاب، فمهما قصرت بهم الأعمال، ستنالهم رحمة الله تعالى، فإنه سيتولاهم برحمته المتجاوزة للثواب على أعمالهم إلى كريم لطف رحمته. ثم يذكر الله تعالى من صفاته الجليلة ما يناسب مقام الخطاب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فهو عزيز في مقامه، وفي انتقامه وعقابه وقدرته، وفي إعزازه وإعطائه ومنعه لمن يشاء وكيف شاء، وهو كذلك حكيم في تدبيره وأحكامه وأقواله وأفعاله، فليس شيء يصدر عن الله تعالى إلا وفيه حكمة بالغة، يتناسب قدرها مع عظيم قدره ومنزلته سبحانه وتعالى.

ثم أكد الله تعالى رحمته المتضمنة لأوجه عنايته بالمؤمنين، وذلك ببيان ما وعدهم به سبحانه وتعالى من رحمته بهم في الآخرة ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾

فإنه سبحانه وتعالى محقق للمؤمنين والمؤمنات جنات من البساتين التي تجري من بين أشجارها الأنهار المتدفقة، وأن سكناهم فيها للخلود الذي لا يزول أبداً، وكذلك لهم جمع من المساكن وليس مسكناً واحداً ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٍ﴾ وهي موصوفة بالطيبة ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً﴾ فجمعت معاني الطيب وأوصافه ودلالاته، وهو الذي تطيب به النفس وتفرح وتبتهج، وأن مكان مساكنهم ﴿فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٍ﴾ أي: في وسط الجنة الذي هو أعلاها، فهي إقامة دائمة لا تنقطع، وتعني كذلك وسط الجنة الذي هو أعلاها، أي أعلى درجة في الجنة، وسقفه عرش الرحمن جَلَّ وعَز، وفيها عين التسنيم، والجنان حولها محدقة بها[١]

ثم يزداد الفضل على المؤمنين بقوله تعالى ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ﴾ ورضا الله تعالى عنهم أكبر من ذلك النعيم كله، وفي الحديث الصحيح قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن الله تبارك وتعالى يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة. فيقولون لبيك ربنا وسعديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: ومالنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك، فيقول: أنا أعطيكم أفضل من ذلك، قالوا: يا رب، وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول أُحل عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبداً)[٢] فسرور القلب برضا الله تعالى نعيم يختص بالقلب، وذاك أكبر من نعيم الأكل والشرب[٣] مما يفيد أن رضا الله تعالى هو أعظم النعيم، وأجلَّه وأرفعه قدراً وبهجة وسروراً وغبطة، وأن مداخل السرور والبهجة الحقيقية تدخل إلى القلوب من خلال رضا الله تعالى عن العبد، وأن السرور بالمحسوسات والبهجة بها ليس هو كمال السرور ومنتهاه. كما أن السرور القلبي هو كمال السرور وذروته ومجده. فاللهم إنا نسألك رضاك والجنة، ونعوذ بك من سخطك والنار. ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ فذلك الموعودون به هو الظفر العظيم الذي لا يعدله ظفر ولا فوز بعده أحسن منه. فهو منتهى الفوز وأعلاه وقمته وتاجه. اللهم إنا نسألك الفوز العظيم الذي ليس بعده فوز.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٣٠/٨) وابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣١٨/٣) ملخص

(٢) البخاري، الجامع الصحيح (٢٠٠/٤) برقم (٨٥٤٩)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣١٨/٣)

يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِۚ وَمَا لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَـٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْۙ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾

يخاطب الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بما يجب أن يعامل به الكفار والمنافقين ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ وقد بدأ التوجيه الكريم في مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم بالنداء ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ﴾ والذي يفيد أهمية ما تم النداء له، وتعظيم الأخذ به، ويدخل المؤمنون في هذا الأمر باعتبار أنهم تبعٌ لنبيهم صلى الله عليه وسلم. واستهل سبحانه وتعالى الخطاب بالنداء للرسول عليه الصلاة والسلام برتبة النبوة. بما يدل على مكانتها ومكانته ومنزلته عند ربه سبحانه وتعالى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ﴾ ولإفادة شد الانتباه، لِمَا نُودي له عليه الصلاة والسلام من التوجيه الكريم، الذي خاطب الله تعالى به رسوله صلى الله عليه وسلم بالتخصيص. فهو تنبيه للنبي عليه الصلاة والسلام وللأمة، وشد انتباهها لهذا النداء العظيم من خلال مقام النبي عليه الصلاة والسلام، الذي هو أسوتهم، وقدوة لهم، وكذلك ليعلوا مقامه في نفوسهم، وهو نداء يحمل في دلالته لفت الانتباه، ووجوب إرعاء السمع، وأخذ الأمر بجد فيما تضمن من توجيه، وأخذه بعزم وأهمية وجدية.

ثم بعد النداء أورد سبحانه وتعالى تسمية الْمُنَادى بمنزلة ودرجة النبوة الرفيعة العظيمة ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ﴾ تكريماً له عليه الصلاة والسلام بمكانته السامية، وتشريفاً لمقامه صلى الله عليه وسلم، وتنويها لغيره بفضله عليه الصلاة والسلام، وأنه نبي من ربكم أيها الناس. وإذا كان الله تعالى يخاطب رسوله صلى الله عليه وسلم بهذا التكريم ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ﴾ بدرجة ومقام النبوة فإن واجبكم كذلك أيها المؤمنون، بأن لا تخاطبوا رسولكم صلى الله عليه

وسلم إلا بدرجة النبوة والرسالة. فيلزمكم زيادة التوقير والاحترام له عليه الصلاة والسلام، وسواء ما كان متعلقاً بالقلوب أو عند الخطاب والمناداة، أو غيره من مستلزمات التوقير. وليتعلم الناس كيف يخاطبون نبيهم ورسولهم صلى الله عليه وسلم، وهو الشأن الذي كان عليه الصحابة رضي الله عنهم، ومَن تَبِعَهم، فإنهم كانوا لا يقولون إلا: يا رسول الله، يا نبي الله. ثم تابعهم الذين من بعدهم، فيقولون عنه صلى الله عليه وسلم: كان رسول الله، وقال نبي الله صلى الله عليه وسلم.

وأفاد هذا الخطاب من الله تعالى أن مرتبة الرسالة والنبوة هما أعلى رتبة منحها الله تعالى لمن اصطفاهم، فلم يخاطب الله تعالى رسوله في كتابه القرآن العظيم بأي رُتبة من الرتب، إلا برتبة الرسالة والنبوة، وأما بغير هاتين الرتبتين فينوه عَزَّ وجل عنه باسمه صلى الله عليه وسلم، على سبيل الإخبار، لا النداء والخطاب، كما ورد في سورة آل عمران، وسورة الأحزاب، وسورة محمد، وسورة الفتح. لمناسبة المقام لذلك، ففي سورة آل عمران قوله تعالى ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ وفي سورة الأحزاب قوله تعالى ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾ وفي سورة محمد قوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ﴾ وفي سورة الفتح قوله تعالى ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ ففي جميع ذلك كانت على سبيل الإخبار، وليس على سبيل النداء والخطاب المباشر له صلى الله عليه وسلم.

وبعد هذا النداء الكريم من الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم يتناول التوجيه الكريم شأن الجهاد، فيأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بجهاد الكفار والمنافقين. وكلمة ﴿ جَٰهِدِ ﴾ فعل أمر، يفيد المبالغة، أي بالغ في جهاد هذين الصنفين من الناس، وهم الكفار والمنافقين، وقد أفرد الله تعالى المنافقين من بين الكافرين، لأنهم يعيشون بين المؤمنين، وكأن حالهم هو حال المؤمنين، لما يُظهرونه من الايمان، وما يبطنونه من الكفر، فيكون جهاد الكفار بالسلاح، الذي هو آلة الجهاد، وأما المنافقين فيكون جهادهم بما يناسب حالهم، وقد ذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى الأقوال في ذلك: فأما جهاد الكفار فبالسيف، وفي جهاد المنافقين قولان: أحدهما أنه باللسان، قاله ابن عباس رضي الله عنهما والحسن والضحاك والربيع بن أنس. والثاني: جهادهم بإقامة الحدود عليهم، روي عن الحسن وقتادة. ثم ذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى ما كان منه صلى الله عليه وسلم مع المنافقين، إذ لم يقاتلهم: فقال: أنه إنما أُمِر بقتال من أظهر كلمة الكفر وأقام عليها، فأما من إذا أُطِّلِعَ على كفره

أنكر وحلف، وقال: إني مسلم، فإنه أُمِرَ أن يأخذ بظاهر أمره، ولا يبحث عن سره[١] وهذا التفريق في التعامل بين الكافر وبين المنافق هو الذي يتوافق مع ما أفردهم الله تعالى به من الذكر، ليتبين أنه يجاهدهم بالنصيحة والموعظة، بما يناسب ما أظهروه من الإيمان، وأن المسلم مكلف أن يتعامل مع غيره بالظاهر، مما يدل على أن هذا الدين، هو دين احتراز، ودين حفظ للدماء، وللحقوق، وأن بواطن الناس موكلة إلى الله تعالى، وإنما التعامل هو مع ظاهر العباد، وأما سرائرهم فموكلة إلى الله تعالى.

ويأمر الله عَزَّ وجل بإظهار القوة والغلبة للإسلام ﴿وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ قال السعدي رحمه الله تعالى: بالغ بجهادهم ﴿وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ حيث اقتضت الحال الغلظة عليهم، وهذا الجهاد يدخل فيه الجهاد باليد، والجهاد بالحجة واللسان، فمن بارز منهم بالمحاربة فيجاهد باليد، واللسان والسيف والسنان. ومن كان مذعناً للإسلام بذمة أو عهد، فإنه يجاهد بالحجة والبرهان، ويبين له محاسن الإسلام، ومساوئ الشرك والكفران، فهذا ما لهم في الدنيا[٢] مما يبين أن المعاملة معهم بما تقتضيه الحال التي يقدرها النبي صلى الله عليه وسلم، وقال الزمخشري رحمه الله تعالى: ﴿جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ﴾ بالسيف ﴿وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ بالحجة ﴿وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ في الجهادين جميعاً، ولا تحابهم، وكل من وقف منه على فساد في العقيدة فهذا الحكم ثابت فيه، يجاهد بالحجة، وتستعمل معه الغلظة ما أمكن منها، وعن ابن مسعود رضي الله عنه: إن لم يستطع بيده فبلسانه، فإن لم يستطع فليكفهر في وجهه، فإن لم يستطع فبقلبه، وقد حمل الحسن جهاد المنافقين على إقامة الحدود عليهم إذا تعاطوا أسبابها[٣] فهما يشتركان في وجوب المجاهدة، ولكن يختلفان في الأسلوب والأحوال، كما أن الجهاد نفسه قائم بما يتناسب مع ما يصدر من الكافر وبما يظهر من المنافق، وأنه لا يلزم منه القتال ما لم يوجد موجبه. وهذا الفهم من العلماء يؤكد ويبين أهميتهم ومنزلتهم في فهم وتأويل نصوص القرآن الكريم، وذلك لما حباهم الله تعالى من القدرة على فهم وتأويل النص بما يتوافق مع فعله صلى الله عليه وسلم، فالعلماء هم ورثة الأنبياء كما جاء في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال (وإن العلماء ورثة الأنبياء)[٤]

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣/٣١٩)

(٢) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٢/٢٦٦)

(٣) الزمخشري، الكشاف (٢/٢٨٦)

(٤) أبو داود، سنن أبي داود، برقم (٣٦٤١)

وأما جزاء الكفار والمنافقين في الآخرة فقد توعدهم الله عَزَّ وجل بنار جهنم ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ فمساكنهم التي هي مأواهم فستكون جهنم، ثم وصف حال من يصير إليها بأسوأ ما سيكون عليه حاله ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ فبئس المكان الذي يصيرون إليه وهو جهنم، لأن: حرف ﴿وَبِئْسَ﴾ يفيد كمال الذم للمصير الذي سيؤلون إليه، فليس بعده أعظم منه عذاباً ونكالاً ومصيراً يصير إليه.

وبمزيد من البيان يخبر الله تعالى عن حال المنافقين ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ﴾ فيحلفون الأيمان أنهم ما قالوا الذي قالوه من الطعن في الدين وفي الرسول صلى الله عليه وسلم، لأنهم إذا خلوا سبوا وطعنوا في الرسول صلى الله عليه وسلم وفي أصحابه الميامين رضي الله عنهم، وتنقصوا من الدين واستهزؤا به، فيرد الله تعالى عليهم ﴿وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ﴾ فَيُثبت الله تعالى عليهم ما قالوا من الكفر، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يعاملهم بما يظهر منهم، ففضحهم الله تعالى وكشف سرهم ﴿وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ فأخرجوا ظاهرهم من الإيمان إلى ما يبطنونه من الكفر، فتوافق ظاهرهم مع باطنهم، فإسلامهم الظاهر قد خرجوا منه، بما أظهروه من الكفر، فنعتهم الله تعالى بالإسلام على ما كان من ظاهرهم ﴿بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ لا عن حقيقة كانوا عليها ﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ﴾ قال السعدي رحمه الله تعالى: وذلك حين هموا بالفتك برسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك. فقص الله تعالى عليه نبأهم، فأمر من يصدهم عن قصدهم[1]

ثم يبين الله تعالى لؤمهم وشرهم، وخساسة أخلاقهم ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ﴾ فلم ينتقموا إلا ممن أغناهم وأخرجهم من الفقر والذلة إلى ما نالهم من الفضل والعزة والخير، ليعتدوا على ما أنعم الله تعالى به عليهم، وعلى ما كان يعاملهم به صلى الله عليه وسلم من حُسن المعاملة، ثم يتخافتون بينهم بالسب والطعن، بل وهمُّوا بقتله صلى الله عليه وسلم، وإلحاق الأذى به، فأي أخلاق أقبح من هذه الأخلاق ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ﴾ فقد كشف الله تعالى بهذه الآيات الكريمة ما وصلوا إليه بخساستهم وذميم أخلاقهم، بإساءتهم لمن أحسن إليهم، ومع هذا يحلم الله تعالى عليهم، ويفتح لهم باب التوبة ﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ فأي حلم ورحمة وفضل أكبر من هذا، بل ويرشدهم

(١) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٢/٢٦٧)

سبحانه وتعالى لما هو أحسن وأفضل لهم في الدنيا والآخرة، ليبن أن هذا الدين هو دين الرحمة، والشفقة، وأنه دين هداية وإنقاذ من ظلمات الكفر والجهل إلى نور الإسلام، وليس دين حقد وقتل، ومحبة للانتصار، بل إن هداية العدو أحب إلى الله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم من الانتقام منهم، ولذلك يفرح الله تعالى بتوبة عبده ورجوعه إلى ربه تبارك وتعالى كما جاء في الحديث (لله أشد فرحاً بتوبة عبده من رجل حمل زاده، ومزاده على بعير، ثم سار حتى كان بفلاة من الأرض فأدركته القائلة، فنزل فقال تحت شجرة، فغلبته عينه، وانسل بعيره، فاستيقظ، فسعى شرفاً فلم ير شيئاً، ثم سعى شرفاً ثانياً فلم ير شيئاً، ثم سعى شرفاً ثالثاً، فلم ير شيئاً، فأقبل حتى أتى مكانه الذي قال فيه، فبينما هو قاعد إذ جاءه بعيره يمشي، حتى وضع خطامه في يده، فلله أشد فرحاً بتوبة العبد من هذا حين وجد بعيره على حاله)[١]

ثم يحذرهم الله تعالى مما هو واقع بهم إن لم يتراجعوا عن غيهم وطغيانهم ﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ ﴾ فإن أبوا وأدبروا عن التوبة، وأصروا على كفرهم فإن الله تعالى يعذبهم عذاباً موجعاً في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا بالقتل والخزي والعار والشماتة، والذلة والقلة، وبغير ذلك مما يشاء الله تعالى من العذاب، وأما في الآخرة فإن عذاب الكافرين جهنم وبئس المصير. وليس لهم في الدنيا من أولياء يدفعون ما يحل بهم من العذاب والنكال ﴿وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴾ فليس لهم من يتولى الدفاع عنهم، ليصد ويمنع عنهم عذاب الله تعالى إذا حل بهم، وليس لهم معين يعينهم، لينقذهم من عذاب الله تعالى. فمن كانوا يتمنعون بهم من عشيرتهم وأقوامهم، ويتقوون بهم، فإنهم لا يستطيعون ذلك إذا نزل بهم عذاب الله تعالى، وفي هذا غاية التحذير والتوبيخ لهم.

ثم يخبر الله تعالى بما كان من بعضهم ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ فمن المنافقين من أعطى العهد من نفسه لله تعالى بأنه في حال أن يتفضل اللهُ تعالى عليهم بالخير سيقومون بأمرين: الأول: ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ ﴾ وهو الإنفاق في أوجه الخير مما يعطيهم الله تعالى، وقد شملت كلمة ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ ﴾ عموم أنواع الصدقة، سواء الزكاة، أو غيرها مما يحصل به صلة الأرحام، والفقراء، أو في الجهاد أو في غيره من أوجه الخير، فأفادت كلمة ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ ﴾ التعميم. والأمر الثاني: ﴿وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ وهو الالتزام بأوجه الصلاح، والتحلي بها، سواء في الدين أو في

(١) مسلم، صحيح مسلم (٢١٠٣/٤) برقم (٢٧٤٥)

مكارم الأخلاق أو فيما يتفرع عنهما. وهي صفة تفيد تعميم التحلي بأوجه الصلاح المختلفة، والاجتهاد في تحصيل كمال ذلك.

ثم يبين الله تعالى نتيجة العهد والميثاق الذي أخذوه على أنفسهم، فيعرض يكشف الله تبارك وتعالى مسلك أولئك الذين عاهدوه على الصلاح في أنفسهم وفيما يعطيهم من الخير ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ﴾ فقد استجاب الله تعالى مطلبهم، وأعطاهم من فضله، وهذا من كرمه سبحانه وتعالى، فوقع منهم البخل بما أعطاهم الله تعالى، فلم يقوموا بما تعهدوا به من الصدقة ﴿وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ فأعرضوا عن طاعة الله تعالى بعد ما عاهدوا الله عَزَّ وجل بالطاعة والامتثال، ووصف الله تعالى توليهم بالإعراض ﴿وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ أي: متجاهلون لِمَا وعدوا وتعهدوا به، وكأنه لا يعنيهم ذلك الأمر شيئاً، فأعرضوا من غير اهتمام، ولا اكتراث بالعهد والميثاق، مما يعني أنهم تولوا مع الجفاء في السلوك والتصرف، بل ومبدين إعراضهم غير مكترثين. مما يبين حالة النفس التي استولى عليها الجشع والطمع، والتي كانت تتمنى الخير، فلما منحها الله تعالى من فضله تعززت به، وتناست المعطي، وتناست من كان سبباً في العطاء، وتجاهلت ما كانت فيه من القلة والحاجة.

فحل بهم عقاب الله تعالى، بأن مَكَّنَ فيهم النفاق الذي في قلوبهم ﴿ فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقٗا فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ يَلۡقَوۡنَهُۥ بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ﴾ فأعقبهم الله تعالى بتثبيت النفاق في قلوبهم بسبب كذبهم وبخلهم، ونكثهم ما عاهدوا الله تعالى عليه، بأن أسكن النفاق في قلوبهم، فتوغل فيها، ليصبح كائناً متمكناً فيها ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ يَلۡقَوۡنَهُۥ﴾ وذلك جزاء لهم على نكثهم وكذبهم ونفاقهم. فهو نفاق مستمر معهم إلى أن يلقوا الله تعالى، وهذا بسبب بهتانهم، ومخالفتهم لما تعهدوا لله تعالى به، وبتكذيبهم دين الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ﴿بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ﴾ فهناك سببان: الأول: مخالفتهم ما وعدوا الله تعالى به ﴿بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ﴾ بمخالفتهم ما عاهدوا الله تعالى، بأن يتصدقوا إن أعطاهم الله تعالى من فضله، وأن يكونوا صالحين في أنفسهم ومع غيرهم، والسبب الثاني: ﴿وَبِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ﴾ بسبب تكذيبهم للرسول صلى الله عليه وسلم، ولدين الله تعالى، وبما كان منهم من المكر السيء. مما يفيد أهمية الوفاء، وأهمية الطاعة، والانقياد لله تعالى، وأن يزداد المؤمن إنفاقاً كلما زاده الله

تعالى من فضله، وأن يسعى في إصلاح نفسه وحاله، وأن يتفقدها، ويُعَوّدها على لزوم طاعة الله تعالى والانقياد له عَزَّ وجل.

ثم يخبر الله تعالى عَمَّا كانوا عليه من العلم الذي يرتفع به الجهل عنهم، وذلك بأسلوب السؤال الاستنكاري، الذي يفيد التوبيخ لهم، ولصنيعهم، مع ثبوت كمال العلم الذي يرتفع به عذر الجهل ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ وجاء هذا السياق الكريم عنهم على صيغة السؤال الموجه للمؤمنين عن المنافقين الذين جاء اللوم عليهم، بما يفيد رفعة المؤمنين الطائعين على هؤلاء الذين جاء التوبيخ والتهديد والزجر لهم ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ ﴾ ألم يحصل لهؤلاء المنافقين العلم بأن الله تعالى يعلم ما يسرونه ويتكتمون عليه في قلوبهم من كل أمر وشأن، وكذلك يعلم جميع ما يتناجون به بينهم من الطعن في دين الله تعالى وفي رسوله صلى الله عليه وسلم، وفي المؤمنين.

ثم يتدرج البيان من علم الله تعالى إلى كمال الإحاطة وتمام عمومها حتى بالأمور والأشياء الغائبة عن خلقه ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ وكلمة ﴿عَلَّٰمُ ﴾ تفيد المبالغة في العلم والإحاطة بما هو غائب عن المخلوقين تماماً، أو ما غاب كمال حقيقته عنهم، كالشمس والقمر والنجوم، فإن علمه سبحانه وتعالى كامل الإحاطة، ومستوفي لكل شيء وأمر، ومتعدي غير قاصر على شيء دون شيء. وكلمة ﴿ٱلْغُيُوبِ ﴾ تفيد الجمع الشامل لكل ما غاب عنهم من المحسوسات، أو المعنويات، أو ما يتلجلج في الصدور، وما توسوس به النفوس. وهذا غاية البيان عن كمال علمه سبحانه وتعالى، وإذا عرف العبد هذه الصفات عن الله تعالى وجب عليه أن يعمل بمقتضى علمه بها، فيشعر بأن الله تعالى يراه، ويرى خائنة الأعين وما تخفي الصدور وتتكتم عليه ولا تظهره. وكذلك ما يخافت به غيره فهو يعلمه بتفاصيله.

ويكشف الله تعالى المزيد من عورة سلوكهم، فيما يلمزون به المؤمنين، ويتنقصون به منهم ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ جاء في الحديث عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت آية الصدقة، كنا نُحَامِل، فجاء رجل فتصدق بشيء كثير، فقالوا: مرائي. وجاء رجل فتصدق بصاع، فقالوا: إن الله لغني عن صاع هذا. فنزلت ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[١] فإن هؤلاء الذين يطعنون ويعيبون ﴿ٱلْمُطَّوِّعِينَ ﴾ أي:

(١) البخاري، الجامع الصحيح (١/٤٣٧) برقم (١٤١٥)

المتبرعين من المؤمنين، ويتنقصون مما يقدمونه من الصدقات، فإن كان كثيراً، قالوا: مرائي، وإن كان قليلاً، قالوا: إن الله لغني عن عطائه، وكذلك يُعيبون ويتنقصون من المؤمنين الذين لا يجدون ما يتصدقون به غير طاقتهم، وقدرتهم القلية ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ فيعيبونهم المنافقون بذلك القليل من الصدقات ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ أي: يستهزئون بهم، وذلك بتحقير ما جادوا به، وقدموه من قليل العطاء والمشاركة، وكان هو غاية ما يتمكنون منه، ويستطيعون من العطاء والبذل. فيرد الله تعالى عليهم بجنس عملهم ﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فعاقبهم اللهُ تعالى بأن سخر منهم كما سخروا من المؤمنين، فأهانهم وأذلهم، وأما في الآخرة فلهم من الله تعالى العذاب المؤلم من شدته وأثره عليهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وهو العذاب الذي يتحقق لهم به كمال الألم والوجع.

وفي هذا بيان لأهمية الأدب مع أحوال المؤمنين عموماً، ومنه ما يعطونه ويقدمونه في سبيل الله تعالى، وفيما يقدمون من صدقات ومعروف ونحو ذلك، وسواء كان قليلاً أو كثيراً، وأن لا يحتقر المؤمن عطاء أخيه المسلم، ولا ينعته بالرياء، فهو أمر خفي لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى، ويتسع ذلك لكل جهد أو عبادة أو نحو ذلك، فلا يلمز غيره بعيب. كما يفيد هذا أن الله تعالى يقبل من كل إنسان ما يستطيع ويقدر عليه من جهده وبذله وقدرته، وأن على المؤمن أن لا يحصر الصدقة في كثير المال والأعيان، بل حتى بأقل القليل، ويدخل في ذلك ما يكون من اللسان بالقول والنصح والإرشاد والتوجيه والتعليم.

ومن كمال مقتهم من الله تعالى أن خاطب الله عزَّ وجل رسوله بما حكم عليهم ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ فإنهم ليسوا بأهل لاستغفار رسول الله صلى الله عليه وسلم، مما يفيد أن العذاب متحقق لهم، وواقع بهم من الله تعالى ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ فيخبر الله تعالى أنه حتى لو بالغ الرسول صلى الله عليه وسلم في الاستغفار لهم، فلن يغفر الله تعالى لهؤلاء المنافقين المستهزئين بدينه وبرسوله صلى الله عليه وسلم وبالمؤمنين ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ فعدم قبول استغفار النبي صلى الله عليه وسلم فيما لو استغفر لهم حتى سبعين مرة هو بسبب كفرهم بالله تعالى وبرسوله صلى الله عليه وسلم، مما يفيد أن الكافر لا ينتفع بدعاء المؤمن له، فليس للكافر مغفرة، إلا أن يتوب في حياته ويستغفر من كفره ويدخل في دين الله تعالى. وفي هذا تأييس لهم من مغفرة الله تعالى لهم، حتى لو بالغ الرسول صلى الله عليه وسلم في الاستغفار لهم.

وكل واحد من المنافقين يعرف نفاقه من نفسه، كما أن في ذلك إعذار للنبي صلى الله عليه وسلم من الاستغفار لهم، وفيه كذلك ترك فرصة للنبي صلى الله عليه وسلم فيما لو جامل أحداً واستغفر له، فإن الله تعالى لن يغفر له. جاء في الحديث أنه عندما توفي رأس المنافقين عبد الله بن أبي، جاء ابنه عبد الله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه، فأعطاه، ثم سأله أن يصلي عليه، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصلي عليه، فقام عمر رضي الله عنه فأخذ بثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، اتصلي عليه وقد نهاك ربك أن تصلي عليه؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم(إنما خيرني الله، فقال ﴿ ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ ﴾ وسأزيده على السبعين) قال: إنه منافق. فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓۖ ﴾[1] فتكون صلاته صلى الله عليه وسلم على المنافق عبد الله بن أبي لوجود التخيير، ولعدم وجود النهي له عن ذلك، وهذا من قوة رحمته وشفقته صلى الله عليه وسلم على من بُعِث وأُرسل إليهم، كقول إبراهيم عليه الصلاة والسلام في سورة إبراهيم ﴿ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣٦ ﴾ وذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى عن استغفار النبي صلى الله عليه وسلم: أنه إنما استغفر لقوم منهم على ظاهر إسلامهم من غير أن يتحقق خروجهم عن الإسلام، ولا يجوز أن يقال: علم كفرهم ثم استغفر لهم، وعن حصر العدد في السبعين، قال: أن العرب تستكثر في الآحاد من سبعة، وفي العشرات من سبعين[2] ليفيد أن عدد السبعين هو من باب الاستكثار للمبالغة.

ومن مزيد التوبيخ والتهديد والوعيد لهم هو بيان الله تعالى لسنته في الفاسقين ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ فالفاسق وهو الخارج عن دين الله تعالى، فإن الله تعالى لا يوفقه، فبعد أن أعرض ترك هداية الدلالة، وحاد وخرج عنها، فإن الله تعالى لا يتولاه بتوفيقه للإيمان، لأنه آثر على الإيمان والطاعة الكفر والخروج عن طاعته سبحانه وتعالى، واتباع رسوله صلى الله عليه وسلم. مما يفيد أهمية الحذر من مسلك النفاق والمنافقين والكافرين، والعض على دين الله تعالى بالتمسك به، وسؤال الله تعالى الثبات والتوفيق، اللهم اهدينا وحبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا وكرّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان واجعلنا من الراشدين، وأحسن خاتمتنا بفضلك ومنك وكرمك يا رب العالمين.

---

(١) البخاري، الجامع الصحيح (٣/٢٣٧) برقم (٤٦٧٠)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣/٣٢٤)

﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّاۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّاۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓۖ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ ﴾

يكشف الله تعالى المزيد من قبائح المنافقين. فقال عَزَّ وجل عنهم ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّاۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴾ فقد فرح المتخلفون من المنافقين بقعودهم وتركهم مرافقة النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين في غزوة تبوك. ومن جميل البيان ودقته أن جاء الوصف لحالهم بالفعل الذي لم يُذكر فاعله ﴿ ٱلْمُخَلَّفُونَ ﴾ ليفيد المتروكين خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم، فحالهم هو حال من تركهم الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنون خلفهم، ولم يعبر عنهم بحالهم الذي كان منهم، بل وصفهم بما يفيد التصغير لشأنهم، والتحقير لفعلهم. قال القرطبي رحمه الله تعالى: أي: جلس وأقعده غيره، عن الجوهري. والْمُخَلَّف المتروك، أي: خَلَّفَهُم اللهُ وثَبَّطَهُم، أو خلفهم رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنون لَمَّا علموا

تثاقلهم عن الجهاد[١] فكان السياق دقيق في مراده ومعناه إلى أقصى غايته. فسبحان من أظهر قوة الدلالات في بيانه العظيم، وقوة بلاغة سياقه في إظهار المغزى المراد على أكمل وأدق بيان.

وقد سرهم ذلك القعود والتَّخَلُّف عن النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ ﴾ فأفاد هذا الفرح والسرور بالتخلف أنهم غير مكترثين ولا مهتمين بأمر وشأن النبي صلى الله عليه وسلم، وليس له شأن ولا حساب في تقديرهم وتفكيرهم واهتمامهم، وأن النتيجة التي سيؤول بها المؤمنون لا تعني لهم شيئاً، وأنهم منفصلون تماماً عن دين الله تعالى ونصرته. ليتحقق فيهم معنى الكفر ودلالته. وجملة ﴿ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ ﴾ تفيد المخالفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين سار إلى تبوك، وقعدوا فلم يسيروا مع المؤمنين، مما يفيد الإمعان في بيان حقيقة التخلف، ودقة الوصف له، بأن قعودهم كان من أجل المخالفة، أو مخالفين للمطلوب منهم، ولما كان يجب عليهم تجاه رسول الله صلى الله عليه وسلم. ومن عمق البيان أن الله تعالى لم يذكر تخلفهم عن الغزوة، بل ذكر تخلفهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في شأن الغزوة، فالشأن متعلق بالنبي صلى الله عليه وسلم، فهو المرتكز في قضية تخلفهم، وهو عدم رغبتهم في نصرته. وفي هذا إظهار للمقصد بأدق التعيين والتحديد في بناء السياق.

بل كان الكره متعمق فيهم، فقال الله تعالى عنهم ﴿ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ فكرهوا أن يبذلوا نفوسهم وأموالهم لله تعالى، مما يدل على أن كرههم للدين جعلهم يكرهون الجهاد، بشقيه: جهادهم بأنفسهم، وجهادهم بأموالهم، مما يبين أن منطلق امتناعهم مبني على الكره ﴿ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ مما يؤكد معاداتهم وبغضهم وكرههم لدين الله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين. فإن هذه هي حقيقة المنافقين. هو تحليل لأنفسهم ما يختلج فيها بأدق البيان.

وتشجيعاً لعدم الخروج في الغزوة أن قال بعضهم لبعض: لا تنفروا في الحر ﴿ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّ ﴾ تهييباً من الخروج، واطماعاً لبعضهم البعض في التخلف والجلوس وعدم الخروج، وذلك بالتماس العذر لأنفسهم، ويجوز أن يتجاوز قولهم هذا بعضهم بعضا إلى المؤمنين، تشجيعاً وتخذيلاً لهم حتى يمتنعوا عن المشاركة، فيرد الله تعالى عليهم بما يناسب قولهم ﴿ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴾ قل لهم يا أيها النبي صلى الله عليه وسلم إن نار جهنم أشد من حر الدنيا لمن امتنع عن طاعة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه

(١) القرطبي، لجامع لأحكام القرآن (١٣٧/٨)

وسلم، وهو الذي تمنعون به وتتعذرون عنه من شدة حرارة الصيف. مما يفيد التحذير، والتهديد، والوعيد، والبيان والتوضيح أن عذاب الله تعالى أشد مما يتعذرون به من الحر وشدته، وأن تحمل المشاق في الدنيا أخف بكثير من تحمل عذاب الآخرة، وأن فوات الملذات في الدنيا زهيد ورخيص أمام تحصيل نعيم الآخرة، فإن المقارنة شاسعة البون بين ما في الدنيا وما في الآخرة، فيما لو كانوا يعقلون ويدركون ﴿لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ﴾ وفي هذا توبيخ لحالهم، بأن حالهم كحال الذي لا يفقه مصالحه، فيأخذ بالقليل الزهيد ليخسر أمامه العظيم الكثير، ويأخذ الفاني ويترك الباقي الذي لا يزول ولا يحول. مما يفيد أهمية التعقل وإعمال العقل بالتفكر والتأمل. وأن منهج الإسلام قائم في تعليمه وتوجيهه على الإقناع بالحجج والبيان والتوضيح، وليس قائم على التعسف وإرقام الناس من غير تعليم.

ثم يتوعدهم الله تعالى بما يستحقون جزاء لصنيعهم. فقال عَزَّ وجل ﴿فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ فليضحكوا ويتمتعوا بما يظنون أنهم فائزون بنفاقهم وتوليهم وكذبهم وبهذا الضحك القليل إذا ما قيس ببكائهم الكثير من العذاب المهين المقيم. وكلمة ﴿فَلْيَضْحَكُوا۟﴾ فعل أمر، يفيد التهديد والوعيد بالعذاب بعد الإمهال، وليس هو أمر لهم بالضحك فقط، بل بمقابلة الضحك القليل بالبكاء الكثير. كما أنه استهجان لفعلهم وفرحهم وصنيعهم المشين، وهو قياس على ما يفوتهم من الخير وما سيجدونه من العذاب، فليكن ضحكهم هذا قليل قياساً على طول البكاء مما سيصيبهم من العذاب المقيم، حيث أعقبه البيان للجزاء مباشرة ﴿وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا﴾ فسيبكون كثيراً من شدة ما سيجدون من العذاب، مقابل قليل ما ضحكوا وتفكهوا وفرحوا به من مخالفتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم. فما سيجدونه هو عقاب لما اكتسبوه وحازوا من عظيم إجرامهم ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ فالعقاب الذي سيجدونه هو بسبب ما كسبوه من نفاقهم وعصيانهم وتمردهم على دين الله تعالى، وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم. مما يفيد أنه يجب على العاقل أن يحسب أموره بعبرة المآل والعاقبة، وليس بتحصيل الفائت الزائل، وتقديمه على الكثير الباقي. فيقارن بين الدنيا والآخرة مقارنة العاقل الكيس الفطن.

ثم يخبر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بمنهجية التعامل معهم في قادم الأيام ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ﴾ فإذا أعادك الله تعالى إلى المدينة من بعد غزوة تبوك ﴿إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾ وهم أهل النفاق، لأن ليس كل من تخلف هو منافق، فهناك أصحاب الأعذار، وهناك

مَن لا عذر له من المؤمنين الذين عفا الله تعالى عنهم، وفي هذا دقة في الاحتراز، حتى لا يدخل في المقصود كل من تخلف، بل ليكن الأمر محصوراً في طائفة المنافقين الذين تخلفوا فرحاً وسروراً بمخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهم الكارهين أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم، فإن حصل من هؤلاء الاستئذان للخروج ﴿فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِلۡخُرُوجِ﴾ أي: فطلبت منك هذه الطائفة المنافقة الخروج معك لغزوة أخرى ﴿فَقُل لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ أَبَدٗا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّا﴾ فأخبرهم بمنعك لهم من الخروج معك ﴿أَبَدٗا﴾ نهائياً، وهو تأكيد للمنع من المشاركة مستقبلاً، فإنه قرار لا رجعة فيه أبداً، عقاباً لهم، ثم يؤكده بقرار آخر ﴿وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّا﴾ فهذا تأكيد آخر، مع التخصيص بأنكم لن تخرجوا معي في غزوة ولا سرية لمقاتلة الأعداء، فليس لهم الخروج والمشاركة مع النبي صلى الله عليه وسلم عموماً، وخصوصاً في الغزوات والسرايا. فاشتمل النص الأول على عموم الخروج ﴿لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ أَبَدٗا﴾ واشتمل النص الثاني على تخصيص وتعيين ما هو متعلق بالغزوات والسرايا ﴿وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّا﴾ فأفاد التأكيد والتفصيل، وهذا من دقة البيان في القرآن الكريم.

ثم ذكر الله سبحانه وتعالى تعليل الحكم من عدم خروجهم مع النبي صلى الله عليه وسلم ﴿إِنَّكُمۡ رَضِيتُم بِٱلۡقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٖ فَٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡخَٰلِفِينَ﴾ فقد رضيتم بالقعود والتخلف حين دُعِيتُم أول مرة للخروج مع النبي صلى الله عليه وسلم لغزوة تبوك، قال الزمخشري رحمه الله تعالى عن ﴿أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ هي الخرجة إلى غزوة تبوك، ودلالة ﴿مَرَّةٖ﴾ نكرة، وضعت موضع المرات للتفضيل ... وهو دال على واحدة من المرات[1] ﴿فَٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡخَٰلِفِينَ﴾ فالكم الذي يليق بكم هو القعود ﴿مَعَ ٱلۡخَٰلِفِينَ﴾ قال القرطبي رحمه الله تعالى: الخالفين جمع خالف، كأنهم خلفوا الخارجين، قال ابن عباس: ﴿ٱلۡخَٰلِفِينَ﴾ من تخلف من المنافقين، وقال الحسن: مع النساء والضعفاء من الرجال، فَغَلَّب المذكر. وقيل المعنى: فاقعدوا مع الفاسدين، من قولهم: فلان خالفة أهل بيته إذا كان فاسداً فيهم[2] ولا يمنع أنها تشمل جميع تلك الأنواع من أحوال التخلف

(١) الزمخشري، الكشاف (٢/٢٩٣)

(٢) القرطبي، لجامع لأحكام القرآن (١٣٨/٨)

والخالفين، فإن الأجدر والأليق بكم هو الجلوس معهم، فلا حاجة لنا بمن هذه صفتهم. وذلك لتعظيم جرمهم وفساد نفاقهم. وفي هذا ما يفيد أهمية العقوبة، وأهمية المعالجة، والحزم في الأمر.

فهناك من يطمع في الخروج من أجل الغنيمة وليس من أجل الجهاد، فيكون منعهم عقوبة لهم، وكذلك منع فسادهم فيما لو ذهبوا مع المسلمين، لما قد يحدث منهم من الغدر والخيانة والتخذيل، وغير ذلك. كما أن في منعهم توبيخ ونكال لهم، وتحذير من أن يفعل أحد مثل فعلهم، وقد بان عظيم جرمهم.

ثم يتعاقب بيان الله تعالى عن منهجية التعامل معهم بالعقوبة التي يستحقونها ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا ﴾ أي: من المنافقين ﴿وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ﴾ أي: لا تقف على قبره، ليفيد عدم الدعاء له، وأن لا يتولى دفنه، لأنه صلى الله عليه وسلم كان يقف على قبر المؤمن ويدعو له. ثم ذكر سبحانه وتعالى علة النهي ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ فإنهم قد كفروا، فلا يُصَلَّى على الكافر، ولا يُدعى له عند قبره، ولا يُدْعَى له نهائياً ﴿وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ فقد ماتوا وهم خارجون من الإسلام، مفارقون لأمر الله تعالى ونهيه، لأن الفسق هو الخروج، فقد خرجوا عن ملة الإسلام. ومن تمحيص كفرهم أن ذكر الله تعالى أنهم كفروا بالله، وكذلك برسوله صلى الله عليه وسلم ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ بأن أنكروا أنه نبي، ولكن يخفون ذلك، لنفاقهم.

ثم ينهى الله تعالى عن الغرور بأموالهم وأولادهم ﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ﴾ فلما أن كثرة المال والأولاد محل اغترار بها، لما لها من أثر في القوة، فقد نهى الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم، والمؤمنون تبع له من أن يحصل شيء من الإعجاب الذي يقود إلى الغرور بشبابهم المتمثل في أولادهم، أو الغرور بكثرة أموالهم، وفي هذا تأكيد لما سبق في هذه السورة من قوله تعالى ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ فلا تستحسن ما أنعمنا به عليهم من الأموال والأولاد مع كفرهم ونفاقهم، فإن لها عند الله تعالى مغزى آخر، وهو ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ فإن عطاء الله سبحانه وتعالى لهم لهدف وغاية، حتى تكون تلك الأموال والأولاد عذاب عليهم، ففي الدنيا بجهد البحث والتحصيل، وبالغم والهم من الخوف عليها من الزوال والضياع، ولما يلزمهم من النفقات مع المؤمنين، والتي يدفعونها وهم كارهون، فيكون ذلك عليهم عذاب شديد. ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ وتكون تلك الأموال والأولاد عند ذهابها

ومفارقتها عذاب عليهم، لأن قلوبهم متعلقة بها، فتكون حُرقة على أفئدتهم، ووبالاً في الآخرة، فيتعذبون بها، لقاء تجاهلهم لما كان يجب عليهم فيها، فضيعوها وضيعوا أنفسهم بكفرهم. مما يفيد أن المال قد يكون وبالاً وحرقة على الإنسان، مما يجب على المؤمن أن يعتبر بذلك، فيؤدي حقوق المال وحقوق الأولاد في الإعالة والتربية الصالحة.

ويكشف الله تعالى المزيد عن قلوبهم وتصرفاتهم التي تدل على كفرهم ﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴾ فإذا أنزل الله تعالى سورة من القرآن يأمر فيها بالإيمان بالله تعالى، والجهاد في سبيله مع رسوله صلى الله عليه وسلم، فإن أولي الطَّول الذين هم ذوي الغنى والأموال يستأذنونك ﴿ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ ﴾ فأولئك الذين أنعم الله تعالى عليهم، وقد انتفى العذر عنهم يستأذنون في التخلف من أجل القعود مع أموالهم ودنياهم، غير مكترثين بأمر الله تعالى، وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، وغير مستشعرين بما أنعم الله تعالى عليهم من تلك الأموال ﴿ وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴾ أي: اتركنا نقعد مع من قعدوا في منازلهم من العاجزين والضعفاء والمرضى، وممن لا قدرة لهم على الخروج معك في السفر من العاجزين. فقد ارتضوا لأنفسهم أن يكونوا مع الخوالف ﴿ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ ﴾ ارتضوا لأنفسهم أن يتخلفوا ويقعدوا مع النساء والغلمان والمرضى وهم في كمال قدرتهم، وفي هذا تشنيع لصنيعهم، إذ كيف يرضون على أنفسهم أن يكونوا مع صنف النساء والقواعد، وفي هذا مخاطبة لعقولهم، ولأخلاقهم ورجولتهم، التي كان يجب أن لا يرضوا على أنفسهم بمثل ذلك، ولهذا التمادي في طغيانهم وغيهم. وقد عاقبهم الله تعالى بما بينه عَزَّ وجل، فقال جَلَّ جلاله ﴿ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ﴾ ختم الله تعالى على قلوبهم، فلا تفقه ولا تعي الخير الذي يقودها للنجاة والفلاح، فعاقبهم بجنس فعلهم وصنيعهم، فقد تغافلوا وكأنهم لم يفقهوا شيئاً مما جاءهم من الله تعالى، فعاقبهم سبحانه بعقاب هو من جنس فعلهم، بأن طبع على قلوبهم بعدم إدراك الخير والسير فيه.

وفي قوله تعالى ﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ﴾ تذكير وربط بين الإيمان والجهاد في سبيل الله تعالى، فافعلوا فعل المؤمن، الذي استدام الإيمان في قلبه فجاهد في سبيل ربه تبارك وتعالى، فجاهدوا في سبيله سبحانه وتعالى، مما يفيد أن الذي يجاهد في سبيل الله تعالى هو من استدام الإيمان في قلبه، فأمر نفسه بالجهاد، وأن الذي يمتنع عن الجهاد من غير عذر فهو لم يستدم الإيمان في قلبه، ليندفع طائعاً ومستجيباً لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم، وليفيد أن المنافقين لا يفعلون فعل المؤمن، بل يفعلون الفعل المضاد لنهج المؤمن.

ثم يؤكد الله تعالى الاستجابة والعلاقة التفاعلية بين الإيمان والنداء للجهاد في سبيله عَزَّ وجل ﴿ لَـٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَـٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ﴾ فهذا تأكيد لما سبق من العلاقة بين الإيمان والجهاد، فإن الرسول صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم، إذ دفعوها في سبيل الله تعالى، وكذلك جاهدوا بأنفسهم، فلم يكتفوا بالأموال، بل عَزَّزُوا ذلك بالجهاد لقوة إيمانهم، فبذلوا نفوسهم في سبيل الله تعالى، وليس مثل المنافقين الكافرين الذين أظهروا كفرهم بالفرح والسرور بتخلفهم، والقعود مع العاجزين وغير القادرين من النساء والأطفال والضعفاء والعجزة. وأفادت ﴿ لَـٰكِنِ ﴾ أن تخلف هؤلاء المنافقين ليس له أهمية، وليس له ضرر على دين الله تعالى، فهناك الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنون جاهدوا ويجاهدون بالأموال والأنفس.

ثم بين الله تبارك وتعالى ثواب الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ﴾ فهؤلاء لهم ﴿ٱلْخَيْرَٰتُ ﴾ التي هي صفة جامعة لجميع أنواع الخير، من غنائم الدنيا ومنافع الجهاد، وخيرات الجنان من الحسان وأعالي الجنان ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ فهؤلاء هم الذين فازوا وربحوا، فَحَصَّلُوا الفوز العظيم، وصفة الفلاح هنا عامة، لتستوعب كمال وشمولية دلالته ومعانيه، وأيضاً فلاح الدنيا والآخرة. وكذلك فإن الله تعالى قد هيأ لهم وأنشأ لهم جنات ﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ﴾ فأعد الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين الذين آمنوا معه جنات، وهي البساتين التي تجري من تحت أشجارها الأنهار ﴿ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ أي: لابثين مقيمين فيها أبداً، لا يموتون فيها، ولا يخرجون عنها ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ فهذا هو الفوز الحقيقي، لما فيه من الحظ الجزيل، الذي لا حظ بعده. وصفة العظيم تبين فخامته وكثرته وسعته وسروره وبهجته التي ينعم بها المؤمن نعيماً لا ينقطع ولا ينقص.

﴿ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ

يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُۚ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا
يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا
ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ
وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ
عَنْهُمْۖ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾
يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْۖ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ
ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾

يخبر الله سبحانه وتعالى عن حال مَنْ لم يخرج لغزوة تبوك، فمنهم من جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يلتمس أن يقبل عذره عن الخروج معه، وهم الأعراب، ومنهم من تخلف من غير عذر، ولم يعتذر ويستأذن النبي صلى الله عليه وسلم. فقال الله تبارك وتعالى ﴿ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ ﴾ أي: جاء من الأعراب معتذرون إلى النبي صلى الله عليه وسلم، يبينون له ما هم فيه من الضعف، وعدم القدرة على الخروج، وهم من أحياء العرب ممن حول المدينة[1] قال الزجاج رحمه الله تعالى: من قرأ ﴿ ٱلْمُعَذِّرُونَ ﴾ بتشديد الذال، فتأويله: المعتذرون الذين يعتذرون، كان لهم عذر، أو لم يكن، وهو هاهنا أشبه بأن يكون لهم عذر[2] ففي هذا البيان على أن لهم أعذار. وكان ابن عباس رضي الله عنهما يقرأ **(وجاء المُعذِرُونَ)** مخففة، ويقول: هم أهل العُذْر[3] ويدل على ذلك الصنف المقابل لهم الذين قال الله تعالى عنهم ﴿ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ ومن الفوائد: في قوله تعالى ﴿ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ ﴾ أي: جماعة منهم، وليس جميعهم.

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٣٩٥) ملخص

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣/٣٢٨)

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١١/٦٢٠)

ثم ذكر الله تعالى الذين لم يعتذروا ولم يستأذنوا النبي صلى الله عليه وسلم في عدم الخروج ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ ذكر الشوكاني رحمه الله تعالى بأنهم المنافقون، الذين كذبوا الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، ولم يؤمنوا، ولا صدَّقوا[1] وهي صفات الكفر التي اتصف بها المنافقون، حيث يظهرون أنهم مؤمنون وهم يكذبون بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم.

والخلاصة: قال المفسرون: جاء هؤلاء ليؤذن لهم في التخلف عن تبوك، فأذن لهم رسول الله صلى عليه وسلم، وقعد آخرون من المنافقين بغير عذر وإظهار علة، وجرأة على الله تعالى[2] فهؤلاء المنافقون قد توعدهم الله تعالى بقوله عَزَّ وجل ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ سيصيب الذين كفروا ممن تخلف عذاب شديد الوقع والأثر على أبدانهم ونفوسهم، وخص الكافرين ممن تخلف بهذا العذاب، لأن ليس كل من تخلف يستحق ذلك، لأن منهم أصحاب الأعذار، وسواء كان هذا العذاب في الدنيا أو في الآخرة، أو في الدارين معاً. مما يفيد أهمية الصدق بعد الإيمان، وخطورة مسلك النفاق، وأن مآل الكافرين إلى عذاب الله تعالى وانتقامه منهم. وفي هذا تهديد وتحذير لهم، ولمن يسلك مسلكهم.

ثم يخبر الله تعالى عن إعذاره الكريم لأهل الأعذار، فحدد تحديداً دقيقاً لعلة وأسباب إعذارهم، بما يرفع عنهم لومهم أنفسهم ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ فقد نفى الله تعالى اللوم عن أصناف أهل الأعذار بأداة النفي ﴿لَّيْسَ﴾ مع بيان رفع الحرج، ليفيد ويقرر الحصر لهذه الأصناف، ثم جاء ترتيبهم ترتيباً بليغاً في تدرجه بحسب قوة الموانع، وهذا من عمق السياق وقوة البيان وبلاغته. فالصنف الأول: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ﴾ وهم الضعفاء نتيجة بنيتهم الجسمية، وسواء كان ذلك من أصل الخلقة، أو طارئ طرأ على المعذور ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ﴾ ويدخل فيهم: الهرم، والصغير، وضعيف العقل، والمجنون، والأعمى

(١) الشوكاني، فتح القدير (٢/٣٩١)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣/٣٢٨)

والأعرج، ونحو ذلك، فاستوعبت دلالة ﴿ٱلضُّعَفَآءِ﴾ كل ما يتحقق به الضعف البشري. ثم الصنف الثاني: ﴿وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ﴾ الذين بهم عللاً عارضة مانعة من الخروج، بسبب المرض، والذي قد يخلفه شفاء وعافية، أو مرض ملازم له. ولكن جاء الإعذار على أصل المانع، وهو المرض، ليستوعب حالاته، وتقلباته. ثم الصنف الثالث: وهو المانع المتعلق بالمال، دون البدن ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ﴾ فهؤلاء نتيجة قلة مالهم، لا يجدون النفقة وما يُجَهزُون به أنفسهم للجهاد. فهؤلاء أعذرهم الله تعالى من عنده ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ﴾ فنفى عنهم الحرج الذي هو الإثم، بشرط ﴿إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ إذا نصحوا عند غيابهم عن الجهاد لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم، وجاء النصح عاماً ليشمل: كل ما يحقق الصلاح، ويصرف الفساد، وفق منهج الله تعالى، فيخلفوا المجاهدين بخير في أهلهم وأموالهم، والذب عن الدين، وتقويته، وسائر ما يقود إلى تحقيق الخير، ويدفع الشر، ويعود على استقامة الدين، وأهله، ومنع الفساد والمفسدين.

ثم زاد الله تعالى في تحقيق طمأنينة هؤلاء أصحاب الأعذار، بأن أكد ذلك بقوله عَزَّ وجل ﴿مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٖ﴾ فليس على من أحسن طريقاً لمعاقبته ومؤاخذته، لأن المحسن قد سد بإحسانه باب العقاب، وقد سماهم الله تعالى بالمحسنين إن هم استوفوا ما اشترطه عليهم ﴿إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ وفي هذا بيان وتأكيد من الله تعالى بأنهم من أهل الصنف المحمود، المحبوب عند الله تعالى، الموصوفون بالمحسنين، إذ لم يمنعهم من الخروج في سبيله سبحانه وتعالى إلا تلك الموانع من الأعذار.

ثم ختم الله تعالى الآية ببيان صفتين كريمتين من صفاته الكريمة العظيمة، فقال جَلَّ جلاله ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ فربكم مُتَّصف بمغفرة الذنوب ومحوها عن المؤمن، وأنه مع مغفرته لهم فإنه رحيم بهم، فمن رحمته أن أعذر أهل الأعذار، وأبان لهم الطريق والمسلك الذي يقربهم منه سبحانه وتعالى، وهو النصح له عَزَّ وجل، ولرسوله صلى الله عليه وسلم، وأن من رحمته أن رفع عنهم الحرج، وأضافهم لجملة المحسنين، الذين يحبهم الله تعالى.

ومن بلاغة البيان الرباني أن الله تعالى جمع جميع أنواع تلك الأصناف من أصحاب الأعذار في ثلاثة أصناف، وكل صنف استوعب أفراد جنسه، من غير نقص ولا زيادة.

ثم ذكر سبحانه وتعالى صنفاً قد عَزَّ عليهم أن يخرج النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه لغزوة تبوك، وهم باقون في البيوت، يبكون حرقة على عدم مشاركتهم للنبي صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين،

وكل ذلك من حبهم لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم، فخصهم الله تعالى بالذكر، رغم أنهم يدخلون ضمن صنف أهل الأعذار، لأنهم لا يجدون ما يحملهم مع المجاهدين، فعطف الله تعالى هؤلاء البكاؤون على تلك الأصناف الثلاثة تأكيداً وتخصيصاً وتنويهاً بهم ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ فلا سبيل ولا حرج على النفر الذين جاءوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليحملهم على المراكب للغزو، فاعتذر عليه الصلاة والسلام لهم، وذلك لعدم وجود ما يحملهم عليه معه للغزوة ﴿قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾ وقد جاء عن الذين طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحملهم عليه ثلاثة أقوال، كما ذكرها ابن الجوزي رحمه الله تعالى: أنها الدواب، قاله ابن عباس رضي الله عنهما. والثاني: الزاد، قاله أنس بن مالك. والثالث: النعال، قاله الحسن[١] وفي هذا ما يفيد أنهم لو وجدوا الدواب التي تحملهم لخرجوا في الغزوة، ولو وجدوا الزاد الذي يسد رمقهم في غزوتهم، ووجدوا النعال التي تحمي أقدامهم من حرارة الأرض لذهبوا سيراً، ولعل كل واحد منهم يحتاج إلى عددٍ من النعال التي تستهلك في مسافة الطريق الطويلة.

فلم تجد أيها النبي ما يمكن أن تحملهم عليه من المراكب التي يمكن أن يركبوها؛ ليشاركوا معكم في الغزوة، فاعتذرت إليهم ﴿قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ فخرجوا من عندك متولين عائدون إلى بيوتهم يبكون ﴿وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ﴾ أي: امتلأت من الدمع حتى فاضت وانسكبت دموعهم على خدودهم. وكلمة ﴿تَفِيضُ﴾ توضح كثرة الدمع في العيون، حيث كَثُر فيها حتى امتلأت، ففاضت من ضفتيها، فأخذت تجري على خدودهم، وكل ذلك حزناً على قلة ذات اليد ﴿حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ فَرَقَّت قلوبهم من شدة أَلَم التَّحَسُّر على عدم وجود ما ينفقونه على أنفسهم، ليشاركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بما يستطيعون في خروجهم لغزوة تبوك.

فسبحان الله العظيم، فقد كانت هناك مفارقات عجيبة، إذ كان في المقابل من كان فرحاً مسروراً بالتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ بِمَقۡعَدِهِمۡ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ وهناك من جاء صادقاً معتذراً لوجود موانع الخروج لديه، وهناك من تألم حتى بلغ به الأمر والشأن درجة الحزن

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣/٣٣٠)

والبكاء، ففاضت أعينهم، وتكاثر دمعها، حتى سالت على خدودهم، ومن جميل الوصف أن كلمة ﴿تَفِيضُ﴾ وصفت عظيم تأثرهم لعدم مشاركتهم، ووصفت ما كان منهم من كثرة البكاء، وقوة أثره عليهم، كما أعطت كلمة ﴿تَفِيضُ﴾ دلالة امتلاء العيون من الدمع، الذي لم تستوعبه جفونهم، ففاضت به من غزارته وكثرته، فخرجت دموعهم عن حدود طاقة عيونهم.

وأما عموم جملة ﴿وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ﴾ فإنها الجملة العظيمة المعبرة عن وصف واقعهم وحالهم، وما كان منهم، وما كان من حبهم لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم، وللجهاد وبذل النفس والمال في سبيل الله تعالى. وقد جاء في الحديث عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم: رجع من غزوة تبوك، فَدَنَا من المدينة، فقال (إن بالمدينة أقواماً ما سرتم مسيراً، ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم. قالوا: يا رسول الله، وهم بالمدينة؟ قال: وهم بالمدينة، حبسهم العذر)[١]

وقيل إن عددهم سبعة، رضي الله عنهم وأرضاهم، وهم: سالم بن عُمير: من بني عمرو بن عوف. وهَرَمِي بن عمرو: من بني واقف. وعبد الرحمن بن كعب، ويُكَنَّي أبا ليلى. من بني مازن بن النجار. وسلمان بن صخر: من بني المُعَلَّى. وعُلْبةُ بن زيد. وهو الذي تصدق بعرضه، فقبله الله منه: وهو من بني حارثة. وعمرو بن غَنَمة، وعبد الله بن عمرو المُزَنِي: من بني سَلِمَة [٢]

وبعد أن أعذر الله تعالى أهل الأعذار، وبَيَّنَ الذين تُقْبَل منهم أعذارهم، أوضح جَلَّ جلاله: أن العقوبة إنما تكون على الذين ليس لهم أعذار حقيقية صادقة ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ وَهُمۡ أَغۡنِيَآءُۚ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ فإن سبيل وطريق العقوبة ليس على أهل الأعذار الصادقة، وإنما طريق العقوبة وسبيلها على الذين يستأذنونك في التخلف عن الجهاد وهم أغنياء: بالمال والقوة والطاقة والقدرة على الجهاد والغزو، ولكنهم رضوا بالجلوس مع الخوالف من النساء والصبيان والضعفاء، وفي هذا ما يفيد تساهلهم، ورضاهم على أنفسهم بذلك، وانتفاء جميع الموانع عنهم، فَغَلَّبُوا القعود مع الخوالف على طاعة الله تعالى وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، وهو الأمر الذي لا يليق بالعاقل من الناس إلا من كان في قلبه مرض النفاق والكفر. فعاقبهم الله تعالى بجنس صنيعهم، وتصرفهم المخالف لما علموه وعرفوه من دين الله تعالى ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ فختم الله تعالى بذنوبهم على قلوبهم، فجعلهم لا يعلمون أحسن وأفضل ما يختارون، فتشابه عندهم الخير والشر، والعاقبة الحسنى

(١) البخاري، الجامع الصحيح (٣/١٨٠) برقم (٤٤٢٣)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١١/٦٢٧)

الباقية، بالعاقبة الفانية الخاسرة. مما يفيد أن الله تعالى قد يعاقب العبد بجنس معصيته، مما يفيد التحذير من المعاصي، فاللهم نسألك أن ترحمنا وتغفر لنا وتهدينا، ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، وأن ترزقنا حسن الخاتمة يا رب العالمين.

ثم يخبر الله تعالى بما سيكون من المنافقين عند عودة النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين إلى المدينة من الغزوة ﴿يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ إِذَا رَجَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ﴾ فإن هؤلاء المتخلفون الكاذبون في أعذارهم، سوف يأتون إليكم بأعذار باطلة، فَرُدَّ عليهم وجاوبهم بأن الله تعالى أعلمنا بشأنكم الحقيقي، من أنكم كاذبون، فليس لكم أعذار حقيقية صادقة ﴿قُل لَّا تَعۡتَذِرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡ﴾ فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، وأتوه يعتذرون، نهاهم عن الاعتذار بالكذب ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ﴾ لن نصدقكم ﴿قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡ﴾ فقد أخبرنا الله تعالى من أخباركم، وسرائركم ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ﴾ فسوف يرى الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم مِن قادم أيامكم ما سيكون منكم، هل تعملون الخير وتتوبون إلى الله تعالى من تخلفكم وكذبكم ونفاقكم، أو تستمرون وتبقون على ما أنتم عليه من النفاق. فاعلموا أن مرجعكم إلى الله تعالى ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ فإن مآلكم ومرجعكم بعد الموت إلى الله تعالى، الذي يعلم الغيوب جميعاً، والتي منها سرائركم، وكذلك يعلم الأعمال الظاهرة جميعها، والتي منها أعمالكم وأقوالكم، فإن الله سبحانه وتعالى عالم بالغيب كما هو عالم الشهادة، فلا تخفى عليه خافية ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ فسوف يخبركم بما كان منكم من أعمال قد عملتموها في السر أو العلانية، وفي هذا موعظة وتذكير لهم ولغيرهم، مما يدل على رحمة الله تعالى، إذ يقابل هؤلاء المنافقين بالنصح والإرشاد مع عظيم جرمهم، فيعظهم ويفتح لهم باب الرجوع إليه، مما يدل على حلم الله تعالى ورحمته بالعباد، وأنه ما أراد لهم إلا الخير والفلاح والنجاة، فما أرحمك يا أرحم الراحمين.

ثم يخبر الله تعالى بما سيكون من المنافقين عند العودة من غزوة تبوك من الإلحاح على قبول أعذارهم، بعد أن فرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ إِذَا ٱنقَلَبۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ لِتُعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡ﴾ فمن شدة رغبتهم في صفح المؤمنين عنهم أن التجأوا للحلف بالله تعالى، طالبين من المؤمنين الإعراض عن ما بدر منهم ﴿لِتُعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡ﴾ أي: لتصفحوا عما وقعوا فيه، فلا تعاتبوهم، ولا تقاطعوهم، فتعرضوا عن معاملتهم بالمقاطعة، مما يفيد أنهم أدركوا بما سيكون من المؤمنين تجاههم، بأنهم سيعرضون

عنهم، وقد أكد تبارك وتعالى ذلك ببيان وجمتهم أنها ﴿لَكُمْ﴾ فسيكون الحلف لكم أيها المؤمنون ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ﴾ أي: للمؤمنين عموماً، ولم تكن للرسول صلى الله عليه وسلم خصوصاً، بل على وجه العموم ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ﴾ مما يفيد أن الهدف ليس إرضاء الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، وإنما من أجل التعايش، ولو لم يكن كذلك لخص مجيئهم بالنبي صلى الله عليه وسلم، الذي طاعته هي طاعة لله تعالى، وهذا من دقة الوصف والبيان لحالهم ومرادهم بأقل الألفاظ. ويفيد حرف السين في قوله تعالى ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ﴾ أنه حرف استقبال للقريب، مما يفيد سرعة المجيء إليكم. قال مقاتل: حلف عبد الله بن أُبي للنبي صلى الله عليه وسلم، لا أتخلف عنك، ولأكونَنَّ معك على عدوك، وطلب منه أن يرضى عنه، وحلف عبد الله بن سعد بن ابي السرح لعمر بن الخطاب، وجعلوا يترضون النبي واصحابه.(١)

فمن جميل البيان ودقته أنه لم يقل سبحانه وتعالى: سوف يحلفون بالله لكم، إذ سوف تكون للبعيد، ليبين أنهم سيسارعون في الاعتذار إليكم. ومن دقائق البيا كذلك أن أخبر الله تعالى عن وقت الحلف ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ إذ تفيد جملة ﴿إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ أي: حال الرجوع إلى المعتذرين، فسيحلفون كذباً وزوراً، وهم الذين فرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد يكون عند دخول المدينة، أو قبل دخولها، وذلك عند استقبالهم للمؤمنين، خاصة وأن كلمة ﴿سَيَحْلِفُونَ﴾ تدل على سرعة الاعتذار. وهذه من دقائق البيان وبلاغته، وتعاضده في دلالة ألفاظه ومعانيه، وفي الوصف الدقيق المتناهي في دقته. فسبحان من أعجز بيانه بلاغة البلغاء.

ثم يوجه الله تبارك وتعالى المؤمنين لمنهجية التعامل مع هؤلاء المنافقين ﴿فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ﴾ لا تعاتبوهم وتؤنبوهم، فاتركوهم وما اختاروا لأنفسهم من الكفر والنفاق، وفي ذلك احتقار لهم، وعدم مبالة لشأنهم، ثم علل تبارك وتعالى سبب ترك معاتبتهم ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ فإنهم نجس، وكلمة ﴿رِجْسٌ﴾ تستجمع الأوصاف النتنة التي تُوجب التحرز منها، فإنها خبيثة بواطنهم واعتقاداتهم، وأن أعمالهم قبيحة نتنة، لا يقبلها عاقل. ومن دلالاتها اللغوية أن الرجس هو: النتن، والقذر، وكل شيء يُسْتَقذَر فهو رجس، وكذلك الرجس: النجس(٢) مما يفيد أن مَنْ كانت هذه حالهم فإن المعاتبة والنصح لا تُجدي ولا تنفع معهم، وإن تطهرهم من النفاق وما هم

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣٣١/٣)

(٢) الفيومي، كتاب المصباح المنير (٢٩٨/١)

فيه من الكفر أمر متعذر، فلا سبيل لتطهيرهم من الكفر النفاقي الذي هم فيه، ولذلك أكد سبحانه وتعالى ذلك التعليل بنهايتهم التي سيكونون عليها ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ فمصيرهم ومآلهم ومساكنهم التي سيأوون إليها في الآخرة هي جهنم ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ جزاء لما كسبوه وحَصَّلُوه من النفاق والكذب والكفر، فلا تكلفوا أنفسكم بمعاتبتهم وتوبيخهم وهذه حالهم في الآخرة، وحالهم في الدنيا أنهم رجس، لا يأتي منهم إلا ما يُسْتَقذَرُ منه، فليس فيهم نفع لا في الدنيا ولا في الآخرة. ومن عدل الله تعالى أن جعل جزاؤهم بناء على تحصيلهم في الدنيا، فلم يظلمهم تبارك وتعالى.

ثم كشف اللهُ عَزَّ وجل عن مراد وغرض المنافقين المتخلفين من الحلف ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ﴾ فهدفهم هو أن ترضوا عنهم، حتى لا تقاطعونهم ولا تعاتبونهم، وتقبلون عذرهم بالحلف بالله تعالى كذباً وبهتاناً وزوراً. لأن في قبول اعتذارهم مصلحة دنيوية يبتغونها ويهدفون إليها، وفي مقاطعة المؤمنين مضرة متحققة في حقهم من كل وجه. قال مقاتل: حلف عبد الله بن أُبي للنبي صلى الله عليه وسلم، لا أتخلف عنك، ولأكونَّ معك على عدوك، وطلب منه أن يرضى عنه، وحلف عبد الله بن سعد بن ابي السرح لعمر بن الخطاب، وجعلوا يترضون النبي واصحابه. وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدم مجالستهم، فلما قدم المدينة قال عليه الصلاة والسلام (لا تجالسوهم ولا تكلموهم)[1]

ثم يوضح الله تعالى للمؤمنين حُكْمُهُ الجازم في المنافقين الكافرين ﴿فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ فامتناع الله تعالى عن أن يرضى عنهم مجزوم به عن كل فاسق، حتى ولو رضيتم عنهم أيها المؤمنون، فإن رضاكم عنهم لا يوجب رضى الله تعالى عنهم، فإنه أمر قطعي لكل فاسق، وفي هذا تنبيه وتأكيد للمؤمنين أن حال هؤلاء هو حال الفاسقين. الذين خرجوا عن طاعة الله تعالى وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، كما يفيد هذا أن رضاكم عنهم لا ينفعهم إن كان الله تعالى قد سخط عليهم.

ومن دقائق القرآن الكريم وبلاغته أن أعطى حكماً عاماً، ليشمل المنافقين وكل من خرج عن منهج الله تعالى ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ فالفاسقون هم الخارجون عن طاعة الله تعالى، وطاعة رسول صلى الله عليه وسلم. وهذا حكم عام، أفاد أنه في حق كل من خرج عن طاعة الله تعالى وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم.

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣/٣٣١)

﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ
حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ
سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ
قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ
عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ
ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا
تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟
بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ
أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ
يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ
ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾

ينتقل السياق الكريم إلى حال الأعراب، وهم من سكن البوادي، بخلاف معنى العرب، فإنه معنى عام لهذا النوع من بني آدم، سواء سكنوا البوادي أو القرى، فالأعراب صيغة جمع، وليست بصيغة جمع العرب. فمن استوطن القرى العربية فهو عربي، ومن نزل البادية فهو أعرابي [١]

فقال تعالى عنهم ﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا ﴾ أي: أشد جحوداً لتوحيد الله تعالى، وأشد نفاقاً من أهل الْحَضَرِ في القرى والأمصار، وإنما وصفهم جَلَّ ثناؤه بذلك لجفائهم، وقسوة قلوبهم، وقلة مشاهدتهم لأهل الخير، فهم لذلك أقسى قلوباً، وأقل علماً بحقوق الله تعالى[٢] فهم أقسى قلباً، وأجفى قولاً، وأغلظ طبعاً،

---

(١) الشوكاني، فتح القدير (٢/٣٩٥-٣٩٦)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١١/٦٣٢)

وأبعد عن سماع التنزيل[١] فهم أشد قسوة من أهل الحَضَر لنشأتهم البعيدة عن مشاهدة ومجالسة العلماء، مما يفيد أن العلم والتحضر يوجه ويرقق المشاعر، وأن المخالطة والمشاهدة للبيئات الأخرى يحد من الشدة، ويُذيب القسوة، وأن معايشة الجبال والصحاري، وما فيها من ضنك العيش قسوته ينعكس أثره على الطبيعة البشرية، ويقوي لديها النفرة، والقسوة. مما يفيد أن في معرفة طبائعهم ما يتطلب الحكمة في التعامل معهم.

ثم قال تعالى عنهم ﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ فالأعراب أحق وأجدر وأخلق بهم أن لا يعلموا حدود وضوابط وفرائض ما أنزل الله تعالى من الحلال والحرام على رسوله صلى الله عليه وسلم، لعدم مخالطتهم لأهل ديار التنزيل، ومواطن الأنبياء، فليس لهم من العلم والمعرفة نصيب. وفي هذا الكشف عن هذه الطبائع التي قد لا يدركها الإنسان، ما يبين دقة علم الله تعالى الذي يوجب على العبد طاعته واتباعه ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ فهو عليم سبحانه وتعالى بعباده، وبخصائصهم وأحوالهم، وبما يكون منهم، فلا يخفى عليه من أحوالهم شيء. وكذلك هو حكيم في معاملته لهم، وبما يجازيهم به، وفي حلمه عليهم، فلا يستعجل لهم العقوبة سبحانه وتعالى. كما يفيد هذا أهمية معرفة الطبائع البشرية، حتى يستطيع أن يتعامل معها الناصح والمرشد والداعية بما يتناسب وأحوالهم، ليحقق الهدف والغاية فيهم.

وبعد أن ذكر الله تعالى الوصف العام للأعراب بقوله سبحانه وتعالى ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ يخبر الله تعالى عن حال طائفة من الأعراب ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ فطائفة من الأعراب لهم مسلك مذموم في التعامل وفي النية ﴿مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا﴾ فمنهم من يتخذ ما ينفق من نفقة فيما ندب الله تعالى إليه كالصدقة، أو معونة مسلم أو ما يقدمه للجهاد، فإنه يتخذه ﴿مَغْرَمًا﴾ أي: غرامة وخسارة مدفوعة، وليس لوجه الله تعالى، وابتغاء مثوبته، بل لا أجر ولا ثواب يرجوه من وراء ذلك، وإنما يتوقى به من المسلمين. وكذلك من تعامل بعض هؤلاء الأعراب ومسلكهم المذموم ما قاله الله تعالى عنهم ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ﴾ ينتظرون الساعة التي تدور بها الأيام عليكم، فتنقلب فيها حالكم إلى ما تكرهون من الشر، كالهزيمة والقتل، والزوال، حتى يتخلص مما يراه مغرماً مما ينفقه يُثقله.

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٤٧/٨)

ومن جمال البيان: دقته في تصور حالهم، مع العدل في الوصف. فقد قرر الله تعالى وحكم بأن منهم وليس جميعهم ﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ ﴾ على ما سيأتي عن الطائفة الأخرى المؤمنة. كما أن في دلالة كلمة ﴿ مَغْـرَمًا ﴾ ما يفيد أنهم يدفعون وهم كارهون لذلك، لأن المغرم يفيد اللازم، أي: لزوم الشيء بما يلزم أداؤه، خوفاً من كشف حالهم، فيدفعونه توقياً ووقاية من كشف حالهم. كما أن في دلالة التربص ﴿ وَيَتَرَبَّصُ ﴾ ما يفيد التصبر مع الْمُكث والانتظار، أي: التحامل على النفس بإظهار المشاركة وهم ينتظرون مع صبرهم أن يُحاق بالمسلمين من الحوادث والآفات، فتنقلب الدائرة على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى مَنْ معه مِن المؤمنين، مما يفيد أن هناك من يشارك وهو كاره، ويُصَبِّر نفسه، وهو يحمل غايات ونوايا عظيمة من الشر، ولو وجد سبيلاً للفتك لما توانى عن ذلك، مما يفيد أهمية أخذ الحذر والوقاية.

ثم حكم الله تعالى عليهم بما يناسب ما يحملونه للمؤمنين من البغض والعداء ﴿ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ﴾ لأنهم يتربصون بالمؤمنين أن تنقلب أحوالهم، فكان حال الأعراب كما قال تعالى ﴿ وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ﴾ فجعل الله تعالى عقابهم من جنس ما يريدونه لرسوله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين، فالسوء الذي ينتظرونه للمؤمنين دائر ومنقلب عليهم، فإن نزول المكروه والبلاء والشر والسوء من الله تعالى متحقق عليهم، بما ينفي ما يتمنونه للمؤمنين، وأن الله تعالى بقدرته سيجعل ذلك الشر الذي ينتظرونه للمؤمنين دائر عليهم. وفي هذا إعجاز غيبي بأن المسلمين سالمون بإذن الله تعالى من أن تدور الدوائر عليهم، وأن هؤلاء الأعراب المتربصين بالمؤمنين ستدور عليهم دوائر الشر والانكسار والسوء والمكروه.

ثم ختم الله تعالى الآية الكريمة بما يناسب واقع الحال من أسمائه وصفاته العظيمة ﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ فإن الله عَزَّ وجل يسمع ما يدور، ويسمع الدعاء، وعليم بتدبيرهم، وما أنتم عليه، وما هم عليه، وبما سيكون ويؤول إليه حالهم، وما سيقعون فيه من دوائر السوء، التي تحمل أليم عقابه. وقد ذكر الله تعالى هاتين الصفتين على سبيل العموم، فهو سميع لكل شيء، من دون استثناء، وعليم بكل شيء، فلا تخفى عليه خافية، فكانت علاقتها بالسياق هي علاقة القدرة والعلم بما يحدث. وفي هذا تعزيز لإيمان المؤمنين، فلا تخشوهم فإن الله سميع لكل قول، وعليم بكل ما يحدث وما سيحدث.

ثم يخبر الله تعالى عن الطائفة التي ناله المدح من الأعراب ﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْۚ

﴿سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ فصنف من الأعراب ﴿مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ فهم مصدقون بالله تعالى وبرسوله صلى الله عليه وسلم، وبما جاء به عن الله تعالى، ويؤمنون بالبعث بعد الموت، والحساب والجزاء، والجنة والنار، ويتقربون إلى الله تعالى بما ينفقونه ﴿وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ﴾ فيحتسبون كل ما يقدمونه ويقومون به أن يكون لله تعالى، ويرجون من الله تعالى الأجر والمثوبة، وليس لأمر آخر، وفي هذا تزكية من الله تعالى لهم ولنفقاتهم، فَأَعْظِم بها من تزكية وثناء ومدح في حقهم من الله تعالى.

ومن برهم وإخلاصهم كذلك أنهم يبتغون بنفقاتهم دعاء واستغفار الرسول صلى الله عليه وسلم لهم ﴿وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ﴾ لأن الصلاة تأتي بمعنى الدعاء. فيقول الله تعالى عن استجابة مرادهم ﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡ﴾ فيثبت الله تعالى لهم ما كانوا يرجونه من نفقاتهم، بل ويزيد سبحانه وتعالى من التفضل عليهم بإدخالهم في رحمته ﴿سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓ﴾ أي: في جنته كما قال ابن عباس رضي الله عنهما(١) ثم ذكر عَزَّ وجل أن من أسمائه وصفاته المغفرة والرحمة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ فإن الله تعالى يغفر الذنوب، فيسترها ويمحوها، ويزيد على ذلك أنه يحسن إلى خلقه بالتوفيق والعطاء من رحمته وثوابه.

وفي ذلك من الفوائد التي ذكرها الشيخ السعدي رحمه الله تعالى: أن الأعراب كأهل الحاضرة، منهم الممدوح، ومنهم المذموم، فلم يذمهم الله تعالى على مجرد تعربهم وباديتهم، إنما ذمهم على ترك أوامر الله تعالى، وأنهم في مظنة ذلك. وأن الكفر والنفاق يزيد وينقص، ويغلظ ويخف، بحسب الأحوال. ومن الفوائد كذلك: فضيلة العلم، وأن فاقده أقرب إلى الشر ممن يعرفه[٢] ولما أن منهم مؤمنون صادقون، فإن ذلك يبين أن الإنسان لديه قدرة على التحكم في نفسه، والتَّغَلُّب على طباعة التي اكتسبها من بيئته، وقادر على تغييرها، فليس لأحد أن يحتج ببيئته، وما اكتسبه منها، فبالرغم من أنه يغلب على الأعراب الجفاء، والشدة، إلا أن منهم من كان طوعاً للحق، قابلاً له، مع أنه من بيئة ليس للعلم مجال ولا باب فيها، ومثل ذلك امرأة فرعون، التي آمنت، وهي من بيئة كافرة متطاولة معاندة ومكابرة.

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣/٣٣٣)

(٢) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٢/٢٨٠)

ثم ينتقل السياق إلى الإخبار من الله تعالى بمنزلة ومكانة السابقين من المهاجرين والأنصار، والتابعين لهم بإحسان ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ فهؤلاء الأصناف الثلاثة موعودون بجنَّات عظيمة، مع خلود أبدي فيها، فيتحقق لهم الفوز العظيم، فخص الله تعالى الفئة الأولى والثانية بالذكر، وهم المهاجرون والأنصار، كقاعدة ثابته، ويلحق بهم من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: والذين اتبعوهم بإحسان إلى أن تقوم الساعة(١) قال الشوكاني رحمه الله تعالى: فيتناول المدح جميع الصحابة رضي الله عنهم، ويكون المراد بالتابعين من بعدهم من الأمة إلى يوم القيامة. وقوله ﴿بِإِحۡسَٰنٖ﴾ قيد للتابعين، أي: والذين اتبعوهم متلبسين بإحسان في الأفعال والأقوال، اقتداء منهم بالسابقين الأولين(٢) ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾ فقد رضي الله عنهم لطاعتهم ربهم، فَقَبِل طاعتهم، وتجاوز عن تقصيرهم وذنوبهم. ﴿وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾ بما أعد لهم في الآخرة من الأجر والثواب والجزاء العظيم ﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ أي: أعد لهم في الآخرة البساتين الغناء التي تجري من بين أشجارها الأنهار ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗا﴾ أي: لابثين فيها دائماً، فلا يموتون فيها، ولا يخرجون منها، نعيم مقيم أبداً لا يزول ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ فهذا هو الفوز والفلاح والمربح والمكسب العظيم الذي ليس هناك ما هو أعظم منه.

ثم يعود السياق إلى تفصيل فئات المنافقين، وما أعد الله تعالى لهم من العذاب ﴿وَمِمَّنۡ حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مُنَٰفِقُونَۖ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعۡلَمُهُمۡۖ نَحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيۡنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٖ﴾ فيخبر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بأن هناك منافقون حول المدينة من أحياء العرب ﴿وَمِمَّنۡ حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مُنَٰفِقُونَ﴾ وكذلك من أهل المدينة ﴿وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ﴾ ومن صفاتهم أنهم متمرسون على النفاق، وقائمون عليه، ولم يتوبوا منه ﴿مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ اعتادوا على النفاق. وقد أفادت دلالة كلمة ﴿مَرَدُواْ﴾ العتو والتجبر، وهي صفة الممتنع

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣٣٥/٣)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٣٩٨/٢)

عن الحق. وفي هذا تنبيه وتحذير من هؤلاء، ليكون التعامل بحيطة وحذر، مما يفيد أن الشر والنفاق لا تنفك منه الدنيا، فإذا كان ذلك في عهده صلى الله عليه وسلم، وما يشاهدونه من الحجج والبراهين وصدق النبوة ومع ذلك لا يؤمنون فما بالك بالأزمان التالية لعهده صلى الله عليه وسلم؟ كما أن في ذلك أهمية الحذر، وفيه كذلك عدم إثارة الفتنة، إذ لم يخبر الله تعالى في كتابه بأسمائهم، بل نوه وحذَّر سبحانه وتعالى منهم، حيث كان عليه الصلاة والسلام يعاملهم بما يُظْهِرُونَه، لا بما يبطنونه، لتكون منهجية عملية لأهل هذا الدين.

ويخبر الله تعالى النبي صلى الله عليه وسلم عنهم، لأنه لا يعلمهم عليه الصلاة والسلام إلا بعلم من الله تعالى، لقوة إخفائهم النفاق ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ قال الشوكاني رحمه الله تعالى: أي ثبتوا على النفاق ثبوتاً شديداً ومهروا فيه، حتى خفي أمرهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكيف سائر المؤمنين؟ والمراد عدم علمه صلى الله عليه وسلم بأعيانهم، لا من حيث الجملة، فإن للنفاق دلائل لا تخفى عليه صلى الله عليه وسلم، وجملة ﴿نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ مقررة لما قبلها، لما فيها من الدلالة على مهارتهم في النفاق، ورسوخهم فيه على وجه يخفى على البشر، ولا يظهر لغير الله سبحانه وتعالى، لعلمه بما يخفى، وما تكنه الضمائر وتنطوي عليه السرائر(١) مما يكشف ويبين أن من الناس من يمتلك دهاء في التخفي بمراده ومسلكه ونواياه، فيؤكد ذلك افتقار المؤمن لله تعالى، بأن يحفظه من كل مكروه، وأن يصد عنه مكر الماكرين وكيد الكائدين، وأن لا يركن المؤمن لقوته الشخصية، ومعرفته وعلمه وذكائه، بل يستعين بالله تعالى في كل أمر.

ثم توعدهم تبارك وتعالى بما يليق بهم من العذاب ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ فتلك ثلاث مواطن للعذاب ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ الأولى: في الدنيا، والثانية: في القبر، والثالثة في الآخرة: قال تعالى ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ أي: فتكون في الآخرة، حيث يردهم الله تعالى لعذاب عظيم في قوته وشدته، لقاء عتوهم وتجبرهم، وما تمرسوا عليه وتمردوا به من النفاق والمخادعة. وقيل عن العذاب الذي في الدنيا أقوالاً متعددة، قد جمعها الإمام ابن الجوزي رحمه الله تعالى: أن العذاب الذي في الدنيا هو: فضيحتهم بالنفاق، والثاني عذاب القبر، وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم جمعة خطيباً، فقال (يا فلان اخرج فإنك منافق، ويا فلان اخرج) ففضحهم، وقيل القتل والسبي، والجوع، وإقامة الحدود عليهم، والمصائب في الأموال والأولاد، وفي الآخرة بالنار(٢) فجميعها تستوفي أنواع العذاب من غير تخصيص لنوع محدد ومعين دون غيره.

---

(١) الشوكاني، فتح القدير (٣٩٨/٢)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣٣٥/٣)

فبعد أن أخبر الله تعالى عن حال المنافقين المتمرسين للنفاق أخبر الله عَزَّ وجل عن الذين تأخروا عن الجهاد تكاسلاً، مع إيمانهم وتصديقهم بالحق ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ فهؤلاء لديهم أمران: الأول: الاعتراف بالذنب ﴿ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ فأقروا بما حصل منهم، فلم يكابروا، بل شعروا بذنوبهم وأقروا بها. والأمر الثاني: اشتملت أعمالهم على خليط من الأعمال الصالحة والأعمال السيئة ﴿ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا ﴾ فالعمل الصالح الذي خلطوه بالعمل السيء كما قال ابن جرير رحمه الله تعالى: هو اعترافهم بذنوبهم وتوبتهم منها، والآخر السيء هو تخلفهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خرج محارباً، فتركوا الجهاد مع المسلمين[1] فهؤلاء أطمعهم الله تعالى في قبول توبتهم ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ مما يفيد أن اعترافهم كان مقروناً بالاستغفار والتوبة عَمَّا وقع منهم، وهذا من جميل بلاغة الكلام، إذ لم يتكرر في السياق التعريف بحصول التوبة، ثم قبولها، بل استوعب التصريح قبول توبتهم، بما أفاد أنه قد حصلت منهم التوبة التي تحمل الندم على ما حصل، والعزيمة على عدم العودة للذنب.

وحرف ﴿ عَسَى ﴾ من الله تعالى يفيد تحقق الوقوع، وأما في حق العبد فيفيد الأمل والترجي، وفي هذا استدفاع لهم نحو المزيد من الأعمال الصالحة، رجاء أن تتحقق توبة الله تعالى عليهم، وهذا من رحمة الله تعالى، إذ يقبل التوبة من عباده عن عظائم الذنوب، ويستحثهم نحو المزيد من الأعمال الصالحة التي تقوي لديهم الإيمان والضمائر، والتخلص من فساد القلوب والأعمال، والتعود على فعل الطاعات، وقد جاء تمام ختام الآية الكريمة بما يناسب آمالهم ورجاءهم فيما تقربوا به إلى الله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ فإن الله تعالى غفور للذنوب، فلا يأس بعد الذنب لمن تاب وأناب، فإن الله تعالى يستر الذنب ويمحوه، بل ويزيد على ذلك أنه رحيم بعباده، فيرحم العبد بجزيل العطاء والتوفيق والهداية، والمكافأة في الدنيا وفي الآخرة. مما يفيد أن كل مذنب إذا تاب واستغفر فإن الله تعالى غفور رحيم. وفي هذا اطماع لهم ولغيرهم في مغفرة ورحمة الله تعالى.

ويوجه الله تبارك وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بما يحقق الفلاح للمؤمنين ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أي: يا أيها النبي خذ من أموال المعترفين بخطأ تخلفهم عن الغزوة، خذ منهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها، فقد تخلفوا عن النبي صلى الله عليه وسلم في خروجه لغزوة تبوك من غير عذر. مما يفيد أن الإنسان إذا تاب من ذنبه عليه

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١١/٦٥٠)

أن يبادر إلى الصدقة، لما فيها من الخير الذي أوضحه الله تبارك وتعالى بقوله عَزَّ وجل ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ فإن من عوائد الصدقة أنها ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ أي: تنقيهم من الذنوب، مما يفيد أن من فضائل الصدقة أنها تطهر العبد مما يكتسبه من الذنوب، وما يُقَصِّرُ فيه من الطاعة، وكذلك من فوائد الصدقة تحصيل التزكية بها ﴿وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ ففيها ما تزكو بها النفوس وتنصلح، وقد ذكر ابن عباس رضي الله عنهما: تطهرهم من الذنوب ﴿وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ أي: تصلحهم(١) وهي مبالغة في التطهير، وارتقائه من تنقية الذنوب إلى ما تنصلح به النفوس وتزكو. وفي هذا الأثر للصدقة ما يدفع المؤمن الحريص على سلامته في الدنيا والآخرة أن يُكثر من عموم الصدقة.

ثم يأمر الله تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام بأن يستغفر ويدعو لهم ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ وتسمية الدعاء بالصلاة، لأن الصلاة في لغة العرب بمعنى الدعاء. ثم بين سبحانه وتعالى علة وسبب الأمر بأن يصلي النبي صلى الله عليه وسلم عليهم ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ فدعاء النبي عليه الصلاة والسلام واستغفاره طمأنينة لهم، لأن السكن هو ما تطمئن وتسكن إليه النفس. مما يدل على عظيم منزلة النبي عليه الصلاة والسلام، ومنزلة دعائه واستغفاره للمؤمنين، فإن في دعائه واستغفاره للمؤمنين ما تسكن وتطمئن النفس به، وما يترتب على ذلك من آثار السكينة على النفس في إيمانها ونشاطها وعبادتها، وتعاملها مع غيرها، وأنها كالبلسم فيما يصيبها من البلاء، فتكون بلسماً لهم.

ثم يختم الله تعالى الآية الكريمة بما يناسبها ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ فإن الله تبارك وتعالى سميع لكل متكلم وداع بدعاء، وعليم بكل أمر، ومن ذلك حال الداعي، وحال العاصي، وحال الصادق، وحال المنافق، فلا يخفى عليه من أمر عباده وأمر الكون شيء أبداً.

ومن رحمته وكرمه وجوده سبحانه وتعالى أنه يحث عباده على التوبة من خلال سؤال تقريري ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ فهو سؤال يقرر به سبحانه وتعالى أنه يقبل التوبة عن عباده، ويقبل الصدقات، وأن من صفاته وأسمائه عَزَّ وجل أنه تواب رحيم ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وكذلك السؤال يحمل صيغة التعجب، التي تستوجب منهم الطمأنينة، والثقة بأن الله تعالى تاب عليهم، وأن لا يرتابوا عما حصل، بل وأغدق عليهم بتأكيد صفة التوبة

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣/٣٣٧)

والرحمة له تبارك وتعالى ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وهذا من فيض كرمه عليهم وعلى عباده بتقريره أنه سبحانه وتعالى تواب رحيم، بل وجاء اسم ﴿ٱلتَّوَّابُ﴾ بصيغة المبالغة، التي تفيد كثرة التوبة منه عَزَّ وجل، فلا تضطربوا ولا تخافوا، بل اطمئنوا وأمِّلُوا الخير من الله تعالى، خاصة وأن الآية الكريمة خُتِمَت بقوله عز وجل ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وهذا من عظيم رحمة الله تعالى بعباده، إذ يعتني بنفوسهم غاية العناية، بل ويأمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يدعو ويستغفر لهم، لتكون سكنا وطمأنينة لهم، ويستثيرهم بالسؤال التقريري الذي يقرر به قبوله التوبة والصدقة، بل وأورد اسم ﴿ٱلتَّوَّابُ﴾ بصيغة المبالغة التي تفيد كثرة توبته لعباده، وتحقيقاً لها، وتوفيقاً لها، كما أنه متصف بالرحمة التي هي اسم من اسمائه سبحانه وتعالى، وتفيد المبالغة كذلك في سعة رحمته وكثرتها وعظيم دلالتها. فلله الحمد والشكر، اللهم اغفر لنا وارحمنا.

بل ومن جميل البيان ولطفه أن ذكر قبول الصدقة بالأخذ ﴿وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ والأخذ معنى زائد عن القبول، لما فيه من مباشرة القبول. وفي هذا ما يفيد عظيم العناية من الله تعالى بالمتصدق، إذ شرَّفه بأنه سبحانه وتعالى قبل صدقته بلفظ الأخذ، كما يفيد ذلك كذلك تعظيم الصدقة، ورفع منزلتها ومكانتها عند الله تعالى، إذ جاء السياق بالأخذ ﴿وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ وهذا والله العظيم من جلالة وعظمة رحمة الله تعالى وكرمه وعنايته بالمؤمنين والتوابين والمتصدقين. وكذلك عنايته عَزَّ وجل بالصدقة، وبهذه المنزلة الرفيعة العظيمة لها، مما يدفع المؤمن ويحثه إلى الحرص على الصدقة. وتطهير النفس وتزكيتها بها بعد التوبة والاستغفار، وأن على المؤمن لتحصيل دروب السلامة في الدنيا والآخرة أن يُكثر من الصدقة.

وقد ورد قوله تعالى ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ بأسلوب التعجب ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟﴾ ألم يدركوا هذا العلم العظيم، الذي يحفزهم للتوابة والصدقة، والاستمرار في الطاعة، ويقطعوا به اليأس. فقد ورد هذا السياق الكريم على صيغة السؤال الموجه للمؤمنين عن ذهولهم عما يعرفون من أن الله تعالى ﴿هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ بل وحصر ذلك له عَزَّ وجل ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ﴾ لا غيره ﴿يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ وكذلك ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ فإن ربكم هو لا غيره الذي يقبل التوبة من عباده، ويرحمهم بهذا القبول، وبجميع إنعامه عليهم.

ثم بعد هذا الترغيب الذي تتفاعل معه النفوس اللينة، يأتي الترهيب الذي يناسب حال المتمادي في المعصية. فقال جَلَّ جلاله ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ فقل لهم يا أيها النبي صلى الله عليه وسلم: اعملوا بما أنتم عاملون من الأعمال، فإن الله تعالى يرى أعمالكم وكذلك رسوله صلى الله عليه وسلم، وستنقلبون وتعودون بعد موتكم إلى الله تعالى الذي يعلم الغيب مثل علمه بالشهادة، فما يغيب عنكم لا يغيب عنه تبارك وتعالى، وما يغيب من بعضكم عن بعض فلا يغيب عنه عَزَّ وجل، وما هو ظاهر منكم ولكم ولغيركم، سيخبركم الله تعالى به، وبكل ما كان منكم من خير وشر. وفي هذا ترهيب لهم ولكل أحد من العباد، بأن ما يفعله العبد من خير أو شر فإنه لا يخفى على الله تعالى، وأنه سيحاسبه ويجازيه على معصيته، وعلى حسنته، مما يستوجب الحيطة والوقاية من ذلك بالاستجابة إلى الله تعالى واجتناب ما نهى عنه. وفي هذا ترهيب وتهديد لهم، فإن أعمالكم لا تخفى على الله تعالى ولا على رسوله صلى الله عليه وسلم ولا على المؤمنين. وكذلك فيه ترغيب للمطيع، لأن من تيقن أن عمله معلوم ومرصود له عند الله تعالى، وأنه مجازى عليه، إن كان خيراً فخير، وإن كان شر فشر، فإن هذا سيدفعه إلى المزيد من الطاعة، والبعد عن فعل المعاصي.

وقد تضمنت الآية الكريمة دقائق من التوجيه، وقوة السياق ودلالاته، ومن ذلك أن الله تعالى وجه الخطاب لهم من خلال نبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ ﴾ وفي هذا تكريم للنبي صلى الله عليه وسلم، وفي نفس الوقت هو تحذير وتهديد بعلم الله تعالى لهم، ومعاقبته للعاصي. وكذلك جاء الأمر بالعمل مطلقاً ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ ﴾ بما يفيد من الخير أو الشر. وأن لكم اختيار ما تريدون من العمل، سواء كان صالحاً أو سيئاً، فجميعه مرصود بدقة متناهية، ومجازى كل بما كسب، مما يفيد الترغيب والتهديد والترهيب. وكذلك قوله تعالى ﴿ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ فالسين من قوله تعالى ﴿ فَسَيَرَى ﴾ تفيد سرعة العلم بها، بما يعطي تحقق العلم السريع لِمَا يحصل منكم، فلم تكن أعمالكم غائبة عن علمه عَزَّ وجل حين وقوع العمل، فإن الله تعالى يراها ويعلمها بدقة، مما يفيد دقة معرفة الله تعالى بها، وكذلك فإنها مكشوفة معلومة ظاهرة للرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين، فلا تخفى عليهم. وفي هذا ما يفيد التهديد والتحذير.

وفي إضافة الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، ما يدل على وضوحها وظهورها، وكذلك إثبات الشهادة والشهود عليكم، فهم شهود عليكم، وشهادتهم ليس كمثل أي شاهد، فإنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكذلك هم المؤمنون. ثم إن دلالة كلمة ﴿ وَسَتُرَدُّونَ ﴾ لم يُذكر فاعله، بما يفيد التحقير، بأنكم مردودون بالرغم عنكم، وليس باختياركم، وليس لكم شيء من وسائل الامتناع. فمردهم إلى الله تعالى عنوة من غير اختيار لهم، ولا قدرة لهم على الامتناع والتمنع، فإنهم مسلوبي الإرادة. ومن دقائق البيان تعظيم ما سيؤولون

إليه، فإن عودتهم لله العظيم ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ فإن ربكم عالم بما يغيب عن بعض العوالم، وعالم بما يُخفي العبد ويتكتم عليه، فلا يغيب عنه شيء، كما يغيب عن المخلوق، وكذلك هو عالم بالمشاهدة، من الأعمال والأقوال الظاهرة، فالغيب والشهادة مستويان في علمه عَزَّ وجل ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ وقد تقدم العلم بالغيب على الشهادة لبيان غزارة علمه، فما تستصعبونه من العلم فإنه حاضر عند الله تعالى كالشهادة. ثم الإنباء بما كان منكم من أوله لآخره ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ فليس هناك شيء يمكن أن يغيب أو يسقط مما عملتموه، حتى ما يمكن أن ينساه الإنسان عن نفسه من نفسه، فإن الله تعالى سينبئ العبد به. فإن هذه الدقائق البيانية تدل على الإعجاز البياني والبلاغي في كتاب الله تعالى، والذي يعجز عن دقته عموم خلقه ولو اجتمعوا.

ثم يخبر الله تعالى عن صنف ثالث، فبعد أن ذكر عَزَّ وجل الصنف الأول: الذين مردوا على النفاق: والصنف الثاني: الذين تابوا وصَدَقُوا في توبتهم، وهم الذين أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يأخذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم، ذكر عَزَّ وجل هذا الصنف الثالث: وهم الموقوف أمرهم لحكم الله تعالى فيهم، بالمغفرة أو العذاب ﴿وَءَاخَرُونَ مُرۡجَوۡنَ لِأَمۡرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمۡ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ فآخرون مؤجل أمرهم عند الله تعالى، فإما يعذبهم لما حصل منهم، ولعدم رجوعهم عَمَّا كان منهم، أو يتوب عليهم إن تابوا وأصلحوا، وفي هذا ترغيب لهم إلى العودة إلى الله تعالى، فإن باب التوبة مازال لكم مفتوح، والله تعالى عالم بما سيكون منهم، وما سيكون من أمرهم، ولكن من حكمته ولطفه أن ترك للعبد اختياره لنفسه، بالإقبال على الله تعالى، أو التولي. فهو حكيم في إرجاء الحكم فيهم، مع علمه سبحانه وتعالى لما سيكون منهم، فهو عليم بما سيكونون عليه قبل أن يكونوا، وقبل أن تكون وتحصل منهم أعمالهم.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٠٧ لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ ١٠٨ أَفَمَنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقۡوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٍ خَيۡرٌ أَم مَّنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٖ فَٱنۡهَارَ بِهِۦ فِي نَارِ جَهَنَّمَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠٩ لَا يَزَالُ بُنۡيَٰنُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوۡاْ رِيبَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١١٠﴾

ينتقل السياق الكريم إلى كشف أسلوب من أساليب المنافقين، وسر من أسرار قلوبهم، ونوع من أنواع مكرهم الخبيث. فقال الله عَزَّ وجل ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ فقد استخدم أهل النفاق الأسلوب الذي يتوافق ظاهره مع دين الله تعالى، ويتنافى باطنه ويتعارض مع دين الله عَزَّ وجل، ويتصادم معه. فقد أظهروا أنفسهم بمظهر المحبين للدين. وهذا من اشد الخبث والمكر. ذكر ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: أن أصحاب مسجد الضرار أتوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يتجهز إلى تبوك، فقالوا: يا رسول الله، إنَّا قد بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية، وإننا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه، فقال صلى الله عليه وسلم (إنني على جناح سفر، وحال شغل ــ أو كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ ولو قد قدمنا أتيناكم إن شاء الله فصلينا لكم فيه) فلما نزل بذي أوان أتاه خبر المسجد، فدعا من الصحابة: مالك بن الدُّخْشُم، ومعن بن عدي، أو أخاه عاصم بن عدي، فقال لهم (انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله، فاهدماه، وحرِّقاه. فخرجا الصحابيين فَحَرَّقاه وهدماه وتفرقوا عنه، ونزل فيهم من القرآن ما نزل ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا﴾ إلى آخر القصة، وكان الذي بنوه اثنى عشر رجلا[١]

فالذين بنوا مسجد الضرار يهدفون به الإضرار بمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم في قباء، وكذلك لتقوية الكفر به، ويحادون به رسول الله صلى الله عليه وسلم، ابتغاء التفريق بين المؤمنين، فيعتاضون به عن مسجد قباء. فهناك أربعة أهداف يريدون تحقيقها من هذا المسجد كما بينها الله تعالى، فالأول: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا﴾ وهو الإضرار بأهل الإسلام، وجاء لفظ الضرار عاماً، ليشمل أنواعه وطرائقه، وتنوع أهدافه، فإن القصد به تحقيق الضرر من كل وجه. والهدف الثاني: ﴿وَكُفۡرٗا﴾ وهو تحقيق الكفر بالله تعالى وتقويته من خلال هذا المسجد، فيتقوى به أهل النفاق في نفاقهم، ويكون جامعاً لهم، فظاهره إقامة الدين، وباطنه هدم الدين ومحاربته وإيقاع الضرر به، والهدف الثالث: ﴿وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ لتفريق صف المؤمنين وكلمتهم، فيكون مسجد الضرار مجاوراً لمسجد قباء، فيتحقق به تفريق صف وكلمة المؤمنين، وتشتيت شملهم وكلمتهم. والهدف الرابع: ﴿وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُ﴾ وكلمة ﴿وَإِرۡصَادٗا﴾ تفيد التهيئة والإعداد المشحون بالانتظار والتَّرَقُّب مع قوة العداوة. ليكون

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦٧٣/١١)

مكاناً يجتمع فيه المحاربون لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم، فيخططون وينظمون ويُعدُّون العدة لكل ما يحاربون به الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين والدين.

وجملة ﴿ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ﴾ تفيد أنه كان هناك محاربة من قبل أن يقوموا ببناء مسجد الضرار، فقد ذكر الإمام الطبري رحمه الله تعالى في معنى ذلك أي: وإعداداً لأبي عامر الكافر، الذي خالف الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وكفر بهما، وقاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ يعني من قبل بنائهم ذلك المسجد، وذلك أن أبا عامر هو الذي حَزَّب الأحزاب لقتال رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما خذله الله تعالى لحق بالروم يطلب النصر من ملكهم على نبي الله تعالى، وكتب إلى أهل مسجد الضرار يأمرهم ببناء المسجد الذي كانوا بنوه[1] مما يفيد ويبين أن أعداء الإسلام منذ ظهوره ببعثة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وهم يحاولون هدمه ومحاربته والتصدي له بكل قوة، إلا أن الله تعالى ناصر لدينه، ولكتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، فلا يضرهم من خذلهم.

ومن بلاغة البيان وجزالته أن الله تعالى جمع مرادهم في أربعة أهداف، تستجمع جميع أنواع النوايا والمقاصد، وكذلك استجمعت منهجية تحقيق تلك الأهداف. وقد أعطت دلالة قوله تعالى ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ تقادم حقدهم قبل بناءهم المسجد. قال القرطبي رحمه الله تعالى عن دلالة قوله عَزَّ وجل ﴿ مِن قَبْلُ ﴾: أي: من قبل بناء مسجد الضرار[2] أي أنهم يستجمعون تلك الأهداف ويعملون على تحقيق مرادهم من قبل بنائهم لمسجد الضرار، فيكون بناء هذا المسجد لتحقيق تلك الأهداف.

ثم أخبر الله تعالى عن مدى عمق الكذب عندهم، وقدرتهم على تلبيس الباطل بلباس الحق، فقال جَلَّ جلاله ﴿ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ فقد أضفوا صفة الحسنى على ما قاموا به من بناء مسجد الضرار، وما أرادوا من ورائه ﴿ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ فحصروا كل مرادهم وفعلهم في ثوب الحسنى، التي هي: الإرادة الطيبة، الحسنة، والتي قد انتفى منها الشر، فهي حسنة محضة، وزادوا على توكيد ذلك بالحلف ﴿ وَلَيَحْلِفُنَّ ﴾ مما يفيد أن المنافق يعمل العمل الذي ظاهره الخير، وباطنه الشر، فيضفي الخير على سعيه حتى لا يكشفه أحد، لأن مبتغاه هو التضليل الذي يتخفى به، ويُخْفِي فيه به مراده السيء. ولكن الله تعالى فضحهم ﴿ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ فإن الله تعالى يشهد على

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦٧٤/١١)

(٢) القرطبي، لجامع لأحكام القرآن (١٦٤/٨)

خبث ضمائرهم، وأنهم يكذبون فيما حلفوا عليه ﴿ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴾ ويبين هذا أن أمرهم ومرادهم من الفتنة كان عظيماً، إذ أكد الله تعالى كشف نواياهم الخبيثة وكذبهم بشهادته عَزَّ وجل، وشهادته تبارك وتعالى عظيمة المكانة والدلالة. وهذا يدلل على عظيم علم الله تعالى بظاهر الأمور وبواطنها، وبما يعلنون وما يسرون به، وأن الله تعالى مؤيد رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وناصرهم، وأنه مُظهر دينه على الدين كله.

ومن شدة التحذير من مسجد الضرار ومن أهله أن الله تعالى أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بأن لا يقيم لهم صلاة فيه، حتى لا يمكنهم من مرادهم، بإضفاء الشرعية عليه ﴿ لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗا ﴾ فلا تقيم فيه الصلاة لهم أبداً، ولا صلاة واحدة، ولا حتى فيما يُستقبل من قادم الأيام، وفي هذا أمر نهي مُؤَكَداً بدلالة لفظة ﴿ أَبَدٗا ﴾ التي تفيد التأكيد على عموم الأحوال والأوجه، بما يفيد عدم إعطائهم ومنحهم أي وسيلة لإقامة مشروعية هذا المسجد على أي حال ووجه. فإن في هذا النهي القاطع من إقامة الصلاة فيه ما يبين أن صلاة النبي صلى الله عليه وسلم ذات دلالات عظيمة فيما لو صلى فيه عليه الصلاة والسلام، ومنها الشرعية والبركة والمنزلة التي تُمنح لهذا المسجد فيما لو صلى فيه عليه الصلاة والسلام. فيا أيها النبي لا تقم في المسجد الذي بناه هؤلاء ضراراً وتفريقاً بين المؤمنين، وإرصاداً ومكاناً لمن حارب الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم.

وفي نهي الله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم عن الصلاة فيه ما يبين عظيم مقامه عليه الصلاة والسلام، وما سيكتسبه ويحصل عليه هذا المسجد وأصحابه من الرفعة والمكانة بمجرد صلاة النبي فيه عليه الصلاة والسلام. وقد أعطى لفظ القيام معنى الصلاة، لأن الأصل في المسجد أنه للصلاة ﴿ لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗا ﴾ أي: لا تصل فيه أبداً، كما أن الصلاة قائمة على القيام، بإقامة المصلي صلبه في الصلاة. وفيما لو صلى النبي صلى الله عليه وسلم فيه لأصبح مثل مسجد قباء، فيتشتت المسلمون بينهما، خاصة وأنه ليس عنه ببعيد، بل مجاور له. وفي نهي الله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم هو نهي للمؤمنين أجمعين، لأنهم تبعاً للنبي عليه الصلاة والسلام. وفي هذا النهي نكاية بالمنافقين، وكشفاً لسرائرهم، وفضحاً لهم، ولمسلكهم ونواياهم الباطلة.

ثم يذكر الله تعالى المسجد الأحق والجدير بإقامته، والذي هو الأولى بذلك الشرف العظيم ﴿ لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ﴾ فصفة هذا المسجد الذي هو مسجد قباء أنه مؤسس ومبني على تقوى الله تعالى من أول يوم من أيام تأسيسه، فكان على التقوى ﴿ لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ ﴾ فالتقوى تتضمن إخلاص الطاعة لله تعالى في تأسيسه، فكانت التقوى أساس له في طهارته وإخلاصه لله عَزَّ وجل، كمثل الأساس المادي لهذا المسجد من حيث قوته ومتانته

وصلابته. وجملة ﴿ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ ﴾ تفيد أن منطلق الإخلاص فيه كان من ساعة تأسيسه، فلم تشبه شائبة تُفسد مساره، وتُخِلُّ بمقامه ومكانته، فتخرجه عن طاعة الله تعالى، مما يدل على عظيم منزلة مسجد قباء ومكانته، وكذلك يدل هذا البيان من الله تعالى على منزلة الإخلاص له عَزَّ وجل، وأن الأعمال الصالحة مرتبطة ومقيدة بصلاح النية، فما كان من الأعمال صحيحاً، فلا يُعَدُّ صحيحاً حتى تتجرد فيه النية من السوء، وتكون خالصة لله تعالى. فإن المسجد الذي له الحق بأن تقيم فيه الصلاة، ويعلو ذكره وشأنه هو الذي اتصف بتلك الصفات ﴿ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ﴾

فلا يستوي من أسس بنيانه على تقوى الله تعالى، ومن بنى مسجداً للكفر والإضرار والتفرقة بين المؤمنين، وجعله مكان إرصاد لمن حارب الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، فإنه ليس حفياً بالتكريم النبوي، بل حفياً بالترك والهجر والهدم والإزالة. وفي ذلك مقارنة بين الحق والباطل، وبين من مراده باطل خبث، ومن مراده تقوى الله تعالى، وفي هذا تعريف للناس بعلة النهي عن ذاك، وعلة الترغيب في هذا. مما يفيد أن منهج الله تعالى قائم على الحجة والبرهان والدليل، وإحقاق الحق، وإبطال الباطل وهدمه.

ومن فوائد الأقوال عن المقصود بالمسجد الذي أسس على التقوى ما ذكره الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: فقد قيل: أنه مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي فيه منبره وقبره اليوم، وقيل: بل عُني به مسجد قباء. وقال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: وأولى القولين بالصواب هو قول من قال مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، لصحة الخبر بذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم[١] ففي صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أنه قال: دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت بعض نسائه، فقلت: يا رسول الله، أي المسجدين الذي أسس على التقوى؟ قال: فأخذ كفاً من حصباء، فضرب به الأرض، ثم قال (هو مسجدكم هذا) لمسجد المدينة[٢] وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: نزلت هذه الآية في أهل قباء ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ﴾ قال: كانوا يستنجون بالماء، فنزلت فيهم هذه الآية[٣] وقد رجّح الإمام القرطبي والشوكاني والسعدي أن المقصود به مسجد قباء، وذلك لحديث أبي هريرة رضي الله عنه، من حيث التصاق الآية بنص المسجد الذي أسس على التقوى، باعتباره أول مسجد أسس في الإسلام[٤] وسبقهم من الصحابة رضي الله عنهم، ابن عباس، وبه قال سعيد

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١١/٦٨١-٦٨٥)

(٢)مسلم، صحيح مسلم (٢/١٠١٥) برقم (١٣٩٨)

(٣)أبو داود، سنن أبي داود (١/٣٨-٣٩) برقم (٤٤)

(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٨/١٦٥) والشوكاني، فتح القدير (٢/٤٠٣) السعدي (٢/٢٨٦)

بن جبير، وقتادة، وعروة، وأبو سلمة بن عبد الرحمن، وسعيد بن المسيب. وممن قال: أنه عُني به مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم: ابن عمر، وزيد بن ثابت، وأبو سعيد الخدري، وسعيد بن المسيب(١)

والفائدة التي يمكن استخلاصها واستنتاجها من تلك الأقوال: أنه لا يمنع أن يكون كل واحد من المسجدين توافرت فيه أسس التقوى منذ تأسيسه، وأنه أحق بإقامته وإقامة الصلاة فيه. وأن المسجد المعني به في النص الكريم أنه مسجد قباء، باعتبار أحداث مسجد الضرار، وباعتبار ما ذكره أبو هريرة رضي الله تعالى عنه.

ومن صفات أهل هذا المسجد الذي ﴿أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ أن فيه رجال متصفون بالطهارة والنزاهة ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ فعن قتادة رضي الله تعالى عنه قال: ذُكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم، قال لأهل قباء (إن الله قد أحسن عليكم الثناء في الطهور، فما تصنعون؟) قالوا: إنا نغسل عنّا أثر الغائط والبول(٢) وهذا يدل على فضل الطهارة، وأن الله سبحانه وتعالى يحب النظافة والطهارة، ويجل أهلها ومن يعتني بها، مما يفيد أن من واجب المسلم أن يعتني بذلك أشد العناية، كما يدل ذلك على أن هذا الدين هو دين نظافة وطهارة في البدن وفي القلب، وفي الأقوال والأفعال.

ويستفاد من قوله تعالى ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟﴾ أن تطهرهم من البول والغائط كان بالماء، وذلك محبة منهم للنظافة والطهارة، وفيه كذلك تزكية من الله تعالى لهم بما يقومون به من التطهر. وزيادة على ذلك قوله تعالى ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ ففيه ثناء من الله تعالى ومحبة لهم، لما يقومون به من التطهر، وفيه كذلك تعميم لكل من يتطهر مثلهم من المؤمنين، فإنه الله تعالى يحب المتطهرين من المؤمنين، وكذلك فضل الطهارة وعظيم ثوابها، وأنه مما يحبه الله تعالى ويرضاه.

وبأسلوب السؤال التقريري الذي يستثير العقل والفكر، يقرر الله تعالى مقدار التباعد والتباين بين من يؤسس منهجه على تقواه عَزَّ وجل، وبين من يؤسس منهجه على الفساد والضلال ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ فهو خطاب على صيغة سؤال، يستثير الفكر والذهن نحو تفاصيله، ودقة معانيه، ومنطوق

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣/٣٤٠)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١١/٦٨٨-٦٨٩)

الجواب الذي لا يختلف عليه العقلاء. فيا أيها العقلاء هل يستوي البناء الذي عَمِدَ صاحبه في تأسيسه على طاعة الله تعالى ورضاه، واتقاء محاذيره وحدوده، والعمل وفق منهجه الذي تمثله وتضبطه التقوى، أو البناء الذي عَمِدَ صاحبه في تأسيسه على المكر والخديعة وسوء النوايا بمحاربة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، والتي سرعان ما تسقط وتنهار، فكذلك المسجد الذي تم بناؤه على تقوى الله تعالى، وابتغاء طاعته، وأداء فرائضه عَزَّ وجل، فهل هو خير أم أن الذي أسس بنيان ذلك المسجد على النفاق والخديعة والكذب، وإيقاع الفساد، الذي سرعان ما ينكشف أمره، فيسقط ويزول. وفي هذا الأسلوب استثارة للعقول، واستثارة لإقامة الحجة، وتقريرها، واستخراج الحكم من القناعة التي لا يختلف عليها العقلاء.

وجاء السياق القرآني الكريم في هذا المثل ليكون قاعدة عامة في كل أعمال الفرد أو الجماعة، لتعم فائدته، إذ تجاوز المخصوص الذي هو مسجد الضرار إلى جميع عبادات وأعمال الإنسان، فابتدأ النص الكريم بالسؤال الذي لا يختلف العقلاء على مضمونه، وعمد النص الكريم على تأسيس البيان من خلال الأصل والأساس ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ ﴾ ثم المقارنة بين أساسين للوصول إلى الخيرية من خلال المقارنة بينهما، فالأول: هو الأساس ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ ﴾ فالتقوى والرضوان هما قاعدة البناء، وأصل الأساس، فالتقوى عماد الصلاح، لأن العمل بها يستوجب الإخلاص لله تعالى، والعمل بطاعته وفق منهجه عَزَّ وجل، طمعاً في رضاه وثوابه سبحانه وتعالى، مع اجتناب نواهيه، وذلك حذراً وخوفاً من عقابه.

وقد أفرد الله تعالى رضوانه لبيان منزلة النية في العمل، بأنه ابتغاء رضى الله تعالى، وليس لمقصد آخر. فهل هذا هو ﴿ خَيْرٌ ﴾ الذي يحمل الخيرية والصلاح. وكلمة ﴿ خَيْرٌ ﴾ وردت عامة لتشمل جميع أوجه الخير، فهل هذا خير في هدفه ومقصده، وفي بقائه، وقوته ومتانته، وتحقيق الخير والفضل، ليكون جديراً بالبقاء، وبمحبة الناس له، أم البنيان الآخر ﴿ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ أم أن الخير في هذا الذي أسس البناء على المهالك، فكان ﴿ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ ﴾ أي: على طرف وحرف الوادي، الذي هو جوانبه التي تتآكل وتتحفر وتتساقط بالماء، فتكون في الغالب مجوفة من جهة الوادي، فبمجرد أن يصيبه الثقل البسيط ينهار ويتهدم، فصفة الجرف أنه ساقط ﴿ جُرُفٍ هَارٍ ﴾ لأن الهار هو الساقط، أو الآيل للسقوط لوجود التجاويف المتآكلة من جهة مرور السيول ﴿ فَٱنْهَارَ بِهِۦ) فيسقط به، ولكن هذا السقوط ليس بالسقوط الذي يمكن القيام منه، بل هو سقوط في جهنم وبئس المصير ﴿ فَٱنْهَارَ بِهِۦ

﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ فانهار الجرف بهذا البنيان في نار جهنم، وهذه النار ليست هي مثل أي نار؛ بل إنها ﴿نَارِ جَهَنَّمَ﴾ وهي اسم لنار الله تعالى، الموصوفة ببعد قعرها.

ثم بين الله تعالى أن توفيقه لا يناله أهل الظلم ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فإن الله تعالى يُبغض أهل الظلم على أي وجه كان ظلمهم، وبالتالي فإنه لا يوفقهم للخير. فقد ورد الظلم عاماً، ليشمل جميع مفرداته وأنواعه، وقلته وكثرته. وهو حكم فيهم، وفي كل ظالم. مما يدلل على أهمية الإخلاص في العمل، وتحري السلامة والصدق، وعدم المكر، واستخدام دين الله تعالى للفساد والمكر والكذب والخيانة. فنسأل الله تعالى الهداية والعافية.

وذكر الزمخشري رحمه الله تعالى في معنى الآية الكريمة: أفمن أسس بنيان دينه على قاعدة قوية محكمة، وهي الحق الذي هو تقوى الله ورضوانه ﴿خَيْرٌ أَم مَّنْ﴾ أسسه على قاعدة هي أضعف القواعد، وأرخاها، وأقلها بقاء، وهو الباطل والنفاق الذي مثله مثل ﴿شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ في قلة الثبات والاستمساك، وضع شفا الجرف في مقابلة التقوى. فطاح به الباطل في نار جهنم، فإنه صَوَّر أن المبطل كأنه أسس بنياناً على شفا جرف من أودية جهنم فانهار به ذلك الجرف، فهوى في قعرها. والشفا: الحرف والشفير. وجرف الوادي جانبه الذي يتحفر أصله بالماء، وتجرفه السيول، فيبقى واهياً. والهار: الهائر، وهو المتصدع الذي أشفى على التهدم والسقوط. ولا ترى أبلغ من هذا الكلام، ولا أدل على حقيقة الباطل، وكنه أمره[1] وقال الشوكاني رحمه الله تعالى: والمعنى: أنه طاح الباطل بالبناء، أو الباني في نار جهنم، وسبحان الله، ما أبلغ هذا الكلام، وأقوى تراكيبه، وأوقع معناه، وأفصح مبناه[2] وشمولية هذه المعطيات من النص الكريم لهذه الدلالات دليل على غزارة معطيات النص القرآني الكريم بالفوائد التي تتكاثر بتكاثر أوجه دلالة النص، وهذا من الإعجاز البياني الكريم، بأن يعطي النص تنوعاً من الفوائد والدلالات المتضافرة غير المتضادة، وهذا من بلاغة تراكيب السياق اللفظية التي استوعبت تلك الدلالات، ليكون كلام الله تعالى معجز حتى في أوجه مضامينه التي تتظافر فيه معانيه ودلالاته من غير تعارض ولا تضاد. فسبحان من ظهر الإعجاز البياني والبلاغي في كلامه العزيز، كما أظهره في أحكامه وتشريعه الجليل، فلا أحد من خلقه يستطيع أن ينظم مثله أبداً، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا.

---

(١) الزمخشري، الكشاف (٣٠٨/٢)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٤٠٤/٢)

ثم ذكر تعالى أثر هذا العمل على نفوسهم ﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أي: ما زال هذا المسجد الذي بنوه يحمل شكاً ونفاقاً في قلوبهم، بسبب إقدامهم على هذا الصنيع الشنيع، فأورثهم نفاقاً في قلوبهم ﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾ أي: بموتهم ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أي: عليم بأعمال خلقه، وحكيم في مجازاتهم عنها، من خير وشر(١) فكان هدم بنيانهم غيظاً في قلوبهم. وذكر الشوكاني رحمه الله تعالى: أن بنيانهم هذا مُوجِب لمزيد ريبهم، واستمرار ترددهم وشكهم، والريبة: الحسرة والندامة، لأنهم ندموا على بنيانه، وقال المبرد: أي: حرارة وغيظاً، وقد كان هؤلاء الذين بنوا مسجد الضرار منافقين شاكين في دينهم، ولكنهم ازدادوا بهدم رسول الله صلى الله عليه وسلم نفاقاً وتصمياً على الكفر، ومقتاً للإسلام، لما أصابهم من الغيظ الشديد، والغضب العظيم بهدمه، ثم ذكر سبحانه وتعالى ما يدل على استمرار هذه الريبة ودوامها، وهو قوله تعالى ﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾ أي: لا يزال هذا إلا أن تتقطع قلوبهم قطعاً، وتتفرق أجزاء: إما بالموت، أو بالسيف، والمقصود أن هذه الريبة دائمة لهم ما داموا أحياء. ويجوز أن يكون ذكر التقطع تصوير لحال زوال الريبة، وقيل معناه إلا أن يتوبوا توبة تتقطع بها قلوبهم ندماً وأسفاً على تفريطهم(٢) وهذه المساحة من الدلالة تعطي الأوجه التي يمكن أن تكون منهم، فتتقطع قلوبهم حسرة وكمداً مما حصل منهم، ويلازمهم هذا الشعور حياتهم كلها إلا أن يموتوا أو يتوبوا توبة نصوحاً ممتلئة بالندم والأسف على ما حصل منهم. وهذا من بلاغة كلام الله تعالى وقوة بيانه، ليشتمل النص الكريم على الأوجه التي يمكن أن يُسار إليها حالهم بأقل الألفاظ مع سعة البيان، وبجمع الدلالات المقصودة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٤٠٥)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٢/٤٠٤)

ينتقل السياق الكريم إلى بيان فضله وإحسانه تبارك وتعالى بمعاوضته لعباده المؤمنين عن أنفسهم وأموالهم التي يبذلونها في سبيله عَزَّ وجل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَ﴾ فبدأ السياق الكريم بإثبات المعاوضة بطريقة الشراء التي تفيد التملك وكمال التصرف، وهو يملكها عَزَّ وجل من غير شراء، ولكن لإثبات العِوض، وتعزيز النفوس نحو بذلها مع الأموال في سبيله سبحانه وتعالى. وافتتح نص المعاوضة الكريمة بحرف التوكيد ﴿إِنَّ﴾ ليفيد التحريض والحرص والاهتمام والتأكيد على هذا العوض العظيم من الله تعالى مقابل بذل النفس والمال، وربما حصول التلف لها في سبيل طاعة الله تعالى، وكل ذلك مقابل طاعة الله عَزَّ وجل ورضاه عن العبد.

وذلك بإهلاك وتسخير والمال والأنفس في مرضاته تبارك وتعالى، وقد أعطى مقابل ذلك عوضاً عظيماً فريداً لا يقاس بهلاكها وهلاك المال ﴿بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَ﴾ فالعوض لهم هو دخولهم الجنة. ومن جميل البيان أن أجرى الله تعالى السياق على مجرى ما تعارف الناس عليه في البيع والشراء من المعاوضة، بأن يدفع الإنسان مقابل الحصول على مراده شيئاً مما عنده من المال والممتلكات، وقد يدفع أعَز ما يملك لقاء تحصيل مراده ومناه، فالعبد يبذل نفسه وماله مقابل دخول الجنة بفضل الله تعالى.

وبعد إجمال المعاوضة التي اشتملت على التشويق لمعرفة تفاصيل تلك المعاوضة يُفَصِّل الله سبحانه وتعالى مادة المعاوضة بعد بيان المقابل لها، وهو تحصيل الجنة التي هي أمنية المؤمنين، وأسمى مطالبهم، فقال تعالى ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَ﴾ وفي هذا السياق نوع من التشويق نحو معرفة المطلوب من النفس مقابل هذه الصفقة العظيمة، التي يتحصل بها المؤمن على الجنة، التي هي أعظم وأنفس ما يطلبه المؤمن. فجاء البيان بإيضاح ما يقاتل له وعليه ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فتضمن النص الكريم النية والمنهج، فالنية تنعقد بأن يكون قتال أعداء الله تعالى له عَزَّ وجل، وليس لأمر ونية أخرى، وكذلك تضمن النص الكريم المنهج ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فتحقيق سبيل الله تعالى يكون وفق مراده، ومقتضى منهجه في الجهاد، وأن لا يُتَّخَذ الجهاد وسيلة لتحقيق مآرب أخرى غير سبيل الله تعالى، بل وفق منهج الله عَزَّ وجل. فالبيع الذي يقتضي الشراء لتحصيل الجنة هو أن يكون في سبيل الله تعالى، أما إذا لم يستوف ذلك فليس داخلاً في شرط المعاوضة.

ثم بين تبارك وتعالى تفصيلاً لمعنى يقاتلون في سبيله عَزَّ وجل ﴿فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَ﴾ فيحصل أثناء فعل القتال أوجه من الأمور، وهي: أن يَقْتُلُوا من أعداء الله تعالى، أو أن يَقْتُل أعداءُ الله عَزَّ وجل منهم

قتلى، أو يحدث الأمران معاً، فيقتلون ويُقتلون ما شاء الله عَزَّ وجل أن يكون، فهؤلاء المؤمنون وجبت لهم الجنة من الله تعالى.

ثم يؤكد الله تعالى وعده هذا ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ﴾ فقد أكد الله تبارك وتعالى هذا الوعد على نفسه الجليلة العظيمة، بأن أخبر به في كتاب التوراة، وكتاب الإنجيل، وخاتمة كتبه القرآن الكريم، فقد أنزل الله تعالى ذلك على رسوله موسى عليه السلام في التوراة، وعلى عيسى عليه السلام في الإنجيل، وعلى رسوله محمد صلى الله عليه وسلم في القرآن العظيم. ثم يزداد التوكيد توكيداً بأسلوب السؤال التقريري، بقوله تعالى ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ فليس هناك أوفى من الله تعالى بما وعد عباده به، فكل مخلوق يوعد ويعد، وقد يخرج الأمر من يده لأي سبب، مهما كانت قدرته وقوته وسلطانه، ولكن الله تعالى يمتنع عليه أن لا يفي بوعده، لأن كل شيء تحت قهره وأمره وسلطانه، فهو تقرير بسؤال المؤمنين هل هناك أوفى من الله تعالى بعهده ووعده؟ وحال لسان المؤمن يقول: لا يا رب، ليس هناك أوفى بالوعد والعهد منك، فإذاً اطمئنوا بما وعدتكم به.

ويشتمل هذا البيان من الله تعالى على تنشيط المؤمنين ودفاعهم نحو الجهاد في سبيله سبحانه وتعالى. كما تضمن النص الكريم التدرج البياني، فأولاً: أخبر تبارك وتعالى بعملية شرائه لأنفسهم ونفقاتهم مقابل الجنة، وثانياً: أخبر بتأكيد الوعد فيما سبق من كتب، وكذلك فيما أنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم في القرآن، وفي هذا تعظيم لشأن المعاوضة بالجنة، وتعظيم شأن الجهاد في سبيله سبحانه وتعالى، وتعظيم لشأن المجاهد في سبيله عَزَّ وجل، إذ نوه بذلك في التوراة والإنجيل والقرآن العظيم. وثالثاً: أكد ذلك تبارك وتعالى بأنه ليس هناك من هو أوفى من الله تعالى بعهده ووعده إذا وعد، بما يفيد تمام وكمال التحقق. ورابعاً: التبشير بثمرة هذا البيع وهو دخول الجنة ﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ﴾ فليفرح بهذا البيع من قام بمقتضاه، وليستبشر من قام بمقتضى هذا العهد والعقد، ووفَّى به، فإن له الجنة، أي: قد ضمن دخول الجنة، وفاز بالفوز العظيم الجليل. وقد سماه الله تعالى بالفوز العظيم ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ فليس هناك فوز أعظم من دخول الجنة، والخلود فيها.

ثم ذكر الله تعالى أوصاف المؤمنين الذين استجابوا لله تعالى، فَقَبِل بيعهم، واشترى منهم أموالهم وأنفسهم ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قال ابن كثير رحمه اله تعالى: هذا نعت المؤمنين الذين اشترى اللهُ منهم أنفسهم وأموالهم بهذه

الصفات الجميلة والخلال الجليلة[١] وهناك وجه آخر أعم من تخصيص تلك الصفات بالذين جاهدوا بأموالهم وأنفسهم، قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: والمعنى: التائبون ومَن ذُكر معهم لهم الجنة أيضاً، وإن لم يجاهدوا، إذا لم يقصدوا ترك الجهاد ولا العناد، لأن بعض المسلمين يجزئ عن بعض في الجهاد[٢] أي التائبون ومن بعدهم إلى آخر الآية لهم الجنة أيضاً، وإن لم يجاهدوا[٣] وفضل الله تعالى واسع عظيم، لمن باع نفسه وماله لله تعالى ولمن اتصف بتلك الأوصاف التي تمثل الطاعة، خاصة وأن التبشير في تمام الآية الكريمة جاء عاماً، ليشمل جميع المؤمنين ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وفضل الله تعالى واسع عظيم.

وقد توالت تلك الأوصاف العظيمة المجيدة، والتي أولها ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ﴾ وهم الراجعون عن الشرك والنفاق وسائر المعاصي إلى الله تعالى بفعل ما أمر واجتناب ما نهى ﴿ٱلْعَـٰبِدُونَ﴾ المطيعون لله تعالى بالعبادة الخالصة له وحده لا شريك له ﴿ٱلْحَـٰمِدُونَ﴾ الذين يحمدون الله تعالى ويشكرونه على كل حال ﴿ٱلسَّـٰٓئِحُونَ﴾ أي: الصائمون، وقيل للصائم سائح لأنه يترك اللذات كما يتركها السائح في الأرض. وقيل هو الجهاد في سبيل الله تعالى قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: لفظ (س ي ح) يدل على صحة هذه الأقوال، فإن السياحة أصلها الذهاب على وجه الأرض كما يسيح الماء، فالصائم مستمر على الطاعة في ترك ما يتركه من الطعام وغيره، فهو بمنزلة السائح[٤] ويرجحه أنه بمعنى الصيام أنه قال بذلك ابن مسعود، وابن عباس، والحسن، وسعيد بن جبير، وقتادة[٥] ﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ﴾ أي: المصلون ﴿ٱلْأَٰمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ أي: الذين يأمرون غيرهم بطاعة الله تعالى، وينهون عن معصيته عَزَّ وجل ﴿وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ أي: القائمون بأمر الله تعالى، القائمون بحفظ شريعة الله تعالى ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: وبشر المتصفون بتلك الصفات، والتبشير الإعلام بالخير الذي ينتظرهم من الله تعالى، جزاء اتصافهم بتلك الصفات التي يحبها الله تعالى في المؤمنين. ومن عظيم فضل الله تعالى أن

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤٠٦/٢)
(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣٤٣/٣)
(٣) الشوكاني، فتح القدير (٤٠٨/٢)
(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٧٢/٨)
(٥) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣٤٤/٣)

وردت البشارة بصيغة العموم ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لتشمل خير الدنيا والآخرة، مع تفاوتها بحسب درجات المؤمنين، الذين تتفاوت طاعتهم والتزامهم.

ومن جماليات البيان وجلال دقته أن ذكر الله تعالى ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ﴾ والتي تفيد الرجوع إلى الله تعالى، وتخلية النفس من المعاصي، ثم جاء جماع الطاعة ﴿ٱلْعَـٰبِدُونَ﴾ وهي عبادة الله تعالى على الوجه الذي شرع، ثم جاء بعدها الحمد الذي هو مفردة من مجموع عبادة الله تعالى ﴿ٱلْحَـٰمِدُونَ﴾ ليفيد أهميته، ومنزلته ومكانته، ثم ذكر الله تعالى عبادة الصيام ﴿ٱلسَّـٰٓئِحُونَ﴾ بلفظ السياحة، لما في لفظ السياحة من التخلي عن الملذات المباحة امتثالاً لله تعالى، فكأنه سائر في صيامه غير ملتفت إلى طعام أو شراب. ثم ذكر الله تعالى عبادة الصلاة بأعظم ركنين فيها ﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ﴾ وهما الركوع والسجود، لما فيهما من التذلل لله تعالى. ثم ذكر ما يتعلق بالتواصي الاجتماعي ﴿ٱلْـَٔامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ ليمثل العلاقة بينهم، بأنها قائمة على التواصي بإقامة طاعة الله تعالى، والنهي عن معصيته عَزَّ وجل، ثم ختمت الأوصاف بصفة جامعة ﴿وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ لتشمل القيام بالعبادات، والقيام بحفظ شريعة الله تعالى من خلال القيام بها، وتعليمها، ونشرها، وتطبيقها، فالفرد يطبق ما يخصه في نفسه وفيما هو مطلوب منه مع غيره، والحاكم يحفظ حدود الله تعالى بسلطانه في نفسه وعلى من هم تحت أمره وإمارته، والوالدان كذلك، فهي شاملة وافية لكل أحد من المسلمين بما يسعه من التكليف والمسؤولية.

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا
تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن
مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَمَا
كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ
﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا
نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾﴾

يوجه الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين إلى ما يجب أن يكونوا عليه مع من لا يستحقون أن يُستغفر لهم. فقال الله تبارك وتعالى ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴾ فقد جاء هذا النهي بعد أن أوضح الله تبارك وتعالى وأكد في مطلع هذه السورة براءته سبحانه وتعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم من المشركين ﴿ وَأَذَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ ﴾ ثم أكد ذلك في هذه الآية الكريمة بأدق التفاصيل ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴾ فإنه لا يليق بالنبي صلى الله عليه وسلم ولا بالمؤمنين أن يستغفروا للمشركين حتى ولو كانوا من أقرب الناس للمؤمن، من بعد ما اتضح لهم أنهم أصحاب الجحيم، لكفرهم الذي أوجب لهم مصاحبة النار مصاحبة دائمة، خالدين فيها. فإنه لا تنفع فيهم شفاعة الشافعين، ولا استغفار المستغفرين. مما يفيد أن الكافر من ذوي القرابة لا ينتفع باستغفار المؤمن له فيما لو استغفر له. وأن عذاب الكافرين ملازم لهم، ومصاحب لهم، فلا تنفك النار عنهم، ولا ينفكون عنها، فهي علاقة مصاحبة، فنعوذ بالله تعالى من النار، وأسباب تحصيلها. وورد النهي بصيغة المبالغة التي استوفت واستقصت جمع الأقربين الذين هم أقرب النسب للمؤمن، فكيف بمن هم دونهم من الناس ﴿ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ ﴾ فتعيين الأقرب ينتفي به الاستغفار للأبعد، وفي هذا غاية النهي بغاية المبالغة بمن هم أقرب وألصق.

ثم أوضح الله تعالى ذلك بما وقع من خليل الله تعالى إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿ وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُ ﴾ فإن استغفار إبراهيم لأبيه لعلة الوعد الذي حصل منه لأبيه، فلما تبين له أن أباه باق على كفره، ومصر عليه، تبرأ إبراهيم عليه الصلاة والسلام من أبيه، لأنه أصبح بكفره عدواً لله تعالى؛ فلا يستحق الاستغفار، حتى ولو كان هذا الاستغفار من ولده، الذي هو خليل الله تعالى ونبيه ورسوله عليه الصلاة والسلام. مما يفيد أن وعد إبراهيم لأبيه كان قبل أن يتبين له أنه عدو لله تعالى ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُ ﴾ فلما تبين الأمر واتضح له تبرأ من أبيه، مما يدل على سرعة التجاوب والطاعة لله تعالى، فبمجرد علمه بحال أبيه من الكفر تبرأ منه. فجاء الثناء العظيم، والتزكية الرفيعة من الله تعالى على إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿ إِنَّ

إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ فإن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان موقناً، كثير الدعاء، ومُتصفاً بالحلم، وبما يفيد المدح والثناء من الله تعالى عليه.

ومن رحابة السياق أن دلالة ﴿ لَأَوَّاهٌ ﴾ قد شملت العديد من المعاني كما أوردها الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى، فهي متضمنة للرحمة، وكثرة الدعاء، والموقن، والفقيه، والمؤمن، والمسبح، والكثير الذكر لله تعالى، وكثير التلاوة، وعن كعب، قال: الأواه إذا ذَكَر النار، قال: أواه، وقيل: المتضرع الخاشع[١] فهذه المعاني تتضافر معطياتها الدلالية لتعطي ما كان عليه إبراهيم عليه الصلاة والسلام من المكارم وحُسن التعامل، مما يدل على أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان متصفاً بتلك الأوصاف من المحامد الخلقية.

وفي ذلك ما يبين سمو نظم الكلام في القرآن الكريم، وجزالة معانيه، وبلاغة بيانه في الوصف، وأن من بلاغة القرآن الكريم أن وصفه باللفظة التي تستجمع كمال وصف الموصوف، والتي أغنت عن تعداد معانيها ودلالاتها، فأغنت كلمة واحدة عن العديد من المفردات المبينة للوصف المراد، وهذا من الإعجاز البياني للقرآن الكريم. وكذلك أهمية هذه الصفات، وعظيم منزلتها، وأنها جديرة بأن يحرص المؤمن على الامتثال بها. كما وردت ﴿ لَأَوَّاهٌ ﴾ بصيغة المبالغة، بما يفيد قوة الامتثال بهذه الصفة، فأعطت في معناها كثرة الاتصاف بها، والقيام بمضمونها.

وكذلك من صفات إبراهيم عليه الصلاة والسلام أنه حليم ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ وهي صفة تدل على التريث، وعدم التسرع، كما أنها تفيد المبالغة من كثرة الامتثال بها، مما يفيد رحمته بالخلق، إذ لا يستعجل عليهم، ولا يستثيره أهل الجهل بجهلهم، بل يحلم عليهم، ويصبر على أذاهم، ويصفح عنهم، الأمر الذي يوجب لمن يتعامل معه عليه الصلاة والسلام أن يميل إليه لكريم أخلاقه، وطيبة معشره، وأسلوبه، وحُسن تعامله، فأعطت هذه الصفة الكريمة معاني ودلالات عظيمة في أخلاق إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

فقد وصف الله تعالى إبراهيم عليه الصلاة والسلام بصفتين، قد جمعت خصال عبوديته لله تعالى، وخصال محامد التعامل مع الخلق. وكذلك بصيغة المبالغة التي أفادت الكثرة، والتصاق الصفتين بإبراهيم عليه الصلاة والسلام. فهذا إعجاز بلاغي في البيان الإلهي، حيث استجمعت مفردات الوصف لجميع تلك الصفات بأقل الألفاظ، بل كانت بكلمتين عظيمتين ﴿ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٢/٣٤-٤٤)

ثم يخبر الله تعالى عن نفسه العظيمة، وعدله ورحمته بالعباد ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ قال السعدي رحمه الله تعالى: يعني: أن الله تعالى إذا مَنَّ على قوم بالهداية، وأمرهم بسلوك الصراط المستقيم، فإنه تعالى يتمم عليهم إحسانه، ويبين لهم جميع ما يحتاجون إليه، وتدعو إليه ضرورتهم، فلا يتركهم ضالين جاهلين بأمور دينهم... ويحتمل أن المراد بذلك ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ﴾ فإنه إذا بين لهم ما يتقون، فلم ينقادوا له، عاقبهم بالإضلال، جزاء لهم على ردّهم الحق المبين. والأول أولى[١] وقال الشوكاني رحمه الله تعالى عن معنى ﴿ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ﴾ حتى يتبين لهم ما يجب عليهم اتقاؤه من محرمات الشرع[٢] وهذا يدل على كمال رحمته تبارك وتعالى، وعنايته بعباده، فإنه يصل بحججه وآياته وبيانه ما يحقق لهم التقوى، إلا مَن أبى وتكبر عن الحق، ولم يذعن له.

ثم ختم الله تعالى هذا البيان الكريم بعظيم علمه الذي وسع كل شيء ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ فيؤكد الله تعالى لعباده أنه عليم بكل شيء، لينتفي به عدم العلم، أو بجزء منه، فإنه لا يغيب عن علمه سبحانه وتعالى صغير ولا كبير، ولا سر ولا علانية، ومن علمه سبحانه وتعالى هو معرفته بمن يتقيه، ومن لا يتقيه، وما يصلح للعباد، وما لا يصلح لهم، وهو عليم بشرعه وتدبيره، وما يكون من كل أحد من عباده، وما لم يكن منه قبل أن يكون. مما يغرس الطمأنينة في المؤمنين الطائعين، بأن جهدهم معلوم عند الله تعالى، وسيكافئهم عليه، ويجزيهم بخير الجزاء، ومن وجه آخر فيه تحذير لمن لا يتقه عَزَّ وجل، فإنه سبحانه وتعالى عالم به، وبمعصيته، ومجازيه على ذلك.

ثم يبين الله تعالى لعباده عظمة ملكه وعظيم سلطانه سبحانه وتعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ فإن لربكم جَلَّ في علاه كمال الملك الشامل للسماوات والأرض وما فيها وما بينهما، وما ينزل من السماء، وما يعرج إليها، وما فوق الأرض، وما تحت الثرى، فكل شيء ملكه وتحت تصرفه وتدبيره عَزَّ وجل، ثم ذكر سبحانه وتعالى خصيصة من تدبيره فيما يتعلق بوجود العبد وموته ونهاية حياته في الدنيا ﴿ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ﴾ فهو الذي يحي، فَيُنْشِئ الخلق، وهو الذي يتوفى الأنفس، ويتصرف فيها كيف يشاء، وفي هذا لفت الانتباه والذهن؛ مع توجيه وتركيز العقل إلى الأمر الذي لا يقول أحد من الخلق أن له في هذا الأمر شأن

(١) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٢/٢٩٢)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٢/٤١٢)

ورأي وتصرف، بل هو مسلوب الإرادة فيه، وهو ما يتعلق بإيجاده، وحياته ونهايته، فهي لفتة عظيمة البيان والأثر لعملية الإيجاد والنهاية الدنيوية بالموت الذي تنعدم فيه إرادة المخلوق.

وقد شملت دلالة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ كل ما ارتفع وعلا مما يراه الإنسان ومما غاب عنه فلا يراه. ومن ذلك الأفلاك والأجرام والسحاب، والهواء، والرياح، وغير ذلك مما لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى، وقد شملت ﴿ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ جميع ما هو عليها، أو ظاهر على سطحها، أو بداخلها، مما لا يراه الإنسان. فاستوعبت ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ جميع ما خلق الله سبحانه وتعالى مما يراه الإنسان وما لا يراه، لقصور حواسه عن إدراكه ورؤيته، وهذا من عظيم البيان في كلام الرحمن.

فهو سبحانه وتعالى مخترع ومبدع هذا الكون، وبالتالي فإن الذي اخترع السماوات والأرض بهذه العظمة، وهذا الإبداع فإنه هو العظيم الذي لا عظيم غيره، وهو الذي يجب على العباد طاعته وعبادته وحده لا شريك له. وبما يفيد كمال ملكه وكمال قدرته، وسعة وعظمة مَا خَلَق، فَدَلَّ ذلك على أن كل شيء عبد له، وتحت مشيئته وسلطانه سبحانه وتعالى، وأنه هو القاهر فوق عباده، مما يلزم طاعته وتوحيده، وإفراده بالعبادة، والخوف منه، ورجاء ما عنده عَزَّ في علاه.

ثم تدرج البيان من تلك الحقيقة إلى حقيقة النصر والمناصرة ﴿ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴾ فإنه ليس لأحد من خلقه من يتولى أمره وينصره من دون الله تعالى، فكل أحد مُلك لله تعالى، وكل أحد ضعيف فقير أمام الله تعالى، فلا قريب ولا صديق ولا حميم يستطيع أن ينقذكم من عذاب الله تعالى، أو أن يدفع عن أحد منكم شيئاً مما أراده الله تعالى بكم. وفي هذا بيان لضعف الإنسان أمام قوة الله تعالى، وأنه لا ولي ولا ناصر لأحد من دون الله تعالى، مما يجب على الإنسان أن يستجيب ويمتثل لله تعالى، ويذعن لأمره وشرعه، فيطيع ربه عَزَّ في علاه. وأن يدرك أن القوة وجميع القوى من دون الله تعالى لا حول لها ولا قوة. كما يفيد هذا حصر النصر بأنه في يد الله تعالى، فهو الذي يتصرف فيه كيف يشاء، ليندرج تحته من الفوائد أن لا تهابوا الكافرين، فلن ينتصروا عليكم ولن تنتصروا عليهم إلا بإرادة الله تعالى، وإذا كان الله تعالى ولي المؤمنين، فإن الكافرين لا ولي ولا مولى لهم، ولن ينتصروا على من كان الله تعالى وليهم، وفي هذا تعزيز لقوة المؤمنين في عقيدتهم وشجاعتهم، وتفويض الأمر لله عَزَّ في علاه، وأن لا يخشوا من الكفار شيئاً، لأن الله تعالى مولى المؤمنين، وأما الكافرين فلا مولى لهم.

﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٧﴾

وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ
وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ وَمَنۡ
حَوۡلَهُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرۡغَبُواْ بِأَنفُسِهِمۡ عَن نَّفۡسِهِۦۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ لَا
يُصِيبُهُمۡ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخۡمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئًا يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ
وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ
﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةٗ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةٗ وَلَا يَقۡطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمۡ لِيَجۡزِيَهُمُ
ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٢١﴾ وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗۚ فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ
مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾

بعد بيان الله تعالى لأمر الجهاد والتحريض عليه، والتحذير من التخلف، وما كان من المنافقين وتخلفهم، ينتقل التوجيه والبيان الكريم بتدرج بديع إلى حال النبي صلى الله عليه وسلم وأولئك الذين ساروا معه في جيش العسرة إلى تبوك، وفي شدة من الأمر، حيث كانت سنة مجدبة، وحراً شديداً، وعسراً في معيشة الزاد والماء والمال والنفقة، والظَّهر من المركوب، كالخيل والبعير، فباشرهم الله تعالى بتوبته ومغفرته التي هي مطمع كل مؤمن ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾ فقد استهل الله تعالى الآية الكريمة بتوبته وعفوه وبكرمه ورحمته، بل جاء مطلع الآية الكريمة بحرف التأكيد ﴿ لَّقَد ﴾ ثم تلاه مباشرة إعلان خبر التوبة ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ ﴾ مما يفيد البشارة المؤكدة التي تطمئن بها نفوس المؤمنين، وهذا من لطفه سبحانه وتعالى، وكريم رحمته جَلَّ جلاله. وقد نعتهم ووصفهم وسماهم باسمين كريمين، يحملان دلالات سابقة لهم بالخير من الطاعة والامتثال: المهاجرون والأنصار وقد تقدمهم النبي الكريم صلى الله عليه وسلم ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ﴾ فقد تاب الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم، ولذي ذكره بلفظ النبوة، التي فيها من التكريم مالا يسعه الوصف، من الاختصاص من بين خلقه أجمعين، ونزول الوحي عليه، ونزول أعظم كتاب عليه من فوق سبع سماوات، وغير ذلك من الخصائص الباهرة، والاصطفاء العظيم، وقد سمى المؤمنين بخلتين عظيمتين: الأولى: ما يخص

المهاجرين، فنعتهم بما كان منهم ﴿وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ وهم الذين تركوا أموالهم وديارهم، وتجردوا منها حباً ونصرة لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم، وأعظم بها من صفة. والثانية: متعلقة بمن أوى رسوله صلى الله عليه وسلم ومن معه من المهاجرين. وهم الأنصار ﴿وَٱلْأَنصَارِ﴾ أولئك الذين استقبلوا النبي صلى الله عله وسلم والمهاجرين، ونصروهم، وشاطروهم المال والمعيشة، حتى أصبح الأنصاري أخاً للمهاجري، يتولى أمره ويرث بعضهم بعضا، حتى أنزل الله تعالى آية المواريث، فأصبحت في النسب. وهذا من كرم الله تعالى في تلطفه بالمؤمنين، بالعفو عنهم، والثناء عليهم، ومدحهم، ومناداتهم ووصفهم بأكمل الصفات وأحسنها وأجملها. فإذا كان هذا من الله تعالى مع عباده، وهم عبيد له، فإن في هذا تعليم للمؤمنين بأن يكونوا كذلك مع بعضهم البعض، ففي هذا المنهج دروس في تعليم المؤمن مكارم الأخلاق وجميل التعامل، والاعتراف لأهل الفضل بفضلهم، وتسميتهم بما اتصفوا به.

ثم أشاد سبحانه وتعالى بالمؤمنين في جميل الطاعة للنبي صلى الله عليه وسلم في أصعب الظروف والأحوال، حيث لم يعتذروا، ولم يتوانوا أو يترددوا، بل باشروا السمع والطاعة والإقدام مع عسر الحال، فقال تعالى ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ وسماها الله تعالى ﴿سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: أي: وقت العسرة، والمراد جميع أوقات تلك الغزوة، ولم يرد ساعة بعينها، وقيل ساعة العسرة أشد الساعات التي مرت بهم في تلك الغزوة، والعسرة: صعوبة الأمر[1] وقد ذكر الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى ما كان من العسر في تلك الغزوة: فقد أصابهم جهد شديد، حتى أن الرجلين يشقان التمرة بينهما، ليمتصوا التمرة الواحدة، ويشربون عليها الماء، وخرجوا للغزوة والرجلان والثلاثة على بعير، وخرجوا في حر شديد، وأصابهم العطش الشديد، فينحرون إبلهم، فيعصرون أكراشها، ويشربون ماءها[2] فاجتمع فيها: عسرة الماء، وعسرة الزاد، وعسر الظهر، أي: المركوب الذي يركبون عليه من الإبل.

ثم بلغ البلاء ببعضهم أن حصلت له الفتنة في دينه ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ أي: من بعد ما كاد يميل قلوب بعضهم عن الحق، ويشك في دينه ويرتاب بالذي ناله من المشقة، والشدة في سفره وغزوه[3] مما يفيد أن المؤمن قد يحصل له من الفتنة ما قد يزيغ قلبه بها، فعليه أن يلزم حبل الله تعالى، ويتمسك بما آمن به، ويعض عليه بالنواجذ، ويسأل الله تعالى الثبات، ولذلك كان من دعاء النبي

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٧٧/٨)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٠/١٢-٥١)

(٣) المرجع السابق (٤٩/١٢)

صلى الله عليه وسلم سؤال الثبات على الدين، فعن أنس رضي الله عنه، قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول (يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك) [1] فاللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي وقلوب أخواني المسلمين والمسلمات على دينك. ثم من كرم الله تعالى عليهم أن تاب عليهم ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ فقد رزقهم الله تعالى الثبات على دينه والإنابة إليه، وإبصار الحق الذي كاد أن يلتبس عليهم ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ فإن الله تعالى رؤوف بهم، ورحيم بحالهم، وبقلوبهم، فثبتهم على دينه وقوة الإيمان، ومواجهة ذلك بالصبر والطاعة والانقياد، مما يفيد أن المؤمن الذي يجاهد نفسه في طاعة الله تعالى، ويتحمل في سبيل دينه المصاعب، فإن الله تعالى يلطف به وخاصة حال المحن والابتلاء.

ومن جميل البيان وتكريم النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، أن التوبة شملت في الابتداء الجميع ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ ثم خص الفريق الذين كاد أن يلحقهم الزيق، لولا فضل الله تعالى وكرمه عليهم ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾

ثم أخبر الله تعالى خبر الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك، فخصهم عَزَّ وجل بالذكر من بين غيرهم ممن تخلف ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ فلقد تاب الله تعالى على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى المهاجرين والأنصار وعلى الثلاثة الذين خُلِّفُوا، أي: تخلفوا عن الخروج عن غزوة تبوك، وهم: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومُرارة بن ربيعة، رضي الله عنهم، وجميعهم من الأنصار رضي الله عنهم أجمعين.

ومن جميل البيان ودقته أن الله تعالى ذكر الثلاثة بما يفيد أنهم عُرِفُوا من بين غيرهم ممن تخلف، حيث ذكرهم بلام التعريف ﴿ٱلثَّلَٰثَةِ﴾ بما يفيد أنهم كانوا معروفين عند غيرهم. كما أن الله تبارك وتعالى وصفهم بأنهم ﴿ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ بما يفيد أنهم تُركوا، وأُخِّرُوا وأرجئوا، قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: وأُخِّرُوا عن المنافقين، فلم يقض فيهم بشيء، وذلك أن المنافقين لم تقبل توبتهم، واعتذر أقوام، فَقُبِل عذرهم، وأخر النبي

---

(1) الترمذي، الجامع الصحيح (٣٩٠/٤) برقم (٢١٤٠)

صلى الله عليه وسلم هؤلاء الثلاثة حتى نزل فيهم القرآن، وهذا هو الصحيح لما رواه البخاري ومسلم[١] قال كعب: وكنا تخلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قَبِلَ منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حلفوا له، فبايعهم، واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنا، حتى قضى الله فيه، فبذلك قال الله ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ وليس الذي ذكر الله مما خُلِفنَا عن الغزو، إنما هو تَخْلِيفُهُ إيانا، وإرجاؤه أمرنا عَمَّن حلف له، واعتذر إليه، فقبل منه[٢]

وقد أخبر الله جَلَّ شأنه بما كان من حال هؤلاء الثلاثة ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ﴾ فعلى سعة الأرض ورحابتها، فإنه من شدة ما أصابهم من الحزن والهلع والخوف أن الأرض على رحابتها العظيمة في سعتها، كانوا يشعرون بضيقها بهم، وتضييقها عليهم، فليس لهم فيها مُتسع يسعهم، وفي هذا وصف عظيم دقيق لواقع حالهم النفسي، وما كان يختلج في فؤاد كل واحد منهم، لأنه الخوف من الله تعالى، والخوف من عقابه لهم، مما يدل على أسفهم وأساهم، بل من شدة ذلك أن ضاقت بهم أنفسهم التي هي منهم، وهم منها ﴿وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾ فكأن أنفسهم انحصرت وقصرت عنهم، واشدت عليهم، واشتد حصارها من داخلها عليهم، ليمتد أثره إلى كل شيء فيهم، فلم تعد النفس تتحمل ذاتها، وهذا من أصعب الحالات النفسية، وفيها من البيان دقة التصوير لمعاناة الذات من حالها، وما يدور في خلجاتها التي لا يعلمها إلا الله تعالى والإنسان من نفسه.

فإن من شدة خوفهم من الله تعالى قوله عَزَّ وجل عنهم ﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾ فقد أيقنوا يقيناً لا يساوره شك أنه ليس هناك ملجأ ولا متكأ ولا مخرجاً يلجؤون إليه للخلاص مما أصابهم من أثر خوفهم من الله تعالى إلا بالرجوع إليه بالتوبة والاستغفار والدعاء، فانحصرت الحلول عندهم في أمر واحد فقط، هو أن الله تعالى الذي تخافونه هو الذي ينجيكم مما أنتم فيه. فإنها الحالة التي تعبر وتكشف عن حبهم لله تعالى، وخوفهم من غضبه وعقابه، وهنا جاءت رحمة الله تعالى بتوبته عليهم، فكانت آية تتلى في كتاب الله تعالى ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ فقد أسدل عليهم الرحمن الرحيم رحماته بقبول توبتهم، ليتوبوا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ فهو جَلَّ جلاله تواب، أي: كثير القبول لتوبة التائبين من عباده، وكثير الرحمة لعباده، فيرحمهم بلطفه وتدبيره وإحسانه. فلفظة ﴿ٱلتَّوَّابُ﴾ تفيد صفة المبالغة والكثرة

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٧٨/٨)

(٢) البخاري، الجامع الصحيح (١٧٦/٣-١٨٠) برقم (٤٤١٨)

العظيمة للتوبة من الله تعالى لعباده، وكذلك ﴿ ٱلرَّحِيمُ ﴾ بأنه عَزَّ وجل كثير الرحمة على عباده، بما يعمهم بالأرزاق والخيرات، وقبول التوبة من التائبين.

فقد جاء إليهم فرج الله تعالى بعد أن كان حالهم كما قال عَزَّ وجل ﴿ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ﴾ وهنا قال تعالى ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ ﴾ فأكرمهم بقبولهم ﴿ لِيَتُوبُوٓاْ ﴾ فيعزموا على عدم العودة لمثل ذلك، والأسف على ما كان منهم. ويتبين من قوله تعالى ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ﴾ أنه تم تأخير قبول توبتهم حتى بلغ شأنهم ما بلغ ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ فإن في تدبير الله تعالى من تأخير قبول توبتهم حكمة عظيمة، ورفعة لهم ولمنزلتهم، لعدولهم عن الأعذار إلى الاعتراف بالحقيقة، مما يبين أهمية الاعتراف بالتقصير، حتى يعود المؤمن للحقيقة بصراحة ووضوح، والعلم بأن الملجأ والمنجا هو عند الله تعالى، وأن الله تعالى هو الذي يكشف العسر ويزيله بأحسن مما يتوقع العبد.

وقد جاء في صحيح الإمام البخاري رحمه الله تعالى عن حال هؤلاء الثلاثة رضي الله عنهم أن قال كعب بن مالك رضي الله عنه ما ملخصه أنه: لم أتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة غزاها إلا في غزوة تبوك، غير أني كنت تخلفت في غزوة بدر، ولم يعاتب أحداً تخلف عنها، إنما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد عير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد. وكان من خبري أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر حين تخلفت عنه في تلك الغزاة. وطفقت أغدو لكي أتجهز معهم، فأرجع ولم أقض شيئاً، فأقول في نفسي: أنا قادر عليه، فلم يزل يتمادى بي حتى اشتد بالناس الجد، فقلت: أجهز بعده بيوم أو يومين، ثم ألحقهم. فلم يزل بي حتى أسرعوا، وهممت أن أرتحل فَأُدرِكُهم، وليتني فعلت، فلم يُقَدَّر لي ذلك. ولم يَذْكُرِنِي رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ تبوك، فقال في القوم بتبوك (ما فعل كعب؟)

فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من تبوك إلى المدينة: عرفت أني لن أخرج منه أبداً بشيء فيه كذب. وجاءه المخلَّفون وكانوا بضعة وثمانون رجلاً، فقبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم علانيتهم، وبايعهم واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله. فجئته، فلما سلمت عليه، تبسَّم تبسُّم المغضب، ثم قال: تعال، فجئت أمشي حتى جلست بين يديه ... فقلت: لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني، ليوشكن اللهُ أن يسخطك عليَّ، ولئن حدثتك حديث صدق، تجد عليَّ فيه، إني لأرجو فيه عفو الله. لا والله ما كان لي من عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضى اللهُ فيك. فقمت. وقلت: هل لقي هذا معي أحد؟ قالوا نعم. رجلان:

فقيل لهما مثل ما قيل لك. فقلت من هما؟ قالوا: مرارة بن الربيع العمري، وهلال بن أمية الواقفي، فذكروا لي رجلين قد شهدا بدرا، فيهما أسوة، فمضيت حين ذكروهما لي. ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه، فاجتنبنا الناس، وتغيروا لنا، حتى تنكرت في نفسي الأرض، فما هي التي أعرف. فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشَبَّ القوم وأجلدهم، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف في الأسواق، ولا يكلمني أحد. حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتيني، فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن تعتزل امرأتك، فقلت: أطلقها؟ أم ماذا أفعل؟ قال: لا. بل اعتزلها، ولا تقربها. وأرسل إلى صاحبيَّ مثل ذلك، فقلت لامرأتي الحقي بأهلك فتكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر.

فلبثت بعد ذلك عشر ليال حتى كملت لنا خمسون ليلة، من حين نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كلامنا، فلما صليت صلاة الفجر، صُبح خمسين ليلة، وأنا على ظهر بيت من بيوتنا، فبينما أنا جالس على الحال التي ذكر الله قد ضاقت علي نفسي، وضاقت عليَّ الأرض بما رحبت، سمعت صوت صارخ أوفى على جبل سلع بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشر، قال: فخررت ساجداً، وعرفت أن قد جاء فرج، وآذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بتوبة الله علينا، حين صلى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا، وذهب قِبَلَ صاحبي مبشرون، وركض إليَّ رجلٌ فرساً، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبي، فكسوته إياهما ببشراه، والله ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرت ثوبين فلبستهما، وانطلقت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيتلقانا الناس فوجاً فوجا، يهنوني بالتوبة[١]

وذكر السعدي رحمه الله تعالى جملة من الفوائد القيمة: أن توبة الله تعالى للعبد هي أجل الغايات، وأعلى النهايات، فقد جعلها الله تعالى نهاية خواص عباده. وكذلك لطف الله تعالى بهم، وتثبيتهم في إيمانهم عند الشدائد. وأن مِن لطف الله تعالى بالثلاثة أن وسمهم بوسم ليس بعار عليهم، فقال تعالى ﴿ خُلِّفُواْ ﴾ إشارة إلى أن المؤمنين خلفوهم، أو خلفوا عمن بُتَّ في قبول عذرهم، أو في رده، وأنه لم يكن تخلفهم رغبة عن الخير، ولهذا لم يقل: تخلَّفُوا. وكذلك أن الله تعالى مَنَّ عليهم بالصدق، ولهذا أمر بالاقتداء بهم، فقال تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾[٢]

---

(١) البخاري، الجامع الصحيح (١٧٦/٣-١٨٠) برقم (٤٤١٨)

(٢) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٢٩٤/٢-٢٩٥)

ثم يتجه الخطاب من الله تعالى لجميع المؤمنين بالتوبة ولزوم الصدق ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ وباعتبار ما قبلها من قصة الثلاثة الذين خُلِّفُوا يكون الخطاب أمراً للمؤمنين بالتقوى والاقتداء بالثلاثة في صدقهم، فنعت الله تعالى الثلاثة بالصدق ووصفهم به، بل وزكَّا صدقهم، وفي ذلك منقبة وثناء عليهم لتقواهم بما اشتمل عليه من الخوف والرجاء، وذلك صدقهم مع الله تعالى ومع رسوله صلى الله عليه وسلم، وتحريهم الحق والحقيقة، والاعتراف بما كان من تخليهم عن الغزوة طمعاً في مغفرة الله تعالى، وتحملهم ما ترتب على ذلك، مما حصل لهم من الابتلاء العظيم، حتى ضاقت بهم الأرض بما رحبت، وضاقت عليهم أنفسهم. كما أن في النص الكريم استحثاث للمؤمنين بالاقتداء بهم وبمن دخل في دائرة التقوى والصدق مع الله تعالى. ومن جميل الأوجه المتعلقة بالصادقين ﴿ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ أي: كونوا مع النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وكونوا مع أبي بكر وعمر، وكونوا مع المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم أجمعين. وجميع أولئك صادقين، قد اتصفوا بالصدق وتحلوا به. وقد ذكر ذلك وفصله الإمام الطبري رحمه الله تعالى[١] وهذا من رحابة أوجه النص وغزارة فوائده، ومن مميزات هذه الأوجه أنها لا تنازع بينها في الاستنباط والاستنتاج، وهذا من غزارة البيان، وبلاغة السياق.

ومن بلاغة النص الكريم أيضاً أن سياقه جاء منفرداً ليكون قاعدة عامة لكل مؤمن ومؤمنة بالتزام تقوى الله تعالى والصدق معه عَزَّ وجل. فالتقوى تقود إلى الصدق، وذلك لما هو متقرر في قلوب وإيمان المتقين بأن الله تعالى لا تخفى عليه خافية، فإن مَنْ نجى في الدنيا بالكذب، فإنه لا ينجو عند الله تعالى بكذبه إلا بمغفرته وعفوه عنه، لأنه سبحانه وتعالى يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور. وقد جاء الأمر بالصدق بأبلغ عبارة ﴿ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ أي: تخلقوا بالصدق، حتى تنحازوا إلى الممدوحين بالصدق، بما يؤكد ويبين أن لهؤلاء الصادقين مع الله تعالى منزلة عظيمة عنده عَزَّ وجل، كما قال صلى الله عليه وسلم (عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يُكتب عند الله صديقا)[٢]

ومن جميل أسلوب الأمر من الله تعالى أن تقدمه النداء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ﴾ ووصفهم بالمؤمنين ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ فإن الذي يليق بكم أيها المؤمنون أن تلزموا التقوى، وتنحازوا إلى فئة الصادقين لِتُكتبُوا عند الله مع الصادقين، وتتشرفون بشرف ومنزلة الصادقين عند الله تعالى.

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٢/٦٧-٦٨)

(٢) مسلم، صحيح مسلم (٤/٢٠١٢-٢٠١٣) برقم (٢٦٠٧)

وهي قاعدة نفيسة للمؤمن، فإذا واجه ما يجعله يكذب قال لنفسه ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ وإن تردد بين الصدق والكذب عزز تردده بقوله تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ وإن أرشد ووجّه ونصح أحداً عن الكذب قال له بقوله تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ فاللهم اجعلني وإخواني المسلمين والمسلمات من الصادقين، بفضلك ورحمتك وتوفيقك يا رب العالمين.

ثم يستحث الله تعالى المؤمنين على القتال والجهاد مع رسوله صلى الله عليه وسلم بأسلوب العتاب واللوم لمن تخلف، والاستثارة لما هو أجدر وأليق بأهل المدينة ومن هم في أطرافها ونواحيها من البادية، بما يفيد وجوب استنهاض الهمم للمشاركة مع نبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ فلا يصح ولا يليق بأهل المدينة ومن حولها من أهل البادية التَّخَلُّف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهم الأقرب مكاناً وملاصقة له صلى الله عليه وسلم، وهو الأمر الذي ليس من أخلاقهم، بما يفيد العتاب لمن تخلف، والمدح والثناء على من بادر بالاستجابة لنداء رسول الله صلى الله عليه وسلم، فليس من طبعهم ولا من أخلاقهم أن يستأثروا ويقدموا محبة أنفسهم وراحتهم وحياتهم على محبة وحياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ مما يفيد تقديم محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم على محبة النفس، وأن لا يستأثر المؤمن بنفسه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل يجب أن يفدي المؤمن رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه، وبما هو دون النفس من المال والجاه، وكل ما يملك، أو يعز عليه، فليس هناك أعز وأكرم من النبي صلى الله عليه وسلم. وفي هذا تنويه لمن تخلف من غير سبب موجب لذلك، بأن هذا التخلف ليس من أخلاق أهل المدينة من المؤمنين ولا ممن حولها من البادية. وفي هذا الأسلوب من التوجيه والتصحيح ما يوجب التأمل والتفكر، فقد اشتمل على التعميم ليكون أكثر تشجيعاً وترغيباً وحثاً للمتابعة وكمال الطاعة. وقد اشتمل البيان الكريم على عتاب من تخلف بأسلوب الإشارة والإيماء، بما يستنهض الهمم، ويصحح السلوك، ويغرس المكارم، ويزيدها إيماناً وصلاحاً.

مما يفيد أن لأسلوب العتاب الْمُفْعَم بالتشجيع مع التنويه باللوم الذي يستنشط الهمم له فاعلية كبيرة في النفوس، فإنه يستثير العواطف، ويعيد الإنسان للحقيقة التي يجب أن يتحلى ويتخلق بها، كما أنه يستنهض العقل للتفكر والتأمل. مما يعلم المؤمن منهجية الإصلاح، وسُبُل النصح والتوجيه والإرشاد.

ثم يذكر الله تعالى ثوابه العظيم لمن سار في سبيله سبحانه وتعالى، بما يقتضي عدم التخلف ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَـٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وفي هذا التنويه والبيان من الله تعالى استنهاض لهمم عباده المؤمنين، بأن ما تقدمونه من أموالكم وأنفسكم في سبيل الله تعالى، فإنكم تثابون وتُجزون عليه خيراً عظيماً، فإن كل ما تلاقونه من متاعب ومصاعب وشدائد، يُكتب لكم به عمل صالح، حتى من أصابه عطش ﴿ظَمَأٌ﴾ مِنْ قلة الماء، أو أصابه ﴿نَصَبٌ﴾ وهو التعب ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾ أي: الجوع، فجميع تلك الأحوال من المصاعب والشدائد التي يمكن أن تحصل لكم، فإن الله تعالى يُثيبكم عليها، ويجزيكم بخير الجزاء وأعظمه، طالما أنه في سبيله سبحانه وتعالى، بل ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَـٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وكذلك كل مكان يطؤنه من الأرض بخيولهم أو بأقدامهم ومراكبهم فيغتاظ منه العدو الكافر، فإنه يُكتب لهم به عمل صالح، لأن الكافر يغتاظ ويأنف من صولة قوة جيش المسلمين التي تسير في أرضه، لما في ذلك من إذلاله وغلبته، وكذلك ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَـٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وكذلك ما يصيبون به العدو من إصابة قاتلة، أو جراح، أو سبي، أو تحصيل شيء من أموالهم ومتاعهم إلا أثبت الله تعالى لهم به عملاً مقبولاً ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَـٰلِحٌ﴾ لأن هذا العمل قد اتصف بصفة الصلاح، فيلقون ثوابه عند الله تعالى.

ثم سَمّى اللهُ تعالى ذلك العمل بالصالح ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَـٰلِحٌ﴾ ووصف العاملين به محسنين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فلن يفقدوا منه شيئاً. وقد تضمن ذلك الإشادة بوصفهم بالمحسنين، ووصف ما قاموا به إحساناً، وأن الله تعالى مجاز كل محسن بإحسانه، فلا يضيع منه شيئاً. بل من دقة الجزاء والثواب أنه عَزَّ وجل لا يستثني النفقة الصغيرة في سبيله إلا ولها أوفر الجزاء والثواب ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ فلا تُنفق نفقة مهما كانت صغيرة أو كانت كبيرة، إلا ويجزيهم الله تعالى

عليها بأحسن الجزاء، وحتى ما يقطعونه من مسافات على الأرض فإنه يُكتب لهم به أحسن الجزاء وأعظمه ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ التي هي الأرض بين الجبال، وسواء كان ذلك في ذهابهم أو في رجوعهم ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ إلا وقد أثبت وسجل الله تعالى لهم مقابل ذلك الثواب الجزيل ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ فيجزيهم الله تعالى أحسن جزاء ما كانوا يعملون من الأعمال، فالجزاء من الله تعالى موصوف بالأحسن والأفضلية التي تتضمن الكثرة والمبالغة في العطاء الذي يتجاوز الاستحقاق الفعلي، لأن كلمة ﴿أَحْسَنَ﴾ تفيد التفضيل والارتقاء عن استحقاقهم الفعلي، وعن كل جزاء يمكن أن يتوقعونه، فليس بعده جزاء أحسن منه على الإطلاق.

وبعد هذا التحريض والاستنهاض للجهاد، وغرسه في نفوس المؤمنين، يوجه الله تبارك وتعالى المسلمين إلى الجانب العلمي، بأن تبقى فئة منهم تهتم به، وتوليه اهتمامها ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ وقد فاضت هذه الآية الكريمة بالعديد من الدلالات المتضافرة، التي أعطت برحابة بلاغتها وجزالة بيانها، وتراكيب ألفاظها فيضاً من المعاني التي فهمها واستنبطها بعض الصحابة رضي الله تعالى عنهم ومن بعدهم من العلماء.

فإنه لما أنزل الله تعالى بيانه عن عيوب المنافقين في غزوة تبوك، قال المؤمنون: والله لا نتخلف عن غزوة يغزوها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا سرية أبداً. فلما أرسل عليه الصلاة والسلام السرايا بعد غزوة تبوك نفر المسلمون جميعاً، وتركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده. فنزلت هذه الآية.[١] مما يفيد معالجة التنزيل الكريم للواقع، بما يحقق أهداف الدين ومبتغاه، ولتكون قاعدة للأمة. كما أن في ذلك إظهار لفائدة إنزال القرآن العظيم متفرقاً خلال بعثته صلى الله عليه وسلم، لمعالجة شؤون الأمة، ومستجداتها.

وذُكِر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بعث نفراً إلى البادية يُعَلِّمُون الناس الإسلام، فلما نزل قوله تعالى ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ انصرف هؤلاء عن البادية ورجعوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم، خشية أن يكونوا من تخلف، فأنزل الله تعالى عذرهم ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً﴾ وكَرِهَ انصراف جميعهم

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣٥١/٣)

من البادية إلى المدينة[١] فكانت مصححة للأفهام، وقاطعة للاختلاف، وضابطة للأحكام، فتحقق بها معالجة ما كان، مع بيان قاعدة الموازنة بين تحقيق الجهاد وتحقيق مصالح الدعوة وفقه التشريع.

قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: هذه الآية أصل في وجوب طلب العلم، لأن المعنى: وما كان المؤمنون لينفروا كافة، والنبي صلى الله عليه وسلم مقيم، فيتركوه وحده.[٢] وقال البعض: هي حكم مستقل بنفسه في مشروعية الخروج لطلب العلم، والتفقه في الدين[٣]

واستهل البيان الكريم في مطلع الآية الكريمة بالنفي الموجب لتحقيق المقصد والمراد الحقيقي من النفير، على الوجه الذي يحقق مصلحة الدين ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً﴾ ما كان يجب على المؤمنين أن ينفروا للغزو جميعهم في السرايا، فيتركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم دون أن يتركوا منهم من يكون معه صلى الله عليه وسلم ليتلقَّى ما نزل من الوحي، فيعلمون به غيرهم ممن فاتهم العلم بذلك، ولا يجب على من ذهب أو قام بتعليم الناس في البوادي أمور دينهم أن يترك ما هو مشتغل به فيذهب إلى الغزو في السرايا التي يبعثها النبي صلى الله عليه وسلم، فالمنهجية العملية هي ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ فإن التنظيم والترتيب والتخطيط وبناء الأمة يقتضي أن تنفر جماعة من كل مجموعة من القبائل والجماعات، ومن كل بادية ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ مما يدل على أن هذه الطوائف التي نفرت للقتال والجهاد في سبيل الله تعالى كافية عن غيرهم ممن لم ينفروا، لتقوم الطوائف الأخرى التي لم تنفر للجهاد بما يلزمها من تحقيق مصالح إقامة شريعة الدين، وذلك بالعلم والتعليم، فهناك أهداف يلزم أن تقوم بها الفرقة التي لم تنفر للجهاد، فالهدف الأول: هو الفقه في الدين ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ﴾ والهدف الثاني: ﴿وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ﴾ فيجعلوا مرادهم مما انتفعوا به وتعلموه من الفقه في شريعة الله تعالى من لدن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعلموا به أقوامهم إذا عادوا ورجعوا إليهم، سواء الذين ذهبوا للجهاد بعد عودتهم وغيبتهم، أو الباقون في أماكنهم، ممن يقومون بمصالحهم الدنيوية من الحرث والزرع والرعي وغيرها من متطلبات الحياة. والهدف الثالث هو: ﴿لَعَلَّهُمْ

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٧٦/١٢)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٨٦/٨)

(٣) الشوكاني، فتح القدير (٤١٦/٢)

﴿يَحۡذَرُونَ﴾ أي: أن يحذروا معصية الله تعالى، فيعملوا بما أراد الله تعالى مما أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم.

ومن معجزات البيان تعليل المراد من التفقه، بأنه للإنذار، قال تعالى ﴿وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ﴾ لأن الانذار يحمل التحذير من مكروه، وأما غاية الإنذار والهدف منه فهو ﴿لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ﴾ وهذا يتطلب ويستوجب الترغيب في الواجب والمطلوب، وكذلك الترهيب من الصد عن الحق والإعراض، ويكون ذلك بالموعظة والكلمة الحسنة، لأن الأصل في المنذر أنه يخاف على من ينذرهم، ويتحرى ويجتهد في كمال أسلوب البلاغ، مما يفيد أن الداعية الحقيقي هو الذي يبنى دعوته من خوفه على الناس من خزي الدنيا وعذاب الآخرة، فيرشدهم في تودد، وخوف ووجل عليهم من سخط الله تعالى وعذابه، وقد يتطلب ذلك الإنذار سرد وبيان الأدلة العقلية، وآيات الله الكونية، والشرعية، مع الصبر والتكرار والمعاودة، واستثمار الأحداث والعبر المعاصرة والماضية مما كان في الأمم السابقة، لاستثارة العقول والأفهام والعواطف والأفئدة نحو طاعة الله تعالى والحذر من المعصية.

ومن دقائق الألفاظ أن قابل لفظ النفير للجهاد لفظ النفير للفقه ﴿وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗۚ فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ﴾ ليعطي دلالة على رفعة ومنزلة الفقه في الدين مع تعليمه للناس، فسماه الله تعالى نفير ﴿فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ﴾ فطلب العلم نفير، وتعليمه جزء منه، والسفر لطلب العلم نفير، والعودة بالعلم على من نفر من عندهم للجهاد هو قسيم ذلك النفير، وشَطْرُهُ المكمل له. مما يفيد كذلك أن من هاجر لطلب العلم وتحصيله، أن يعود به إلى قومه لينفعهم به، وعليهم أن ينتفعوا به، وأن يكون غايته من ذلك هو تحقيق قوله تعالى ﴿لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ﴾ فيحققه في نفسه، ويسعى إلى تحقيقه بينهم، ومن متطلبات تحقيق هذا الأمر هو تحري الوسائل والأساليب التي تجعلهم يطمعون فيه، وفيما جاء به لهم من العلم، وألا ينفرهم بِتَكَبُّرِهِ عليهم، أو بتثقيله وتعقيده، أو بتجهمه، أو بغير ذلك من أسباب التنفير.

وحرف ﴿فَلَوۡلَا﴾ حرف تحضيض. فأعطى دلالة: الحضّ والتحضيض والتحفيز والاستنهاض للعلم، وهو دالٌّ على الوجوب في هذا السياق»، ومنه يُستفاد وجوب تحصيل العلم.

وقيَّدت الآية هذا الوجوب بكونه كفائياً بقيام طائفة من كل فرقة بتحصيل العلم. بحيث لا يلزم كل فرد، بل يكفي قيام طائفة.

وورد التقييد من قوله تعالى ﴿مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ وفي هذا ما يفيد وجوب تحصيل ما يحصل به حفظ العلم وتعليمه ونشره.

ويكون النفير للحرب واجباً على ما تتحقق به المصلحة، وبقدر حاجة الأمة في تحقيق المراد، وسواء كان للحرب أو كان في طلب العلم.

وكلمة ﴿طَآئِفَةٌ﴾ نكرة، غير محددة للعدد، بما يبين السعة في الأمر، وبما يستوعب به تقدير الحاجة، والموازنة بين حاجة النفير للحرب، وحاجة النفير للتفقه في الدين، فهي غير محددة بعدد معين، لتستوعب ما تتحقق به المصلحة، من تحصيل العلم، وتعليمه. وفي هذه المساحة ما يعطي الحاكم تقدير ما يراه مناسباً لتحقيق مصلحة الدين ومصلحة الأمة، مما يفيد في جانب الإدارة أهمية إعطاء المسؤول التفويض الذي يحقق به أداء المسؤولية بكفاءة عالية، وكذلك أهمية التنظيم، والموازنة بين المصالح، والتخطيط لها. وفي هذا السياق البياني ما يستطيع أن يستنبط منه الفقيه بالقياس أموراً عديدة في قضايا القواعد العامة، وهذا من الإعجاز البياني العظيم، ورحابة فيض العطاء التعليمي والإداري لهذا البيان.

وجملة ﴿كُلِّ فِرْقَةٍ﴾ تفيد التعيين الْمُوجِب على كل فرقة أن تكون منها طائفة باقية لتحصيل العلم وتعليمه ونشره، وليس لفرقة عن فرقة، بل كل فرقة. والفرقة هي: الجماعة المنفصلة والتي قد تمثلها قبيلة، أو قد تمثلها مجموعة متحدة من الناس.

بل ومن جميل القول ودقة البيان أن الله تعالى لم يقل من كل قبيلة أو قوم أو نحو ذلك من المسميات العرقية، بل جاء لفظ فرقة، وكذلك لفظ طائفة، لأنها أدق في تحقيق المراد والمقصد. بما يفيد تلاشي الاجتماع والاتحاد في الإسلام من خلال القبيلة والنسب، بل تجاوزه إلى الفرقة والطائفة التي تجتمع لتقوم بمهام محددة، وتجمعها روابط مرتكزة ومبنية على الإسلام. فالأوس والخزرج أصبحتا تحت مسمى: الأنصار، ومن هاجر من مكة من قريش ومن غيرهم أصبحوا المهاجرين، فاضمحلت القبيلة من حيث التناصر تحت لواء الإسلام

وعند تآخي المهاجرين والأنصار اضمحلت وصغرت الفروق وأصبحوا إخوة قال تعالى في سورة آل عمرآن ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾

فأهل المكان الواحد على اختلاف أعراقهم فرقة، وأهل السرية فرقة، بصرف النظر عن توزيعهم القبلي. وهذا من عظمة الإسلام في إذابة أتباعه تحت راية الإسلام وهديه، بما يفيد الإعجاز التكويني والتربوي في تربية النفوس ونقلها من العنصرية القبلية إلى التقارب والتواد. ومن العداوة إلى التآلف ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾

وكلمة التفقه أعمق من العلم، فبهذا السياق. لأن العلم تحصيل المعلوم ومعرفته. والتفقه من صيغ المبالغة: فالتفقه يعني التفعل، فهو الفهم الزائد عن العلم بالشيء. ففيه علم المقاصد والتطبيق، وحُسن المعالجة.

وقد أوضح ذلك ﷺ (رب حامل فقه ليس بفقيه) فحامل الفقه عالم به، ولكن قد لا يكون متفقها في دقائقه ومراميه وحالاته والقدرة على الاستنباط والاستنتاج.

والتفقه يحتاج إلى تكلف. لأن المبالغة في الشيء ومنه الفقه تحتاج إلى تكلف الانتباه والاصغاء لمواطن النهي والأمر وعلله. ولذلك يقول الفقهاء: الحكم يدور مع علته.

ومن معجزات البيان تعليل التفقه بالإنذار ﴿وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ لأن الإنذار يحمل التحذير من مكروه، ويحمل الترغيب في الواجب والمطلوب بالموعظة والكلمة الحسنة، لأنها نابعة من المنذر الذي يخاف على من ينذرهم. مما يفيد أن الداعية الحقيقي هو الذي يخاف على الناس من عذاب الله تعالى. فيرشدهم في تودد وخوف ووجل عليهم من سخط الله تعالى وعذابه.

وقد يتطلب ذلك الإنذار سرد وبيان الأدلة العقلية وآيات الله الكونية والشرعية، واستثمار الأحداث المعاصرة والماضية في الأمم السابقة لاستثارة الأفهام والعواطف والأفئدة.

فالتحضيض في الآية الكريمة يفيد التقييد لعموم النفير، وتخصيص التفقه بما يستحقه من العناية والقيام بأمره. فيكون تخصيصاً لعموم النفير. وفي هذا التخصيص ما يفيد وجوب تحصيل ما يحصل به حفظ العلم وتعليمه ونشره، فيكون النفير واجب بقدر ما تتحقق به مصلحة حاجة الأمة، وسواء كان ذلك النفير للحرب أو لطلب العلم وتحصيله وإبلاغه.

وجملة ﴿مِن كُلِّ فِرْقَةٍ﴾ تفيد التعيين الواجب على كل فرقة من أن تكون منها طائفة باقية لتحصيل الفقه وتعليمه ونشره، ولا تغني فرقة عن فرقة، بل كل فرقة يجب أن تنفر منها طائفة للعلم، وطائفة أخرى للجهاد. والفرقة هي الجماعة المنفصلة، قد تمثلها قبيلة أو تمثلها مجموعة متحدة من الناس. ومن جميل القول ودقة البيان: أن الله تعالى لم يقل: من كل قبيلة أو قوم، أو نحو ذلك من المسميات العرقية، بل جاء لفظ: فرقة ﴿مِن كُلِّ فِرْقَةٍ﴾ ولفظ طائفة ﴿طَآئِفَةٌ﴾ لأنها أدق في تحقيق المراد والمقصد، وتتناسب مع تغيرات أحوال الانتماء بين الناس في ظل راية الإسلام وهديه. بما يفيد تلاشي الاجتماع والاتحاد في الإسلام من خلال القبيلة والنسب، بل تجاوزه إلى الفرقة والطائفة، التي تجتمع على أساس الدين، من أجل أن تقوم بمهام محددة، وأن اجتماعها يعتمد على روابط ومرتكزات مبنية على الإسلام، وليس على العرق والنسب والقبيلة. فإن الأوس

والخزرج أصبحوا تحت مسمى الأنصار، فتلاشت العلاقة القبلية تحت العلاقة الدينية. وأما من هاجر من مكة من قريش ومن غيرهم أصبحوا تحت مسمى المهاجرين، فاضمحلت القبيلة من حيث التناصر تحت لواء وكنف الإسلام. واضمحلت وتلاشت الفروق عند تآخي المهاجرين والأنصار، وأصبحوا إخوة، قال الله تبارك وتعالى ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ فأهل المكان الواحد على اختلاف أعراقهم فرقة، وأهل السرية فرقة، بصرف النضر عن توزيعهم العرقي. وهذا من عظمة الإسلام الذي أذاب أتباعه تحت راية الإسلام وهديه، بما يفيد الإعجاز التكويني الاجتماعي في تربية الأمة، وذلك بتربية النفوس وتهذيبها، ونقلها من عنصرية العرقية والقبيلة إلى التقارب والتواد الديني، ونقلها من العداوة إلى التآلف، ومن التنافر إلى التواد، قال تعالى في سورة آل عمران ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾

وكلمة التفقه من قوله تعالى ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾ أعمق من قوله ليتعلموا أو ليعلموا، لأن العلم تحصيل المعلوم ومعرفته، وأما التفقه فهو من صيغ المبالغة. فالتفقه على وزن التَّفَعل، فهو الفهم الزائد عن العلم بالشيء، ففيه علم المقاصد والقياس والتطبيق، والمعالجة عند العجز أثناء التطبيق، وقد أوضح النبي صلى الله عليه وسلم الفرق بين العلم والفقه في قوله عليه الصلاة والسلام (ورُبَّ حامل فقه ليس بفقيه)[١] فحامل الفقه قد يكون عالم به، ولكنه ليس متفقه في دقائقه ومضامينه ومراميه وحالاته، وليس له القدرة على الاستنباط والقياس، وبسط سلطان النص على ما يسعه النص والحكم. وقد جاء في تعريف الفقه: العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسب من أدلتها التفصيلية، وقيل هو: الإصابة، والوقوف على المعنى الخفي الذي يتعلق به الحكم. وهو علم مستنبط بالرأي والاجتهاد، ويحتاج فيه إلى النظر، والتأمل[٢]

فالتفقه يحتاج إلى تكلف، لأن المبالغة في الشيء تحتاج إلى أن يتكلف المتفقه مزيداً من العناء فيه، وسواء كان ذلك في فحصه، أو إدراك سعة مراده، وسعة سلطان النص. فإن المبالغة في الفقه تحتاج إلى التكلف في الانتباه، وفي الاصغاء، وكذلك في مواطن الأمر والنهي وعلله، ولذلك يقول الفقهاء: الحكم يدور مع علته. وهذا يحتاج معرفة العلل، والتمعن فيها، بما يصل إلى درجة التكلف فيها.

ومن فوائد النص الحكيم في جانب ومجال التفويض الإداري والتنظيمي أن الله تعالى لم يحدد ويعين صفات من ينفر إلى العلم، ومن ينفر إلى الجهاد، بل جاء الأمر فيها واسعاً، بما تقتضيه المصلحة التي يحددها المنوط به الأمر. وبما يرى الفرد من نفسه ومن حاله ونفعه لأمته.

---

(١) أبو داود، سنن أبي داود (٤/٦٨-٦٩) برقم (٣٦٦٠)

(٢) الجرجاني، التعريفات (١٦٨)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوۡنَ أَنَّهُمۡ يُفۡتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٖ مَّرَّةً أَوۡ مَرَّتَيۡنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٖ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾ ﴾

يوجه الله تعالى المؤمنين لقتال الذين يلونهم من الكفار ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ تَصدَّر الخطاب الإلهي الكريم بياء النداء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ﴾ وناداهم بصفة الإيمان التي هي أعلى درجات الوصف ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ والتي تحمل دلالة الثناء لهم ولمن اتصف بها، وتزكيتهم بأنهم صَدَّقُوا الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وبما جاء به عن الله تعالى على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، فأنعم به من نداء، مما يفيد أهمية نداء المخاطبين بأرفع الصفات والخصائص، فإنها أدعى للاستجابة والتفاعل، فإذا كان الله تعالى ينادي عباده ممن أطاعه بمنزلة ورتبة الإيمان، فكيف بالعبد مع غيره من خلق الله تعالى، فإنه أدعى وألزم أن يتخاطبوا بأفضل الألقاب.

فيأمر الله تعالى المؤمنين بأن يبدأوا بقتال الكافرين وفق ترتيب الأقرب فالأقرب دياراً من الأقوام الكافرة ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ ﴾ وهي عامة، وكان الأقرب آنذاك هم الروم في بلاد الشام. قال ابن جرير رحمه الله تعالى: وكان الذين يلون المخاطبين بهذه الآية يومئذ الروم، لأنهم كانوا سكان الشام يومئذ، والشام كانت أقرب إلى المدينة من العراق[1] وقد أعدت الروم العدة لمقاتلة المسلمين، وجمعت

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٢/٨٥-٨٦)

جموعاً كثيرة بالشام، مما استدعى الأمر مقاتلتهم في غزوة تبوك، التي لم تحصل فيها مواجهة بين الفريقين، وذلك لانسحاب الروم وتشتت من كان معهم.

وهذا التوجيه الرباني الكريم يفيد التدرج في مقاتلة العدو، مما يعني عناية منهج الإسلام بالتنظيم، والتخطيط، المبني على رؤية سديدة محكمة، وأنه دين علم وتوجيه وعناية، وليس قائم على العشوائية، والتصرفات غير المنظمة والمرتبة، ووفق أهداف واضحة مليئة بالخير للعباد. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أمر الله تعالى المؤمنين أن يقاتلوا الكفار أولاً فأولاً، الأقرب فالأقرب إلى حوزة الإسلام، ولهذا بدأ الرسول صلى الله عليه وسلم بقتال المشركين في جزيرة العرب، فلما فرغ منهم وفتح الله عليه مكة والمدينة والطائف واليمن واليمامة وهجر وخيبر وحضرموت، وغير ذلك من أقاليم جزيرة العرب، ودخل الناس من سائر أحياء العرب في دين الله أفواجا، شرع في قتال أهل الكتاب[١]

ويخبر الله تعالى بما يجب أن يكونوا عليه ﴿ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ أي: فليجدوا منكم شجاعة وشدة وقوة، وهذه من متطلبات الحرب، والتعامل مع العدو، لتحصل لهم الهيبة من عدوهم بشجاعتهم، فينزجر وينكسر، ثم يخبر الله تعالى عباده المؤمنين بأن تسديده وعونه لمن التزم التقوى ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ مما يفيد أن على من أراد معية الله تعالى وتسديده ونصره فعليه أن يتقي الله تعالى، وأنه طالما اتقيتم الله تعالى فإنه معكم بنصره وتأييده وعنايته.

وأما باعتبار نسق ورودها ضمن الأمر بقتال العدو، فإنه يستفاد منها كذلك أن عليكم بتقوى الله تعالى ولزوم أمره مع العدو، من عدم الاعتداء والتجاوز. كما جاء في سورة البقرة من قوله تعالى ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾ كما قال الحسن البصري رحمه الله تعالى: من المثلة والغلول، وقتل النساء والصبيان والشيوخ، والرهبان وأصحاب الصوامع، وتحريق الأشجار، وقتل الحيوان لغير مصلحة، كما قال ذلك ابن عباس وعمر بن عبدالعزيز ومقاتل بن حيان وغيرهم.[٢] رحمهم الله جميعاً. كما جاء في الحديث من قوله صلى الله عليه وسلم لأصحابه رضي الله عنهم. فعن سليمان بن بريدة عن أبيه رضي الله عنهم: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أمَّر أميراً على جيش، أو سرية، أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً، ثم قال: (اغزوا باسم الله، في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تَغِلُّوا، ولا تغدروا، ولا تُمَثِّلُوا، ولا تقتلوا وليداً، وإذا لقيت عدوك من المشركين

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٤١٦)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/٢٣٣)

فادعهم إلى ثلاث خصال، أو خلال، فَأَيَّتُهُنَّ ما أجابوك فاقْبَل منهم، وكُفَّ عنهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك، فاقبل منهم، وكف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك، فلهم ما للمهاجرين، وعليهم ما على المهاجرين، فإن أبو أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين، ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا فسلهم الْجِزْيَةَ، فإن هم أجابوك فاقبل منهم، وكُفَّ عنهم، فإن هم أبوا، فاستعن بالله وقاتلهم، وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه فلا تجعل لهم ذمة الله، ولا ذمة نبيه، ولكن اجعل لهم ذمتك، وذمة أصحابك، فإنكم أن تُخْفِرُوا ذممكم وذمم أصحابكم أهون من أن تُخْفِرُوا ذمة الله، وذمة رسوله، وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله، ولكن أنزلهم على حكمك فإنك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا)[١]

ثم يخبر الله تعالى بالمزيد عن حال المنافقين تجاه ما ينزل من القرآن الكريم، وأثره عليهم، وما يدور بينهم من نقاش حول نزوله، وفي هذا الإخبار كشف لحقائقهم التي يخفونها بينهم ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴾ فإذا أنزل الله تعالى سورة من القرآن الكريم تساءل بعضهم بعضاً فيما بينهم ﴿ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗا ﴾ فيطرحون ذلك التساؤل بين بعضهم البعض، من باب التهكم والاستهزاء، لأنهم لا يرون فيها ما يزيد به الإيمان. فيقولون أيكم تصديقاً بالله وبآياته، ومن عدل الله تعالى فيهم أنه قال تعالى ﴿ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ ﴾ وليس جميعهم، مما يوجب ويُعلم العدل في الحكم، والتخصيص إذا اقتضى الأمر ذلك.

ثم يبين الله تعالى أثر ما نزل من القرآن الكريم على المؤمنين، وأثره على المنافقين، فيقول تعالى مبتدئاً بالمؤمنين ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴾ فقد تحقق لهم أمران، الأول: ازدادوا إيماناً به على إيمانهم، مما يثبت التصديق بها تصديقهم السابق، والإقرار التام بمضمونها، مما يفيد أن الإيمان يزيد، ومما يزيد به تلاوة القرآن الكريم وتأمله وتدبره، والأمر الثاني: يستبشرون فرحاً بنزولها، وقد وردت كلمة ﴿ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴾ عامة لتفيد جميع ما تستبشر به النفس وتفرح، فهو فرح بما نزل، وبما نالهم من الإيمان والتقوى والخشية، وبما فيه من الوعد لهم بالخير، والنصر والتمكين في الدنيا، والجنة في الآخرة، وكذلك ما فيه من الوعيد لأعدائهم، أعداء الدين من الهزيمة في الدنيا، والعذاب في الآخرة.

---

(١) مسلم، صحيح مسلم (١٣٥٦/٣) برقم (١٧٣١)

ثم يخبر الله تعالى بما يكشف به عن قلوب المنافقين ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ فأما الذين في قلوبهم شك ونفاق، وهو المرض القلبي المتعلق بالإيمان ﴿ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ فكل سورة تنزل إنما تزيدهم رجساً إلى رجسهم، أي: قبحا ونتناً على قبحهم وعفنهم، لأنهم منافقون شاكُّون غير موقنين بما جاء من عند الله تعالى، فازدادوا بها شكاً على شكهم السابق، فتتراكم شكوكهم وتزداد عليهم، فلا ينتفعون من الحق بشيء ﴿ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ فماتوا بعقيد الكفر بالله تعالى وبآياته، لأنه لم يتحقق في قلوبهم الإيمان.

ومن دقة الوصف وتقريب المعنى والصورة أن وصف الله تعالى شكهم بالرجس ﴿ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ ﴾ والرجس هو القذر والنتن والقبيح، وكل شيء قذر ممقوت فهو رجس، فجمعت كلمة الرجس الصفات العفنة الرديئة شرعاً وحساً ونتيجة، فالشك رجس، والكفر رجس. فكان مرض النفاق قبح كفري موصوف بالرجس. وزادهم الله تعالى عقاباً لهم من جنس فعلهم، فشكوكهم شكوك افتراء واستكبار، فزادهم الله تعالى شكاً في أمرهم، عقاباً لهم، ومن جنس صنيعهم.

وفي تعيين مكان مرض النفاق أنه في القلب ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ فدليل على أهمية القلب ومنزلته، وأنه محطة الخير، ومحطة الشر، فإذا تغذى بالشر انعكس على أخلاق وسلوك وعقيدة ودين الإنسان، فكان ما يصدر عنه رجس مقيت، وعفن بغيض. وأما من تغذى قلبه بالقرآن والاستجابة لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم، فإنه يستنير ويستبشر قلبه ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ فانعكس ذلك على أخلاقه وتصرفاته وعلى عقيدته، فنالته السكينة والطمأنينة كما قال صلى الله عليه وسلم (ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب)[1]

ثم يخبر الله تعالى بما كان منه سبحانه وتعالى لهؤلاء المنافقين من ابتلاء واختبار من أجل أن يتوبوا، ولكنهم يمتنعون عن ذلك ﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا

(١) البخاري، الجامع الصحيح (٣٤/١) برقم (٥٢)

﴿يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ فهذا سؤال استنكاري لحالهم في عدم استجابتهم للموجب لهم على الإيمان، وذلك لما يحدث لهم من الله تعالى من الابتلاء والاختبار المتكرر ﴿فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ ومع ذلك لا يتوبون ﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ فلا يتوبون مما هم فيه من النفاق ﴿وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ ولا يعتبرون ويتعظون ويستفيدون من ذلك فيما هو قادم من مستقبل أحوالهم. وفي هذا توبيخ لسوء تذكرهم واستفادتهم من مواعظ الله تعالى الحسية التي تصيبهم، كالجوع والقحط، أو بما يرونه من انتصار رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما يحصل من مكر الله تعالى له بأعدائه، وغير ذلك من الفتن الممحصة والمبينة خطأ اعتقادهم وفساد ما انطوت عليه قلوبهم.

ومن أحوال الفتن التي يصيبهم الله تعالى بها، كما ذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى وما جمع من الأقوال فيها: أن أحد الأقوال: أنهم يكذبون كذبة أو كذبتين، يُضِلّون بها، قاله حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، والثاني: ينافقون ثم يؤمنون، ثم ينافقون. قاله صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما. والثالث: يُبْتَلون بالغزو في سبيل الله تعالى، قاله الحسن وقتادة رضي الله عنهم. والرابع: يُفتَنُون بالسَّنة والجوع، قاله مجاهد. والخامس: بالأوجاع والأمراض، قاله عطية. والسادس: ينقضون عهدهم مرة أو مرتين، قاله يمان، والسابع: يكفرون. وذلك أنه إذا أخبرهم النبي صلى الله عليه وسلم بما تكلَّموا به إذا خَلَوا، علموا أنه نبي، ثم يأتيهم الشيطان فيقول: إنما بلغه هذا عنكم، فيشركون، قاله مقاتل بن سليمان. والثامن: يُفْضَحُون بإظهار نفاقهم، قاله مقاتل بن حيان(١)

ومن دقائق البيان لحالهم أن الله تعالى قد وصف دقائق تصرفهم التي قد لا يتنبه لها أحد، ولا يفطن لمرادهم الفطين من الناس ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ فإذا أنزلت سورة تكشف عيوبهم، تهامسوا بالنظر فيما بينهم من خلال التغامز بالعيون، للخروج من مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان النظر بينهم للتثبت من أنه لا أحد من المؤمنين يرى تهامسهم وترتيب خروجهم ﴿هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ بحيث لا يفطن للخارج منهم أحد في المجلس، مما يفيد أنهم مجموعة يعرف بعضهم بعضا. وقولهم ﴿هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ تفيد وتبين علة النظر فيما بينهم، أنه للتثبت من أنه لا يراهم أحد من المؤمنين، ليكون خروجهم تسللاً وخفية، ووفق تخفي وترتيب وتنظيم، فكانت لغة الكلام بينهم للتشاور هو ترامقهم بالعيون

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣/٣٥٣)

﴿ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ ﴾ فانصرفوا وفق تلك الإشارات البصرية. ولكن الله العظيم العليم الخبير ينظر إليهم، ويكشف دقائق أمرهم الخبيث. وهذا الكشف لمكنون قلوبهم كان يكفيهم آية للإيمان، لو كانت حقيقتهم أنهم راغبون في الحق، فلكان هذا الكشف من الله تعالى لسرائرهم يكفي لإيمانهم وتصديقهم بالله تعالى وبرسوله صلى الله عليه وسلم، ولكنهم قوم عناد للحقيقة البينة، وللآيات الباهرة. فسلكوا مسلك النفاق للتَّخفي بكفرهم، فلم يتوبوا بما أصابهم من تلك الفتن التي كانت تحل بهم في كل عام مرة أو مرتين، فلم يعودوا إلى رشدهم.

وهذا الانصراف منهم عن المجلس دليل على قوة التمادي والإصرار على الكفر. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: هذا أيضاً إخبار عن المنافقين أنهم إذا أُنزلت سورة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ﴾ أي: تَلَفَّتُوا ﴿ هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ ﴾ أي: تولوا عن الحق وانصرفوا عنه، وهذا حالهم في الدنيا لا يثبتون عند الحق، ولا يقبلونه ولا يفهمونه[1] وذكر ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: يقول تعالى ذكره ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ ﴾ أي: من القرآن فيها عيب هؤلاء المنافقين، الذين وصف جَلَّ ثناؤه صفتهم في هذه السورة، وهم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ﴾ فتناظروا ﴿ هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٍ ﴾ إن تكلمتم أو تناجيتم بمعايب القوم يخبرهم به. ثم قاموا فانصرفوا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يستمعوا قراءته السورة التي فيها معايبهم.[2] خاصة وأنهم متخوفون من أن يُنَزِّل اللهُ تعالى فيهم سورة تكشف عن المكنون الذي في قلوبهم من النفاق، كما جاء في هذه السورة الكريمة ﴿ يَحۡذَرُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيۡهِمۡ سُورَةٞ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمۡۚ ﴾ فهم في خوف وخشية من أن تنزل فيهم سورة تُظْهِرُ للمؤمنين ما في قلوبهم من النفاق. بما يؤكد أنهم متواطئون مع بعضهم البعض على هذا المسلك الخبيث.

وفي خروجهم وعدم صبرهم على الجلوس والاستماع ما يبين غيظهم وكرههم لما يسمعون، وبغضهم الذي تستنفر به قلوبهم من الاستماع للحق، مما يؤكد استكبارهم على الحق الذي أيقنوه يقيناً تاماً.

فعاقبهم الله تعالى بجنس فعلهم، فكما انصرفوا عن الحق، صرف الله تعالى قلوبهم عن الحق ﴿ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ﴾ فصرف الله تعالى قلوبهم عن الخير والحق والتوفيق للإيمان، جزاء وفاقا، لأنهم لم يتعظوا بمواعظ الله تعالى التي لا شك في أنهم أيقنوها حقيقة، وذلك عناداً

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٤١٧-٤١٨)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٢/٩٤)

واستكباراً عن الحق. مما يبين أن المستكبر يكابر على الحق في كل مجال، حتى يتمادى به الكبر إلى الاستكبار على الله تعالى وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم، وعلى الآيات الباهرات البينات التي استيقنها وعرف حقيقتها.

ثم يختم الله تعالى السورة الكريمة بالإخبار بما امتن به على عباده مِن إنزال خيراته وبركاته عَزَّ وجل ببعثة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ فإن الرسول النبي محمد صلى الله عليه وسلم هو من جنسكم ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ فليس بغريب عليكم، وليس مجهولاً عليكم، بل هو من جنسكم، وبلغتكم، وتعرفون نسبه، وصدقه وأخلاقه وسجاياه التي لا يذمه فيها أحد من الناس، وأنه لم يعبد صنماً قط، وفي دلالة الإخبار بهذه الصفة وتعيينها أنه من أنفسكم، ما يدل على أنها متضمنة لمكارم الصفات، فلا تعيبون عليه ما تعيبونه على غيره من الناس. فلماذا يحصل من بعضكم الإنكار عليه، لأن الله عَزَّ وجل اصطفاه من بين جنسه. قال القرطبي رحمه الله تعالى: والخطاب للعرب في قول الجمهور. وذكر كذلك عن دلالة ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ أنه يقتضي مدحاً لنسب النبي صلى الله عليه وسلم، وأنه من صميم العرب وخالصها(١)

ومن وجه آخر يدل لفظ من جنسكم أن الخطاب عام للبشرية كلها لأن ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ يدل على أنه من نفس البشر، أي من آدم عليه السلام، فلم يأتيكم من غير جنسكم بما يجعلكم تتوهمون وتنكرون وتشكون فيه. قال الزجاج رحمه الله تعالى: بشر مثلكم، فهو آكد للحجة، لأنكم تفقهون عَمَّن هو مثلكم(٢) وهذا من غزارة بيان القرآن العظيم، إذ استوعبت الأوجه في توافق وتعاضد في دلالتها، ومن غير تعارض بينها، وهذا من الإعجاز البياني في كلام الله تعالى، إذ يأتي سياق النص مستوفياً ومستوعباً للمراد بجميع مفرداته.

وقد ذكر الله تعالى ثلاث خلال من صفاته صلى الله عليه وسلم، وهي: قوة عنايته بالناس وخوفه عليهم من كل شر في الدنيا والآخرة ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾ فيعز ويشق عليه الذي يشق عليكم من المكروه والأذى والمشقة، مما يدل على محبته الخير للناس إلى درجة الشفقة عليهم، فيشق عليه أن يصيبهم المكروه والأذى. وكذلك من صفاته صلى الله عليه وسلم أنه ﴿ حَرِيصٌ عَلَيْكُم ﴾ فهو شديد الحرص على توبتكم ورجوعكم إلى الحق، وأن تنتفعوا بالإيمان وعبادة الله تعالى وطاعته، والتي يُدخلكم الله تعالى

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٩١/٨)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣٥٤/٣)

بها الجنة، ومن صفاته صلى الله عليه وسلم أنه ﴿ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾ أي: رفيق رحيم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: سماه الله تعالى باسمين من اسمائه[1] وهذا دليل على أن الله تعالى وفَّاه بتلك الخصائص، واصطفاه من بين جنسه، لما غرس فيه من المكارم التي تتحقق بها مهمة الرسالة، وهذا من رحمة الله تعالى أن اختار لعباده النبي الذي حاز هذه المكارم من الأخلاق، وشمائل الصفات.

ومع هذه الصفات الكريمة النبيلة من الحرص عليهم والرأفة والرحمة، فإن لم ينتفعوا بها، ويستجيبوا لك أيها النبي، فإن موقفك ومنهجك هو مضمون قوله تعالى ﴿ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ فحال توليهم وعدم استجابتهم لك مع جميع تلك الصفات التي اتصفت بها، وأثبتها الله تعالى لك، ويسرها وهداك إليها، وشهد لك بها، وأصبحت آيات تتلى إلى يوم القيامة ﴿ فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ أي: يكفيني الله تعالى الذي لا معبود سواه، وقد وَثقت به، وبعونه وتسديده عَزَّ وجل، واتكلت واعتمدت على نصره وتوفيقه، واستندت واعتمدت عليه في كل شيء، فإنه ناصري ومُعيني ومُسددي على من خالفني وتولى عن دعوتي ورسالتي التي أرسلني الله تعالى بها ﴿ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ فإن الله تعالى هو رب العرش الذي هو أعظم المخلوقات، وفوق كل مخلوق، فإن كل شيء من المخلوقات دونه وتحته، فهو رَبَّ العرش ورَبَّ كل مخلوق. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي هو مالك كل شيء، وخالقه، لأنه رَبَّ العرش العظيم الذي هو سقف المخلوقات، وجميع الخلائق من السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما تحت العرش، مقهورون بقدرة الله تعالى[2] وهذا يدل على عظيم معنى ودلالة هذا القول الكريم ﴿ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ فإنها تعني تَجَرُّد المخلوق من الحول والقوة، وقائلها يفوض الأمر إلى لله تعالى في كل شيء، وتعني استسلام العبد له سبحانه وتعالى، وأنه يحقق بها الاعتراف له عَزَّ وجل في تدبيره وشأنه، ويعترف بها الفرد بضعفه وافتقاره لربه وخالقه سبحانه وتعالى، فيقرر أن السؤال والالتجاء يكون لقدرته وعزَّته عَزَّ وجل.

---

(١) المرجع السابق (٣/٣٥٤)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٤١٩)

ومن مزيد فوائد ﴿حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾ يكفيني الله تعالى الذي لا معبود سواه، والذي قد وثقت به وبعونه وتسديده، واتكلت واعتمدت على نصره وتوفيقه، فاستندت واعتمدت عليه في كل شيء، فإنه ناصري ومعيني ومسددي على من خالفني وتولى عن دعوتي ورسالتي التي أرسلني الله تعالى بها.

كما قرر البيان الكريم توحيده عَزَّ وجل وإفراده بالعبادة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فهو المألوه الذي لا إله غيره عَزَّ في علاه. فبدأ مطلع البيان بالنفي لكل مألوه ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾ ثم حصر الألوهية له وحده لا شريك له ﴿إِلَّا هُوَ﴾ فلا رب سواه، ولا معبود يُعبد إلا هو تبارك وتعالى. فهو فقط الإله المألوه، والرب لكل شيء. فلا معبود بحق غيره عَزَّ وجل، وأن غيره دونه، مما يفيد أن من عبد غير الله تعالى فقد كفر بربه وخالقه عَزَّ في علاه. وقد أفاد اسم الإشارة ﴿هُوَ﴾ الذي سبقه أداة الحصر ﴿إِلَّا هُوَ﴾ التعظيم والحصر بأنه الله وحده لا شريك له. ذو الألوهية، الذي يجمع صفات الكما والجلال. لإظهار أهمية توحيد الله تعالى وجلالة قدره، بأن يُفْرَد بالألوهية والربوبية، وبأسمائه وصفاته العظيمة الجليلة، وأن التوحيد أساس العلم والغاية والركيزة التي يعتمد عليها الدين. وعمود الإسلام وأساسه. والذي ينفي به الشرك، ويقرر به توحيد الله تعالى في ربوبيته وألوهيته، وفي أسمائه وصفاته سبحانه وتعالى.

ثم يعزز ذلك بإظهار أن هذا الإكفاء والعون يكفيني، ويكفي كل من توكل واعتمد على ربه سبحانه وتعالى ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ فعليه جَلَّ جلاله أعتمد، وهو الذي يجب على كل أحد أن يتوكل عليه عَزَّ في علاه. فإنه هو الكافي الذي يكفي من توكل عليه، في جلب المصالح، ودفع الضر عمن يعتمد عليه، ويمنحهم الرحمة والنعمة والخير والفضل التي لا يستطيع أحد أن يمنعها أو يُنقصها عمن توكل عليه عَزَّ وجل. فهو الذي بيده الكفاية التامة. مما يفيد لن تستطيعوا تغيير ما أنا فيه، وسأمضي فيه، ولن تبلغوا أنتم وآلهتكم المزعومة مرادكم من منعي ومحاربتي. فعليكم بقبول دين الله تعالى بعد أن اتضحت لكم الحقائق بنور الله تعالى. ثم عَزَّز ذلك بعظمة العرش ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ الذي هو سقف المخلوقات، والذي يلزم منكم الهيبة لربكم رب العرش العظيم.

فتم بحمد الله إتمام ما يتعلق بسورة التوبة، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتُب علينا إنك أنت التواب الرحيم.